اللهُ جلّ جلاله

أنيس المحبين

أسماءُ اللهِ الحُسنَى

مِن الكِتَابِ والسُّنَّةِ

عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُشَبِّبِ بْنِ مُسْفِرٍ القَحْطَانِيُّ

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ لِلمُؤَلِّفِ

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَةُ

سَنَة ١٤٤١هـ - سَنَة ٢٠٢٠م

عبد الله بن مشبب بن مسفر القحطاني، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القحطاني، عبد الله بن مشبب بن مسفر

الله أنيس المحبين. /عبدالله بن مشبب بن مسفر القحطاني. – ط٢- الدمام، ١٤٤١هـ

٤٧٣ص ؛ ..سم

ردمك: ٢-٦٦-٤٢-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

١- الأسماء والصفات أ. العنوان

ديوي ٢٤١ ١٤٤١/٩١١٢

رقم الإيداع: ١٤٤١/٩١١٢

ردمك: ٢-٦٦-٤٢-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئـــة

هذا الكتاب . .

قصتك مع الله ﷻ

تَرويها مشاعرك

بعد معرفة كل اسمٍ

إِهْـــدَاءُ

إلى والدَيَّ . .

بعضًا ممَّا كُنتما تَسألانِ المولى عَزَّ وَجَلَّ لي؛ ولن أُدركِ ردَّ جُزءٍ من فيضِ عطائكما، وكثيرِ إحسانكما . .

ثم إلى: كل قلبٍ عرَفَ ربَّهُ وتقرَّبَ إليه . .

أُهديكم . . ثمرةَ جُهدٍ؛ أسألُ اللهَ قبولَهُ!

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وصلى الله على نبينا محمد وسلم تسليماً، أما بعد :

فهذه الطبعة الثانية، أضعها بين يدي القاريء الكريم، وبعد أن نفدت الطبعة الأولى بشكليها (٦٠٠٠) نسخة في وقت قصير، ولله الحمد والمنة، وبعد مراجعة مادة الكتاب؛ تنقيحًا، وإضافةً، وحذفًا.

راجيًا أن يكون الكتاب ملائمًا لقرائه، كافياً في بابه، وافياً في مقصوده.

ولنشر العلم رجاء الثواب؛ فإني أفسح طباعة الكتاب بشروط :

عدم الحذف أو الزيادة ، وأن تكون الطباعة فاخرة تليق بمادة الكتاب، وأن يتم المراسلة على الجوال رقم:

(٠٠٩٦٦٥٦٤٥٧٠١١٧) أو الإيميل: (ga.1440.ga@gmail.com)

وذلك للتأكد من عدم وجود تعديل أو إضافة إلى الكتاب.

ثم الشكر لدار ابن الجوزي، ومكتبة المتنبي بالدمام على جهودهما فيما مضى، سائلاً من الله التوفيق والهداية والقبول.

والحمد لله رب العالمين

المؤلف

مُقَدِّمَة

الحمدُ لله، والصَّلاة والسَّلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، أما بعد:

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ أَبْوَابِ زِيَادَةِ الإِيمَانِ: معرفةَ الله ﷻ بأسمائه وصفاته وأفعاله، فكلُّ اسمٍ من أسماء الله بابٌ من أبواب الدخول عليه، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠]، فكيفَ بمن أحصاها؟! صحَّ عنه ﷺ أنَّه قال: «إِنَّ لِلهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلاَّ وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»[أخرجه البخاري ومسلم].

وكنتُ أَسْألُ اللهَ ﷻ أن يمنَّ عليَّ بشرف إحصائها، فبدأتُ عام (١٤٣٠هـ) بإلقائها مختصرة، فشعرتُ بأشواق المستمعين لمعرفة أسماء الله وصفاته..

وكيفَ لا يشتاقُ المؤمنُ إلى معرفتها؛ وهو يزدادُ حُبًّا لله وشوقًا إلى لقائه عند معرفةِ كلِّ اسمٍ؟!

كيفَ لا يشتاقُ المؤمنُ إلى معرفةِ أسماء الله وصفاته؛ وقد علِمَ أنَّها: طوقُ نجاةٍ لكلِّ مهمُومٍ أو مظلُومٍ أو مدِينٍ أو مريضٍ أو سجينٍ أو حائرٍ؟!

كيفَ لا يشتاقُ المؤمنُ إلى معرفةِ أسماء الله وصفاته؛ وقد علِمَ أنَّها: مفاتيحُ الفرجِ، ومفاتيحُ السَّعادة، ومفاتيحُ الخزائنِ؟! بل من عرَفَها حقَّ المعرفةِ فإنَّ السعادةَ لن تفارقه أبدًا.

ومن هنا؛ رجوتُ اللهَ أن يوفِّقني إلى تدوينِ كتابٍ يكون لي أثرًا وموردًا

جميلاً يُنهلُ منه، فشرعتُ باتِّخاذ منهج الجمع والصِّياغة فقط؛ لِعلمي بعجزِ نفسي عن التَّأليف، وقلَّة بضاعتي؛ فلستُ بفارسٍ ولا راجلٍ.

فجمعتُ جميع ما اطَّلعت عليه عيني، ودوَّنتُ ما اطمأَنَّت إليه نفسي، راجيًا أن أكونَ أحسنتُ فيما استحسنتُ جمعه، متوخِّيًا معتقد السَّلَفِ الصَّالح في الأسماء والصِّفات.

ثم صُغتُهُ في ثوبٍ قَشِيبٍ، يَكتسي حُلَلَ الجلال والجمال، مراعيًا أطيافَ المتعلِّمينَ والمثقَّفينَ، مُبتعدًا عن الأَكَادِيمِيَّةِ البَحْتَةِ.

مُقتصرًا في الحديث على الصَّحيح والحسن، غير مستقصٍ للآثار والسِّيَر.

قاصدًا: التَّخفيفَ والتَّشويقَ، وبُلُوغَ مُنَى القارئ بأسهل طريقٍ وأقصر زمنٍ.

راجيًا أن يَجلِب سعادةً، ويُزيلَ همًّا، ويَشرحَ صدرًا، ويُعزِّزَ إيمانًا، ويَزيدَ علمًا، ويَملأَ فؤادًا، ويُعَمِّرَ قلبًا، ويُغذِّي فكرًا.

والفضل في ذلك كلِّه لله ﷻ وحده، ثم لأهل العلم والفضل الذين جمعتُ عنهم أطَايبَ الثَّمر، فإن أصبتُ فمن الله ﷻ؛ فلهُ الشُّكرُ، وإن أخطأْتُ فمن نفسي والشَّيطان، وما أردتُ إلاَّ الخير؛ فأستغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه!

وأخيرًا؛ هذا جهدُ المُقِلِّ، وقدرةُ المُفلس، حامدًا الله على إتمامه، راجيًا من الله قَبُولَهُ، خائفًا من ردِّه، مشهدًا الله على محبَّته ﷻ، محسنًا الظَّنَّ به.

واللهَ أسألُ أن يجزل الأجر والمثوبة لي ولمن جمعت عنهم، ولكلِّ من

شارك في مراجعته وتصحيحه وتنسيقه ونسخه وطباعته، أو أدلى فيه بمشورةٍ أو رأيٍ.

كما أسألهُ ﷻ أن يجعلهُ صوابًا، خالصًا لوجهه الكريم، مُدنيًا إلى محبَّته، ومُقرِّبًا إلى مرضاته، وأن يغفر لي ولوالدَيَّ ولشيوخي ولأهل بيتي ولجميع المسلمين؛ إنَّه سميعٌ مجيبٌ!

أخُوكُم: عبد الله بن مُشبب القحطاني
qa.1440.qa@gmail.com

إِلهِـي..

ما أجلَّ الموقفَ، وما أعظمَ المقامَ، وما أصعبَ الأمر!

الكلماتُ تعجزُ، والقلبُ يرتجفُ، واللِّسانُ يعثُرُ، والعباراتُ تَقْصُرُ، والعقلُ يحارُ، وعبدُكَ الضَّعيفُ يقفُ بين يديك؛ يريد أن يُثني عليك، ويبُوح بما في نفسه لك، وأنت المطَّلعُ عليه.

وَمَا بَلَغَ المُهْدُوْنَ نَحْوَكَ مِدْحَةً وَإِنْ أَطْنَبُوْا، إِنَّ الَّذِي فِيكَ أَعْظَمُ

يَـا رَبِّ!

نعلمُ أنَّ ثناءنا عليك، وتمجيدنا لك، وإجلالنا لعظمتك، ولهجنا بذكرك إنَّما هو نِعمةٌ ومِنَّةٌ من مِنَنك علينا جميعًا؛ فأنت الذي هديتنا لذلك، وأرشدتنا إليه..

ونعلمُ أنَّك -يا ربَّنا!- فوق ما يُثني عليكَ المثنونَ، وفوق ما يحمدُكَ الحامدونَ.

فتقبَّلْ -يَا اللهُ!- ما أنعمتَ به عليَّ وعلى قارئ هذه الحروف، وتجاوز عن تقصيرنا.

إِلَى اللهِ أُهْدِي مِدْحَتِي وَثَنَائِيَا وَقَوْلاً رَضِيًّا لا يَنِي الدَّهْرَ بَاقِيَا

(٢٠١)

اللَّهُ الإِلَهُ جَلَّ جَلَالُهُ

نبدأ بأعظم وأعذب اسم عرفته البشرية، أحسن الأسماء، وأجمل الحروف، تشدو به الألسن... وتسكن إليه الأرواح... قريب من النفس... حبيب إلى القلب...

إنَّه: اسم (اللّه تبارك وتعالى)، ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾[مريم: ٦٥].

اسم اللّه تبارك وتعالى تفرد به سبحانه وتعالى عن العالمين؛ فهو اسم له وحده، لا يتعلق بأحد سواه، ولا يطلق على غيره، ولا يدعيه أحد من خلقه، قبض اللّه سبحانه وتعالى أفئدة الجاهلين وألسنتهم عن التسمي به.

إنَّه اللّه تبارك وتعالى، ذو الجلال والجمال والعظمة والهيبة والجبروت.

مَهْمَا رَسَمْنَا فِي جَلالِكَ أَحْرُفًا ... قُدْسِيَّةً تَشْدُوْ بِهَا الأَرْوَاحُ
فَلأَنْتَ أَعْظَمُ وَالمَعَانِي كُلُّهَا ... يَا رَبُّ عِنْدَ جَلالِكُمْ تَنْدَاحُ

اسم اللّه تبارك وتعالى.. ما ذكر في قليل إلا كثره، ولا عند خوف إلا أزاله، ولا عند كرب إلا كشفه، ولا عند هم ولا غم إلا فرجه، ولا عند ضيق إلا وسعه، ولا تعلق به ضعيف إلا قواه، ولا ذليل إلا أعزه، ولا فقير إلا أغناه، ولا

مغلوب إلا نصره.

فهو الاسم الذي تكشف به الكربات، وتستنزل به البركات، وتجاب به الدعوات، وتستجلب به الحسنات، وتدفع به السيئات، وتقال به العثرات.. فلا أعظم من جلال الله!

واسم الله ﷻ أصله: الإله، وهو بمعنى المعبود، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾[النساء:١٧١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين".

والله ﷻ هو المحبوب المُعَظَّم الذي تحن النفوس إليه، وتأنس بذكره وقربه، وتشتاق إليه، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[البقرة:١٦٥].

وهو ﷻ المستعان به على كل نائبةٍ وفادحة، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾[النحل:٥٣].

وهو سبحانه وتعالى الذي تحار العقول فيه، فلا تحيط به العقول، ولا تدركه الأفهام، ولا تصل إلى عظمته الظنون، فلا يحيط الخلق به علمًا، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه:١١٠].

فالله سبحانه وتعالى هو: الذي تؤلهه القلوب حبًّا وذلاًّ، وخوفًا، وطمعًا، ورجاءً، وتعظيمًا، وطاعةً.

وهو الإله بحقٍّ، وكل ما عبد من دونه فهو باطل من عرشه إلى قرار أرضه.

والله عز وجل هو: الجامع لصفات الألوهية، وهي: صفات الكمال، والجلال، والجمال، والعظمة، مع نفي أضدادها عنه جل جلاله.

القلوب تؤلهه، والنفوس تحن إليه..

ولذا؛ إذا عرف العبد معنى اسم (الله) تعلق قلبه بربه؛ فأصبح مشتغلاً به؛ حبًّا وشوقًا ولذةً لا أجمل منها ولا أطيب، وهذا أعظم ما عبده به العابدون، وتقرب إليه المتقربون؛ ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]، وصفاء الحال بحسب صفاء المعرفة بأسماء الله وصفاته.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "إن في الدنيا جنةً من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة".

وقال بعض العارفين: إنه ليمر بالقلب أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب!

قال ابن عيينة : "ما أنعم الله على العباد نعمة أفضل من أن عرَّفهم لا إله إلا الله. قال : وإنّ لا إله إلا الله لهُم في الآخرة كالماء في الدنيا".

والمؤمن يعلم أن هذه الحال ليست بحول العبد ولا قوته، إنما (الله) الذي أحب عبده فجعل المحبة في قلبه، ثم لما أحبه العبد بتوفيقه جزاه الله بحب آخر، وهذا هو: الإحسان المحض؛ إذ منه السبب ومنه المسبب.

الاسم الأعظم:

ذكر القرطبي أن بعض العلماء قالوا: اسم (الله) هو: الاسم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سُئِل به أعطى.

سمع النبي ﷺ رجلاً يقول: اللهم! إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد؛ فقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى»[حديث صحيح. رواه أصحاب السنن وأحمد في مسنده].

وهو الاسم الوحيد الذي ورد في كل الأحاديث التي أخبر بها الرسول ﷺ أن فيها اسم الله الأعظم.

واقترن به عامة الأذكار المأثورة؛ فالتهليل والتكبير والتحميد والتسبيح والحوقلة والحسبلة والاسترجاع والبسملة وغيرها من الأذكار مقترنة بهذا الاسم، غير منفكة عنه.

وهو أصل أسماء الله الحسنى؛ فلا ينسب إلى شيء منها، بل تضاف

سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم؛ فلا يقال: الله من أسماء الرحمن أو من أسماء الرحيم، بل يقال: الرحمن أو الرحيم من أسماء الله، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠].

وأكثر ما يدعى الله ﷻ بلفظ: (اللهم)، وقد كان رسول الله ﷺ يدعو ربه كثيرًا بقوله: «اللَّهُمَّ!».

قال الحسن البصري رحمه الله: "اللهم: مجمع الدعاء، فإذا قال السائل: اللهم إني أسألك! كأنه قال: أدعو الله الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى بأسمائه وصفاته".

هذا الاسم يُفتتح به كل أمر؛ تبركًا وتيمنًا.

وكذلك هو: أول اسم في أول آية في القرآن: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ أو ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[الفاتحة:١]، كما أنه آخر ما ذكر من الأسماء في سورة الناس: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾﴾[الناس:٣].

هذا الاسم الوحيد الذي في الشهادة التي تنقل من الكفر إلى الإسلام: (أشهد أن لا إله إلا الله)، ولا تصح الشهادة بغير هذا الاسم.

هذا الاسم العظيم من شرفه: أن الله يرفعه من الأرض في آخر الزمان إذا قبض أرواح المؤمنين، قال رسول الله ﷺ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ عَلَى أَحَدٍ يَقُولُ: اللَّهُ.. اللَّهُ»[أخرجه مسلم].

إنه أكثر أسماء الله الحسنى ورودًا في القرآن الكريم؛ فقد ورد في ما

يزيد على ألفين ومائتي مرة، قال بعض العلماء عند قوله ﷻ: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾[الإسراء:١١٠]: خص هذين الاسمين بالذكر لشرفهما، وفي تقديم اسم الله: شرف في الذكر عن الرحمن.

صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَحَبَّ أسمائكم إِلَى اللهِ ﷻ: عَبْدُ اللهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»[رواه مسلم].

❐ كن مع الله يكن معك!

والعبد إذا لم يقبل على الله بطوعه واختياره؛ أقبل عليه بسوط الضرورة.

قِفْ بِالخُضُوعِ وَنَادِ يَا اللهُ ... إِنَّ الكَرِيمَ يُجِيبُ مَنْ نَادَاهُ
وَإِذَا بُلِيتَ بِغُرْبَةٍ أَوْ كُرْبَةٍ ... فَادْعُ الإِلَهَ وَنَادِ يَا اللهُ

فإذا حل الهم وادلهم الغم، واشتد الكرب، وعظم الخطب، وضاقت السبل، وبارت الحيل؛ نادى المنادي: يا الله!

إذا اشتد المرض بالمريض، وعجز الطبيب؛ نادى: يا الله! إذا اضطرب المركب في ظلمات البحر، وتلاعبت به الريح؛ نادى المنادي: يا الله! إذا أجدبت الأرض، ومات الزرع، وجف الضرع؛ نادى المنادي: يا الله!

إنه الله: الملاذ في الشِّدة، والأنيس في الوحشة، والنصير في القلَّة.

الناس أعجز من أن يلحقوا ضررًا لم يأذن به الله، وأن يجروا نفعًا لم يأذن به الله؛ فعلق قلبك بالله!

كل الحبال تنصرم إلا حبله، وكل الأبواب توصد إلا بابه، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[النمل:٦٢] .

قال النسفي رحمه الله: "قال الواسطي: من استغنى بالله لا يفتقر، ومن تعزز بالله لا يذل؛ وقال الحسين: على مقدار افتقار العبد إلى الله، يكون غنيا بالله".

يَا صَاحِبَ الهَمِّ إِنَّ الهَمَّ مُنْفَرِجٌ | أَبْشِرْ بِخَيرٍ فَإِنَّ الفَارِجَ اللهُ
اليَأْسُ يَقْطَعُ أَحْيَانًا بِصَاحِبِهِ | لاَ تَيأَسَنَّ فَإِنَّ الكَافِيَ اللهُ
اللهُ يُحْدِثُ بَعْدَ العُسْرِ مَيْسَرَةً | لاَ تَجْزَعَنَّ فَإِنَّ القَاسِمَ اللهُ
إِذَا بُلِيتَ فَثِقْ بِاللهِ، وَارْضَ بِهِ | إِنَّ الَّذِي يَكْشِفُ البَلْوَى هُوَ اللهُ
وَاللهِ مَا لَكَ غَيْرُ اللهِ مِنْ أَحَدٍ | فَحَسْبُكَ اللهُ فِي كُلٍّ لَكَ اللهُ

لا إله إلا الله؛ ما عبدناك حق عبادتك!

اللهم! إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل.

(٣)

الرَّبُّ جل جلاله

طرق الباب..

يا رب! نسألك بعزك وذلنا، وبقوتك وضعفنا، وبغناك عنا وفقرنا إليك، نواصينا الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سوانا كثير وليس لنا رب سواك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك.

نسألك مسألة المسكين، ونبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وندعوك دعاء الخائف الضرير.

سؤال من خضعت لك رقابهم ورغمت لك أنوفهم، وفاضت لك عيونهم، وذلت لك قلوبهم: أن تغفر لنا ولجميع المسلمين، وتدخلنا في رحمتك؛ يا أرحم الراحمين!

بِمَنْ يَسْتَغِيثُ العَبْدُ إلاَّ بِرَبِّهِ
وَمَنْ لِلْفَتَى عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالكَرْبِ
وَمَنْ مَالِكُ الدُّنْيَا وَمالِكُ أَهْلِهَا
وَمَنْ كَاشِفُ البَلْوَى عَلَى البُعْدِ وَالقُرْبِ

وَمَـنْ يَـدْفَعُ الغَمَّـاءَ وَقْـتَ نُزُوْلِهَـا

وَهَـلْ ذَاكَ إِلاَّ مِـنْ فِعَالِـكَ يَـا رَبِّـي

في هذه السطور نتشرف بالكلام عن اسم من أسماء الله الحسنى، وهو: (الرب تبارك وتعالى):

قال جل وعلا: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ١٧﴾[الرحمن: ١٧]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾[يس:٥٨].

فربنا الخالق المالك المدبر المتصرف، رب الأرباب ومعبود العباد، يملك الممالك والملوك وجميع العباد، وهو الذي دبر لخلقه مصالحهم، وهو جابرهم والقائم بأمورهم -إنسهم وجنهم- قيوم الدنيا والآخرة.

❏ وربوبيته لخلقه نوعان:

ربوبية عامة: تشمل جميع الخلائق؛ برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، حتى الجمادات.

وهي: أن يربيهم بالخلق، والرزق والتدبير، والإنعام، والعطاء.

وربوبية خاصة، وهي: تربيته تبارك وتعالى لأوليائه وأصفيائه؛ فيربهم بالإيمان ويوفقهم له، ويصلح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

وهي: تربية توفيق لكل خير وعصمة من كل شر.

لك الثناء كله..

وربنا ﷻ امتدح نفسه بأنه رب العالمين: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾[الفاتحة:٢]

ومدح نفسه بأنه رب العرش، قال ﷻ: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٨٢﴾[الزخرف:٨٢]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ۩ ۝٢٦﴾[النمل:٢٦].

ومدح نفسه بأنه رب السماوات والأرض؛ فقال ﷻ: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٨٢﴾[الزخرف:٨٢].

ولذا؛ حمدت جميع المخلوقات الرب ﷻ: ﴿وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٥﴾[الزمر: ٧٥]، فهو محمود في الدنيا والآخرة: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾[يونس:١٠].

مفاتيح الخزائن..

ولما علم الأنبياء والصالحون بأن هذا الاسم: مفتاح الدعاء؛ تضرعوا إلى الله به في دعائهم.

دعا به نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنًا

وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[نوح:٢٨].

ودعا به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[البقرة:١٢٧].

ودعا به المصطفى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾[المؤمنون:٩٧-٩٨].

❑ يا رب!

والنبي ﷺ كان إذا حزبه أمر، وحل به كرب يقول: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ، وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ»[أخرجه البخاري ومسلم].

ومن لم يدع بأسماء الرب جل وعلا اختيارًا؛ رجع إليها اضطرارًا، فها هو المريض على فراشه، وهو يصارع المرض ينادي: يا رب.. يا رب! فإذا العافية تدلف من لدنه، وإذا الشفاء ينزل من عنده تبارك وتعالى.

ويتضرع باسمه الفقير؛ الذي لا يملك قطميرًا، يتنهد من البؤس، ويصيح من الفاقة: يا رب.. يا رب! فإذا به يرفع عنه الحاجة، ويكشف الضائقة من عنده وحده تبارك وتعالى.

وينادي الجائع، وهو يتضور جوعًا، ويتلوى من الضر: يا رب.. يا رب! فإذا بالرزق يغمره، وعطاء الله ينهمر عليه.

ويستجير به المظلوم، وهو يمسح دمعته الحارة، ويخفي أنينه الساخن: يا رب.. يا رب! فإذا النصر الأكبر، والعاقبة الحميدة.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: "الإلحاح على الله بتكرير ذكر ربوبيته من أعظم ما يُطلب به إجابة الدعاء".

يا رب نفِّس عن عُبَيدك كُربةً　　　وأَرِحه مما قد عنَا ودَهاهُ

❑ وننسى الرب!!

فما أعظم شأنه، وأفخم ملكه، وأعلى مكانه، وأقربه من خلقه، وألطفه بعباده.

وربوبية الله ﷻ: ربوبية عظمة وجلال، ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ١﴾ [الأعلى:١].

وربوبيته ﷻ: بركة ونماء وعطاء، ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٥٤﴾ [الأعراف:٥٤].

وربوبيته ﷻ: ستر ومغفرة، ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥﴾ [سبإ: ١٥].

وربوبيته ﷻ: عزة وقوة وغلبة ومنعة، ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٦٦﴾ [ص:٦٦].

وربوبيته ﷻ: رحمة، ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [النبإ: ٣٧].

وربوبيته ﷻ: كرم، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦﴾

[الانفطار:٦].

لا إله إلا الله الواحد الأحد، ما عبدناك ربنا حق العبادة!

فمن عرف أن الله هو: رب الأرباب ﷻ لم يطلب غير الله ربًّا له، ورضي بربوبيته، ومن رضي ذاق حلاوة الإيمان، فقد صح عنه ﷺ أنه قال: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً» [أخرجه مسلم].

﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [المؤمنون:١١٨].

ربنا! رحمتك نرجو؛ فلا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وأدخلنا في رحمتك.

ربنا! اغفر وارحم، وأنت خير الراحمين.

(٥،٤)

الأَحَدُ الوَاحِدُ جل جلاله

جاء في «صحيح البخاري»: أن رسول الله ﷺ قال: «يَلْقَى إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ القِيامَةِ وَعلَى وجْهِ آزرَ قَتَرَةٌ وَغبَرَةٌ، فَيقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: لا تَعْصِنِي! فيَقُولُ أَبُوهُ: فَاليَوْمَ لا أَعْصِيكَ، فيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ! إِنَّكَ وَعدْتَنِي أنْ لا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ؛ فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ؟! فَيَقُولُ اللهُ -تَعَالَى-: إِنِي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَى الكَافِرِينَ، ثُمَ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ! مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ، فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ».

الذيخ: ذكر الضباع كثير الشعر.

ربنا الرحيم سبحانه وتعالى لا يقبل شفاعة إبراهيم عليه السلام في أبيه؛ لأن أباه مات مشركًا، والله حرم الجنة على كل كافر مشرك، ولأن الله وعد إبراهيم أن لا يخزيه في يوم القيامة؛ فإنه يمسخ في ذلك اليوم أباه ضبعًا، فيلقى به في النار، فلا يعرف أحد أنه والد إبراهيم، فلا يخزى به.

فشفاعة خليل الله لم تقبل في مشرك؛ فكيف بمن دون الخليل عليه السلام؟!

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾[النساء:٤٨].

ولذا؛ فإن من أوجب الواجبات على العبد: توحيد الله في العبادة.

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على نفسه بأنه (الأحد والواحد عز وجل): ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾[الإخلاص: ١]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[التوبة:٣١].

ونقف مع هذين الاسمين نتفيأ في ظلالهما؛ لعل الله يرزقنا تحقيق توحيده، وحسن الإيمان بتفرده ووحدانيته:

ربنا عز وجل المتفرِّد بصفات المجد والجلال، المتوحِّد بنعوت العظمة والكبرياء والجمال.

فهو واحد في ذاته؛ لا شبيه له.

وواحد فِي صفاته؛ لا مثيل له.

وواحد فِي أفعاله؛ لا شريك له ولا ظهير.

وواحد فِي ألوهيته؛ فليس له ند في المحبة والتعظيم، والذل والخضوع.

وهو الواحد الذي عظمت صفاته؛ حتى تفرد بكل كمال، وتعذر على جميع الخلق أن يحيطوا بشيء من صفاته، أو يدركوا شيئًا من نعوته؛ فضلاً عن أن يماثله أحد في شيء منها.

❑ الفطرة..

والوحدانية: هي خلاصة دعوة الرسل، وقوام رسالاتهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾[الأنبياء: ١٠٨].

والوحدانية: هي فطرة الله ﷻ التي فطر الناس عليها، وميثاقه الذي أخذه من الناس، ودعوة رسله التي بعثوا بها، ومنطوق كتبه التي أنزلها.

ومن أجلها قام سوق الجنة وسوق النار، وبسببها مد الصراط، وتطايرت الصحف، ووضع الميزان، وسل سيف الملة، ورفع علم الجهاد، وطارت أرواح الشهداء، ولذ طعم الموت، وأمهرت المنايا نفوس المقاتلين، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾﴾[فصلت:٦].

وفي تقرير الوحدانية ووجوب إخلاص الدِّين له قال ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾[البيِّنة:٥].

وأوجب ﷻ الخضوع لوحدانيته وعظمته: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾[الحج:٣٤].

الدليل الواضح:

وقد أبطل عقائد المشركين؛ فقال ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٥١﴾[النحل:٥١]، ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾[يوسف:٣٩].

ورد على من قال: إن الله ثالث ثلاثة: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾[النساء:١٧١].

ونفى المثل والند والكفء من جميع الوجوه؛ فهو ﷻ: الأحد الذي لا مثيل له ولا نظير؛ ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾[مريم:٦٥].

ونهانا أن نشبهه بشيء من مخلوقاته، إلا أنه أخبرنا عن نفسه؛ وهو أعلم بنفسه.

وكل ما خطر في بال البشر عن الله ﷻ؛ فالله بخلاف ذلك، فليس له ند ولا نظير ولا شبيه ولا مثيل، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾[الشورى:١١]، فلا يشبهه أحد من خلقه، فله الأسماء الحسنى والصفات العليا، وله الكمال والجمال والجلال والعظمة والمجد والكبرياء.

قال المشركون لرسول الله ﷺ: صف لنا ربك! أمن ذهب هو؟ أم من نحاس أم صفر؟ وكان بعضهم يقول: انسب لنا ربك يا محمد!

وكانت اليهود تقول: نحن نعبد عزيرًا ابن الله، والنصارى يقولون: نحن نعبد المسيح ابن الله، وكانت المجوس تقول: نحن نعبد الشمس والقمر، وكان المشركون يقولون: نحن نعبد الأوثان..

فأجابهم الله ﷻ بقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١].

❑ تعالى عما يقولون!

تجرؤوا على الله ﷻ، وجاؤوا بجريمة نكراء، كادت السماوات لعظمتها تنفطر، والأرض تنشق، والجبال تخر هدا!! أن نسبوا لله الولد -تعالى الله عما يقولون!-.

فالكل تحت ملكه وقهره، وكلهم آتيه يوم القيامة فردًا: ﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ [مريم:٨٩-٩٥].

وفي «صحيح البخاري»: أن رسول الله ﷺ قال: «قَالَ اللهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدمَ ومَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُكَذِّبَنِي! وَشَتَمَنِي ابْنُ آدمَ ومَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتُمَنِي! فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ؛ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ مَا يَكُونُ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ.

وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ؛ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا اللهُ الأَحَدُ الصَّمَدُ؛ الَّذِي لَمْ أَلِدْ، وَلَمْ أُوْلَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ».

فالله سبحانه وتعالى إله واحد؛ ليس له شريك، وليس له مثيل في ذاته أو صفاته أو أفعاله.

❐ الكون يشهد بوحدانيته:

كل ما في الكون من إبداع ونظام وتوافق وانسجام؛ يدل على: أن مبدعه ومدبره واحد، ولو كان وراء هذا الكون أكثر من مدبر وأكثر من منظم؛ لاختل نظامه، واضطربت سننه؛ ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾[الأنبياء:٢٢].

تَأَمَّلْ فِي نَبَاتِ الأَرْضِ وَانْظُرْ ... إلى آثَارِ مَا صَنَعَ المَلِيكُ
عُيُوْنٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ... بِأَحْدَاقٍ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ
عَلَى قَضَبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ ... بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

❐ الله أغنى الشركاء عن الشرك..

فالله عز وجل المستحق وحده العبادة؛ فلا يتوجه العبد لغير الله، ولا يصرف لغيره شيئًا من العبادات: صلاةً كانت أو دعاءً أو ذبحًا أو نذرًا أو توكلاً أو رجاءً أو خوفًا أو خشوعًا أو خضوعًا: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾[الأنعام:١٦٢-

١٦٣].

فالقضية العظمى هي: إفراد اللهِ بالعبادة؛ ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات:٥٦]، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [التوبة:٣١].

فالتوحيد ألطف شيء وأنزهه وأصفاه، فأدنى شيء يخدشه ويدنسه ويؤثر فيه.

صح عنه ﷺ أنه قال: «قَالَ اللهُ تبارك وتعالى: مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي؛ تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» [أخرجه مسلم].

وصح عنه ﷺ قوله: «إذَا جَمَعَ اللهُ عز وجل الأَوَّلِينَ وَالآخرِينَ لِيَوْمٍ لا رَيْبَ فِيهِ؛ نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ للهِ أَحداً؛ فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدَ غَيْرِ اللهِ عز وجل، فَإِنَّ اللهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ» [حديث حسن. رواه أحمد في «المسند»].

❑ ذكرى..

في صحيح السُّنَّة أحاديث كثيرة تحثُّ على التوحيد، وتبيِّن فضله، منها:

حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ: لا إلهَ إلاَّ اللهُ، وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِئَةَ مَرَّةٍ؛ كَانَتْ لَهُ عَدلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِئَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِئَةُ سَيِّئَةٍ،

وَكَانَتِ لَهُ حِرزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلاَّ أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ»[أخرجه البخاري ومسلم].

وفي الحديث الذي رواه الترمذي وأبو داود عن بريدة: أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأنك أنت الله، لا إله إلا أنت الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد!

قال ﷺ: «لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ؛ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ»[حديث صحيح].

ودخل الرسول ﷺ المسجد وسمع رجلاً يدعو: اللهم! إني أسألك يا الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن لك كفواً أحد: أن تغفر لي ذنوبي؛ إنك أنت الغفور الرحيم.

فقال ﷺ: «قَدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ» ثلاث مرار. [حديث صحيح. رواه أحمد في «المسند»].

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: "تحقيق كلمة التوحيد يُوجب عتق الرقاب، وعتق الرقاب يوجب العتق من النار".

وقال رحمه الله: "من أسباب المغفرة: (التوحيد)، وهو السبب الأعظم، فمن فقده فقدَ المغفرة، و من جاءَ به فقد أتى بأعظمِ أسبابِ المغفرة" .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "التوحيد : أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا؛ كما قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلاَمِهِ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، دَخَلَ الجَنَّةَ»، فهو أول واجب، وآخر واجب، فالتوحيد : أول الأمر

وآخره".

وقال رحمه الله: "فما دُفِعت شدائد الدنيا بمثل التوحيد".

وقال رحمه الله: "لا يدخل الجنة نفس مشركة، وإنما يدخلها أهل التوحيد؛ فإن التوحيد هو مفتاح بابها".

قال ابن الجوزي رحمه الله: "كان سفيان الثوري يأتي إبراهيم بن أدهم فيقول: يا إبراهيم! ادعُ الله أن يقبضنا على التوحيد".

ورأى رسول الله ﷺ رجلاً كان يدعو بإصبعيه؛ فقال له ﷺ: «أَحَدْ أَحَدْ!» [حديث صحيح. رواه أبو داود]، وفيه: إذا أراد أن يشير في الدعاء فلا يشير إلا بإصبع واحدة.

اللهم إنا نسألك يا واحد.. يا أحد.. يا صمد! أن تجعلنا ممن دعاك فأجبته، وممن تضرع إليك فرحمته، وممن استجارك فأجرته من النار، واجعل آخر كلامنا من الدنيا لا إله إلا الله فأنت أرحم الراحمين.

(٦)

الصَّمَدُ جل جلاله

إذا شكوت الحاجة؛ فالجأ إلى الصمد، وإذا جافاك العز وابتدرك الذل؛ فاطرق باب الصمد، وإذا سرى الضعف في جسدك؛ فاستمد القوة من الصمد.

إِنَّهُ الوَاحِدُ الَّذِي لاَ يُضَاهَى   فِي مَعَانِي أَسْمَائِهِ وَالصِّفَاتِ
صَمَدٌ تَصْمُدُ البَرَايَا إِلَيْهِ   وَأَنِيسُ الضَّمَائِرِ المُوحِشَاتِ

اسم الله: (الصَّمَدُ) قليل الورود والذكر؛ لكنه ذو جلال خاص.

قال الله جل جلاله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [سورة الإخلاص].

فربُّنا سبحانه وتعالى الَّذِي تَقْصُدُهُ الخلائق كلها: إنسها وجنها، بل العالم بأسره العلوي والسفلي، وتقصد إليه في الرغائب، وتستغيث به عند المصائب.

وربُّنا سبحانه وتعالى هو السيد الذي كمل في سؤدده، الشريف الذي كمل في شرفه، والعظيم الذي كمل في عظمته، والحليم الذي كمل في حلمه،

والغني الذي كمل في غناه، وهذه الصفات لا تنبغي إلا له ﷻ.

وربُّنا ﷻ هو الذي لا جوف له؛ فلا يأكل ولا يشرب، وهو يطعم ولا يطعم، المستغني عما سواه؛ الذي يحتاج إليه كل ما عداه ﷻ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

❑ الجواب الكافي..

ذكر البيهقي وحسنه الحافظ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد! انسب لنا ربك الذي بعثك؟! فأنزل الله ﷻ قوله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ۝٣ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾[سورة الإخلاص:٤].

سورة قصيرة جمعت صفات الكمال من نعوت العظمة والجلال.

ولعظمتها فإن من قرأها فكأنما قرأ ثلث القرآن، ففي «الصحيحين»: أن النبي ﷺ قال لأصحابه: «أَيَعْجَزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ القُرْآنِ؟»، قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال: «﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[الإخلاص:١] تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ»[هذا لفظ مسلم].

قال بعض العلماء: "إن القرآن أنزل ثلاثًا: ثلث منه: أحكام، وثلث منه: وعد ووعيد، وثلث منه: أسماء وصفات، وسورة الصمد جمعت أحد الثلاثة، وهي: الأسماء والصفات؛ لذا جعل أجر قراءتها كثلث القرآن".

وفي «صحيح البخاري»: أن صحابيًّا كان يقرأ لأصحابه في صلاتهم

كلها بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[الإخلاص:١]، فذكروا ذلك للنبي ﷺ؛ فقال: «سَلُوهُ لأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟»؛ فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن؛ فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ ﷻ يُحِبُّهُ».

تسليم القلب..

هذا الحب في نفوس الصالحين جعل المحبين يبحثون عن حب مولاهم..

هذا الحب في قلوب العباد لا يشبعه إلا الانحناء له، والطواف ببيته، والوقوف بين يديه، والقيام من النوم لأجله، وبذل المهج في سبيله.

ولا تطمئن قلوب المحبين إلا بذكره، وأرواح المشتاقين لا تسكن إلا برؤيته.

إِذَا مَرِضْنَا تَدَاوَيْنَا بِذِكْرِكُمُ ... فَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحْيَانًا فَنَنْتَكِسُ

فهؤلاء صمدوا إلى الله في الرخاء؛ فعرفهم في الشدة، وبقدر الصمود تكون الرفعة والفرج..

فهذا نبي الله إبراهيم ﷺ تمر به عدة بلاءات؛ فيرفعه الله ﷻ بها؛ حتى استحق من الله منزلة الخلة، قال ﷻ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ۝١٢٥﴾ [النساء:١٢٥].

وهذا أيوب إمام أهل البلاء، وعمدة أهل المرض والابتلاء؛ لما صمد إلى ربه ﷻ بقوله: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣﴾[الأنبياء:٨٣]؛

كان الجواب من الصمد ﷻ: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء:٨٤].

وهذا يونس عليه السلام في بطن الحوت، وفي ظلمات ثلاث؛ يصمد إلى ربه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

وهذا حال جميع الأنبياء عليهم السلام والصالحين من الناس.. عرفوا الله في الرخاء فعرفهم في الشدة.

هلاَّ استجابوا؟!

ثم إن ربك الصمد ﷻ فتح بابه ليس فقط للأولياء بل لجميع الخلق.

وهذا من لطفه ورحمته وكرمه؛ فهؤلاء المشركون لما ضاقت عليهم الدنيا، ورأوا الموت المحقق؛ صمدوا إلى الله ﷻ؛ ونادوا: يا الله.. يا الله! فإذا بالنجاة؛ ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت:٦٥].

وهم يقرون بذلك؛ فالعالم بأسره إذا لم يصمدوا إلى الله سبحانه وتعالى رغبةً؛ صمدوا إليه بسوط الاضطرار.

❐ اطمئن!

وقد استجاب الله ﷻ للكافرين في اضطرارهم؛ فكيف بمن شهد لله بالوحدانية وللنبي ﷺ بالرسالة؟!

فإذا نزلت بك حاجةٌ فاصمد إليه، وأنزل فاقتك عند بابه، ونادِ: يا صمد فرج ما بي! فلا تضق ذرعًا بهمك أو بمرضك أو بِدَيْنِك؛ فربُّك الصمد الذي إذا التجأت إليه لن يخيبك، ولن يخذلك، وتذكر أن أفضل العبادة: انتظار الفرج، ودوام الحال من المحال، والدهر قُلَّبُ، والليالي حبالى، والغيب مستور، وإن مع العسر يسرًا.

جاء في «سنن أبي داود»: أن رسول الله ﷺ دخل المسجد وسمع رجلاً يدعو: اللهم إني أسألك يا الله! الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد: أن تغفر لي ذنوبي؛ إنك أنت الغفور الرحيم.

فقال ﷺ: «قَدْ غُفِرَ لَهُ.. قَدْ غُفِرَ لَهُ» -ثلاثًا- [حديث صحيح].

وفي رواية: «لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ بِالِاسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ» [حديث صحيح. رواه أبو داود].

رُحْمَاكَ يَا رَبَّ العِبَادِ رَجَائِي
وَرِضَاكَ قَصْدِي فَاسْتَجِبْ لِدُعَائِي
نَادَيْتُ بِاسْمِكِ يَا إِلَهِي ضَارِعًا
إِنْ لَمْ تُجِبْنِي فَمَنْ يُجِيبُ بُكَائِي؟

أَنْتَ الكَرِيمُ فَلاَ تَدَعْنِي تَائِهًا
فَلَقَدْ عَيِيتُ مِنَ البِعَادِ النَّائِي
وَلَقَدْ رَجَوْتُكَ يَا إِلَهِي ضَارِعًا
مُتَذَلِّلاً فَلاَ تَرُدَّ رَجَائِي

اللهم يا واحد.. يا أحد.. يا صمد.. نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، ونعوذ بك من النار وما قرَّب إليها من قول وعمل.

(٨٠٧)

الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ جل جلاله

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء:١١٠].

نبينا صلى الله عليه وسلم كان إذا كربه أمر قال: «يَا حَيُّ.. يَا قَيُّومُ! بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ» [حديث حسن. رواه أحمد في «المسند»]، كيف لا يستغاث بالرحمن؛ وهو الملاذ في الشدة، والأنيس في الوحشة، والنصير في القلة؟

فهو سلوة الطائعين، وملاذ الهاربين، وملجأ الخائفين؛ إنه أرحم الراحمين.

إِلَيْهِ وَإِلاَّ لاَ تُشَدُّ الرَّكَائِبُ وَمِنْهُ وَإِلاَّ فَالمُؤَمِّلُ خَائِبُ

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [البقرة:١٦٣].

الرحمة: سمة الربوبية، وعنوان الألوهية؛ ولذلك وصف جل وعلا نفسه بأنه: الرحمن الرحيم.

ونحن نبتدئ تلاوتنا لكتاب الله بهذين الاسمين العظيمين الحبيبين إلى النفس: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ).

هذان الاسمان الكريمان مشتقان من (الرحمة) على وجه المبالغة.

والرحمة في اللغة هي: الرقة، والشفقة، والعطف والرأفة.

فربنا ﷻ ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[الأعراف:١٥٦]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥﴾[الحج:٦٥].

وخصَّ المؤمنين منها بالنصيب الأوفر والحظ الأكمل ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ٤٣﴾[الأحزاب:٤٣].

فربنا "الرحمن" ﷻ أي: الرحمة وصفه، و"الرحيم" أي: الراحم لعباده.

فهو أرحم بنا من كل راحم، أرحم بنا من آبائنا وأمهاتنا وأولادنا، بل ومن أنفسنا.

ذكر البخاري في كتابه «الأدب المفرد»: أن رجلاً جاء ومعه صبي يضمه إلى صدره إلى النبي ﷺ؛ فقال النبي ﷺ: «أَتَرْحَمُهُ؟»، قال: نعم، قال: «فَاللهُ أَرْحَمُ بِكَ مِنْكَ بِهِ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ»[حديث صحيح].

اسم الرحمن ﷻ مُختصٌّ به، لا يجوز أن يسمى به أحد غير الله ﷻ، ولا يوصف به غيره؛ ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[الإسراء:١١٠]، فعادل به اسم الجلالة الذي لا يشركه فيه غيره؛ حتى قال بعضهم: هو الاسم الأعظم.

وأما اسم الرحيم؛ فيجوز وصف المخلوق به كقوله ﷻ: ﴿لَقَدۡ

جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨]، فيقال: رجل رحيم، ولا يقال: رجل رحمان.

❐ ورحمة الله نوعان:

رحمة عامَّة: وهي لجميع الخلائق؛ فكل الخلق مرحومون برحمة الله، بإيجادهم وتربيتهم، ورزقهم، وغير ذلك من النعم التي لا تحصى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾ [البقرة:١٤٣]، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٦٦﴾ [الإسراء:٦٦].

ورحمة خاصَّة: التي تكون بها سعادة الدنيا والآخرة، وهي لا تكون إلا لخواص عباده المؤمنين؛ ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّٰتٖ﴾ [التوبة:٢١].

❐ إنه الرحمن..

أحق من ذكر، وأحق من عبد، وأولى من شكر على إحسانه ورحمته.

فأينما تول وجهك تر رحمة الله في هذا الكون، وأعظمها في هذا الكون: الوحي المنزل؛ ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ٨٩﴾ [النحل:٨٩].

إذا أجدبت الأرض، ومات الزرع، وجف الضرع، واشتد البلاء؛ نزلت

الرحمات: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾[الشورى:٢٨].

عندما حل العذاب، وبكى الرجال، وصاحت النساء، وفزعت الأطفال، وعم الرعب، وعظم الفزع؛ نزلت الرحمات على عباده المخلصين: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾[هود:٥٨]، ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾[هود: ٩٤].

لا عبور لأي رغبة إلا من طريق الرحمن، ولا وجود لأي حاجة إلا في ساحة الرحمن، لا إمكانية لحدوث شيء إلا بالرحمن؛ فإنه وحده الرحمن الذي لا حول في الوجود ولا قوة إلا به سبحانه وتعالى.

فبرحمته أرسل إلينا رسله.

وبرحمته أنزل علينا كتبه.

وبرحمته هدانا من الضلالة.

وبرحمته أرشدنا من العمى.

وبرحمته علمنا ما لم نكن نعلم.

وبرحمته سخر الشمس والقمر، وجعل الليل والنهار، وبسط الأرض.

وبرحمته خلقت الجنة، وعمرت بأهلها، وطاب عيشهم.

ومن رحمته: أنه خلق مئة رحمة كل رحمة منها طباق ما بين السماء

والأرض؛ فأنزل منها إلى الأرض رحمةً واحدةً نشرها بين الخليقة ليتراحموا بها، بها تعطف الوالدة على ولدها، وبهذه الرحمة قوام العالم ونظامه.

بشرى!

ولتسمع عن سعة رحمته: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣]، وصح عنه ﷺ أنه قال: «لَوْ يَعْلَمُ المُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ العُقُوبَةِ؛ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ؛ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ» [أخرجه مسلم].

وهذه الرحمات: رحمة بعزة وقوة وغلبة ومنعة، لا رحمة ضعف؛ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء:٩].

وَأَشْهَدُ أَنَّ اللهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ ... كَرِيمٌ رَحِيمٌ يُرْتَجَى وَيُؤَمَّلُ

مفاتيح الرحمة:

هو الغني عنا وعن عبادتنا، لن ندخل الجنة إلا برحمته؛ حتى نبينا ﷺ، جاء في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «لَا، وَلَا أَنَا؛ إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ».

فمن علم هذا؛ فعليه بعبودية الرجاء، والتعلق برحمة الله سبحانه وتعالى، والسعي

إليها، وتكون بالتقوى والإيمان وأداء الطاعات.

فبذلك تُنال الرحمات؛ ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ١٥٦﴾[الأعراف: ١٥٦].

وتُنال الرحمات بطاعة الله ﷻ والرسول ﷺ؛ لأن الله قال: ﴿وَأَطِيعُوا ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٣٢﴾[آل عمران:١٣٢].

وتُنال بالإحسان؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ٥٦﴾[الأعراف:٥٦].

وتُنال بالاستغفار؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٤٦﴾[النمل:٤٦].

وتُنال بذكر الله ﷻ وبكثرة الدعاء.

وفي «سنن أبي داود» قال ﷺ: «دَعَوَاتِ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»[حديث حسن].

ولا ينال الرحمة إلا عباد الله الرحماء؛ لأن النبي ﷺ قال: «وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ»[أخرجه البخاري ومسلم]، فهذه مومس دخلت الجنة برحمتها لكلب أصابه العطش؛ سقته بخفيها.

❐ لا يثبطك الشيطان!

ومن الناس من إذا ابتلي بالمصائب والأزمات والأحزان؛ تخلى عن إيمانه، ولم يتذكر بأن الله أرحم به من نفسه! فلا يطرق باب الرحمن، ولا يرجو رحمته، فإذا هو يقع في إغواء الشيطان، وربما أوصله إلى هلاك نفسه، والله ﷻ قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمٗا ۝٢٩﴾[النساء:٢٩].

وإياك أن تعتقد أن ذنبك مهما عظم هو أعظم من رحمة الله! إن الشيطان لا يريد منك إلا هذه، يريد: أن يكبر الذنب في عينيك، ويصغر رحمة الله.

ورحمة الله أوسع من ذنبك ومن كل ذنب؛ فالرجل الذي قتل تسعةً وتسعين إنسانًا وأكملهم بالمئة؛ علم الله صدق توبته فصدقه الله ﷻ.

وَإِنِّي بِكَ اللَّهُمَّ رَبِّي لَوَاثِقٌ

وَمَا لِي بِبابٍ غَيْرَ بَابِكَ مَدْخَلُ

يقول ﷻ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدٗا ۝٨٥﴾[مريم:٨٥]، ما أعظمه من وعدٍ، وما أعظمه من وفدٍ، وما أجمله من شعور! جعلني الله وإياكم من هذا الوفد.

اللهم! إن لم نكن أهلاً أن نبلغ رحمتك؛ فإن رحمتك أهل أن تبلغنا، ورحمتك وسعت كل شيء؛ فلتسعنا رحمتك في الدنيا والآخرة؛ يا أرحم الراحمين!

(٩)

الحَيُّ ﷻ

حين تهجم سحب الأحزان، وتتكاتف قيود الهموم؛ فلا تجد مخرجًا، وتضيق عليك نفسك؛ وكأن روحك تتصاعد من حلقك، وتكاد الظروف تخنقك؛ فتخرج أنفاسك بصعوبة، وتضيق الدنيا، وينسحب الناس من حولك، وتصير وحيدًا؛ لا مؤنس ولا مهون فتتيقن الموت..

هنا؛ يفتح لك الرب طاقة الفرج، ونسمة الأمل، ويبث فيك الطمأنينة، ويمد لك يد العون، ويحييك بعد ما رأيت الموت؛ فتخر له ساجدًا وباكيًا ولسانك يردد: يا حي.. يا قيوم! لك الشكر كله.

وما حصل هذا إلا بعد توكلك على الحي الذي لا يموت؛﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨﴾ [الفرقان:٥٨].

فربُّنا ﷻ أثبت صفة (الحياة) لنفسه، وهي: حياة كاملة لم تسبق بعدم، ولا يلحقها زوال ولا فناء على الدوام، ولا يعتريها نقص ولا عيب، ولا

غفلة ولا عجز، ولا تأخذه سنة ولا نوم، ولا موت بأي حال من الأحوال: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥] -جل ربنا وتقدس عن ذلك-.

وحياتُهُ ﷻ منزهة عن مشابهة حياة الخلق، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١]، حياة تستلزم كمال صفاته ﷻ: من علمه وسمعه وبصره وقدرته وإرادته ورحمته ما يشاء، إلى غير ذلك من صفات كماله.

وربُّنا الحي ﷻ: الذي قامت به الحياة، الذي به حي كل حي، فكل ما سواه حياته قائمة على إحياء الله ﷻ له، قال ﷻ: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة:٢٨].

وربُّنا ﷻ: الذي يحيي النفوس والأرواح بنور العلم والهدى والإيمان.

وربُّنا ﷻ: الذي يهب أهل الجنة الحياة الدائمة الباقية، قال ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت:٦٤].

❐ الدليل الواضح:

الحيُّ لا إله إلا هو، من توكل عليه كفاه، لا يقهر إرادته شيء، ولا يعجزه شيء، يكشف السوء، ويجيب المضطر، يحيي العظام وهي رميم، يعيد الخلق كما بدأهم أول مرة؛ وهو أهون عليه، وهو الحكيم الذي لا يخلق

شيئًا عبثًا، ولا يترك شيئًا سدىً.

أخرج ابن جرير والبيهقي عن ابن عباس ﵄ قال: جاء العاص بن وائل إلى رسول الله ﷺ؛ فقام وأخذ عظمًا رميمًا؛ ففتته بيده، وقال: من يحيي العظام وهي رميم؟! -مكذبًا للبعث والنشور-؛ قال: «نَعَمْ، يَبْعَثُ اللهُ هذَا، ثُمَّ يُمِيتُكَ، ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّمَ»، وأنزل الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾[يس:٧٧-٧٩] إلى آخر السورة [حديث صحيح. رواه الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي].

ما أكفر الإنسان! نسي خلقه وأنكر خالقه؛ فالذي خلقه أول مرة يعيده ويحييه؛ لأن الخلق الثاني أهون -من حيث العقل-، وكله هين على الله؛ فإن البدء والإعادة عند الله سواء؛ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم:٢٧].

فالعزة له، والجبروت له، والعظمة له، والكبرياء له، والسلطان له، والملك له، والحكم له، والقوة له، والتسبيح له، والتقديس له.. ما أعظم شأنه، وأفخر ملكه، وأعلى مكانه!

❑ نداء الكون..

فسبحان من جعل لكل مخلوق حياةً تخصه! فحياة الملائكة غير حياة الإنسان، وحياة الجن غير حياة الإنس، وحياة الحيوانات تختلف عن حياة

الإنس والجن والملائكة.

وحتى الجمادات فاضت عليها آثار اسم الله: (الحي)؛ فكانت حيةً، فإن الجمادات فاض عليها ما يناسبها من الحياة، فهذه عصا موسى عليه السلام:

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[الشعراء:٤٥].

وحتى الأشجار لها حياة خاصة؛ فالجذع حن لرسول الله ﷺ، ففي «صحيح البخاري»: "كان النبي ﷺ يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحول إليه، فحن الجذع؛ فأتاه، فمسح يده عليه"، وفي «السنن»: فأتاه، فاحتضنه؛ فسكن، فقال ﷺ: «لَوْ لَمْ أَحْتَضِنْهُ لَحَنَّ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[حديث صحيح. رواه ابن ماجه].

فظهور هذه الحياة في المادة الصماء أليست آيةً من آيات الله ﷻ، تدل على أنه الحي، لا إله إلا هو؟!

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الوَاحِدُ

❐ قلوب المحبين..

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ! إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ: أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَالجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ»[رواه مسلم].

لا شك أن الهداية: هي حياة القلوب، وهي من الحي لا إله إلا هو، فمن أرادها فليرجها ويسألها من الحي؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾[غافر: ٦٥].

والقلب إذا امتلأ بالإيمان وبجلال الله؛ هنا تحلو الحياة، وتعذب الدنيا، وتستنير البصيرة، وتنكشف الهموم، وتهاجر الغموم، ويسعد بالوجود.

فأسماء الله ﷻ: تثير حبًّا ورغبةً في قلوب المؤمنين، فهم سعداء في الدنيا، وسعداء في الآخرة، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[النحل: ٩٧].

ومن كفر؛ ضاق عيشه، ونغصت معيشته في الدنيا والآخرة؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾[طه:١٢٤]، وإن كان يسير على قدمه فهو في عداد الموتى؛ ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾[النحل:٢١].

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ　　　إِنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ

❐ انكسر له!

في «مسند الإمام أحمد» من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا كربه أمر قال: «يَا حَيُّ.. يَا قَيُّومُ! بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ» [حديث حسن].

وروى النسائي: أن النبي ﷺ قال لابنته فاطمة ﷺ: «مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ! أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ!

بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ؛ أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ» [حديث صحيح].

وعند الترمذي والحاكم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيَّ القَيُّومَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ؛ غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ» [حديث صحيح].

وجاء في «السنن» من حديث أنس رضي الله عنه: أن رجلاً دعا؛ فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام.. يا حي.. يا قيوم!

فقال النبي ﷺ: «دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى» [حديث صحيح].

قال ابن القيم رحمه الله: "فإن صفة (الحياة) متضمنة لجميع صفات الكمال، مستلزمة لها، وصفة (القيومية) متضمنة لجميع صفات الأفعال، ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى: هو اسم: الحي القيوم".

اللهم! إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والإنس والجن يموتون.

اللهم يا حي.. يا قيوم! برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله.

(١٠)

القَيُّومُ جَلَّ جَلَالُهُ

يَا مُبْدِعَ الأَكْوَانِ أَنْتَ الوَاحِدُ   كُلُّ الوُجُوْدِ عَلَى وُجُوْدِكَ شَاهِدُ

يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ أَنْتَ المُرْتَجَى   وَإِلَى عُلاكَ عَلا الجَبِينُ السَّاجِدُ

جاء عند الترمذي: أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول في صلاته: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السماوات والأرض! يا ذا الجلال والإكرام.. يا حي.. يا قيوم!

فقال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى»[حديث صحيح].

هذه رسالة من نبيك ﷺ إلى كل من صرخت الحياة في وجهه: أقبل على ربك، وفرغ قلبك من غيره، ثم ادعه بـ (يا حي.. يا قيوم!)؛ فإنه يجيبك، ويهب لك فوق ما تؤمله.

إِلَيْهِ وَإِلاَّ لا تُشَدُّ الرَّكَائِبُ

وَمِنْهُ وَإِلاَّ فَالْمُؤَمِّلُ خَائِبُ

نقف مع اسم عظيم من أسماء الله الحسنى وهو: (القيوم جَلَّ جَلَالُهُ):

قال الله ﷻ: ﴿ وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ ﴾[طه:١١١].

فربُّنا ﷻ القائم بنفسه مُطلقاً، لا يحتاج في قيامه ودوامه إلى أحد، غني بنفسه عما سواه؛ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥ ﴾[فاطر:١٥].

وربُّنا ﷻ هو الذي قامت به جمِيع المخلوقات؛ من في الأرض والسماوات، فلا بقاء لها ولا صلاح إلا به ﷻ، فهي فقيرة إليه من كل وجه، وهو غني عنها من كل وجه؛ حتى العرش وحملته، فإن العرش إنما قام بالله ﷻ، وحملة العرش ما قامت إلا بالله ﷻ.

وربُّنا هو ﷻ القائم على كل العالَم؛ العلوي والسفلي، وما فيهما من مخلوقات، في جميع أحوالهم؛ بتدبيرهم وأرزاقهم وحفظهم، وفي كل شؤونهم بالعناية والرعاية، في كل وقت وحين.

بل هو القائم ﷻ على عباده، المحصي لأعمالهم وأقوالهم، وحسناتهم وذنوبهم؛ فهو الذي يجازيهم عليها في الدار الآخرة، ﴿ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣ ﴾[الرعد:٣٣].

ومن تمام ألوهيته: أن قامت السماوات والأرض واستقرتا وثبتتا بأمره

وقدرته؛ بلا عمد يعمدها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾[فاطر: ٤١].

أحق من عبد..

فالله هو: الحي القيوم ﷻ، رب العالمين، وأرحم الراحمين، وأقدر القادرين، وأحكم الحاكمين، الذي له الخلق والأمر، وبيده النفع والضر.

المعروف بالفطرة.. الذي أقرت به العقول، ودلت عليه كل الموجودات، المشهود وجوده وقيوميته بكل حركة وسكون.. الذي يجيب المضطر إذا دعاه، ويغيث الملهوف إذا ناداه، ويكشف السوء، ويفرج الكرب، ويقيل العثرات.

المستعان به على كل نائبة وفادحة، والمعهود منه كل بر وكرامة.

الذي عنت له الوجوه، وخشعت له الأصوات: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِ﴾[طه: ١١١].

أحق من ذكر، وأحق من عبد، وأحق من حمد، وأولى من شكر، وأنصر من ابتغي، وأرأف من ملك، وأجود من سئل، وأعفى من قدر، وأكرم من قصد، وأعدل من انتقم.

وحلمه بعد علمه، عفوه بعد قدرته، مغفرته عن عزته، ومنعه من حكمته.

فهو الله الحي القيوم لا شريك له، والفرد الذي لا ند له: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ

﴿إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾[البقرة:٢٥٥].

أوضح دلالته للمتفكرين، وأبدى شواهده للناظرين، وبين آياته للعالمين، وقطع أعذار المعاندين، وأدحض حجج الجاحدين؛ فاستنارت آيات الربوبية، وسطعت دلائل الألوهية.

فالله ﷻ هو المقيم لمخلوقاته، لا يحتاج إليهم، وهم جميعًا إليه محتاجون، الكل محتاج إليه: الملائكة المقربون، وحملة العرش، وأهل السماوات والأرض، ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾[فاطر:١٥].

العزة له، والجبروت له، والعظمة له، والكبرياء له، والسلطان له، والملك له، والحكم له، والقوة له، والتسبيح له، والتقديس له.. كمل في أوصافه وأفعاله، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[البقرة:٢٥٥].

فالله ﷻ لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، صح عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ لاَ يَنَامُ، وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ -النَّارُ- لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[أخرجه مسلم].

فسبحان من أشرقت لنوره السماوات والأرض، وأنارت بوجهه الظلمات!

فسبحان الحي القيوم!

❐ اطمئن!

ومن علم أن الله هو القيوم؛ انقطع قلبه عن الخلق، واستراح قلبه إلى خالقه ورازقه ومدبره، ففي النفس حاجة لا يرويها المال، ولا رفعة المكان، ولا المتع، ولا الشهرة..

لا يُرويها إلا الإيمان بالله ﷻ، والاطمئنان إليه والتوكل عليه..

فالله ﷻ قد قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد:٢٨].

اللهم إنا نسألك يا حي.. يا قيوم! أن تغفر ذنوبنا، وتستر عيوبنا، وتعيننا على طاعتك، وأن تدخلنا الجنة، وتجيرنا من النار.

(١٢،١١)
المَلِكُ المَلِيكُ جل جلاله

أخرج البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد! إنا نجد: أن الله يجعل السموات على إصبع والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك.

فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾ [الزمر: ٦٧].

لا يعلم ما يستحق إلا هو...!

ولا يحيط بعلمه سواه...!

ولا يقدر قدره إلا هو...!

ولا يحسن الثناء عليه غيره...!

البيان والبلاغة والتعبير.. تعلن التقصير...!

والحياء يملأ فؤادنا ونحن في هذه الساعة نريد أن نشدو بأوصاف ملك الملوك! ولنا الشرف أن نمرغ أنوفنا في التراب لجلاله وعظيم سلطانه ﷻ، وأن تشرف ألسنتنا وأقلامنا بمديحه، وإن قدسناه أو سبحناه أو مجدناه؛ فهذه منة منه علينا ﷻ.

وَمَا بَلَغَ المُهْدُوْنَ نَحوَكَ مِدْحَةً

وَإِنْ أَطْنَبُوْا، إِنَّ الَّذِي فِيكَ أَعْظَمُ

❐ في ظلال اسم الملك:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾[الحشر:٢٣].

فربُّنا ﷻ هو الذي ينفذ أمره في ملكه، وهو مالك الملك كله، وهو تام الملك، وهو مالك يوم الدين، وهو مليك الخلق، ولا مليك فوقه، ولا شيء إلا دونه، متصرف بجميع الأشياء، فلا ممانع ولا مدافع له ﷻ.

مَلِكٌ عَزِيزٌ لا يُفَارِقُ عِزَّهُ ... يُقْضَى وَيُرْجَى عِنْدَهُ الغُفْرَانُ

مَلِكٌ لَهُ ظَهْرُ الفَضَاءِ وَبَطْنُهُ ... لَمْ تُبْلِ جِدَّةَ مُلْكِهِ الأَزْمَانُ

مَلِكٌ هُوَ المَلِكُ الَّذِي مِنْ حِلْمِهِ ... يُعْصَى بِحُسْنِ بَلائِهِ وَيُخَانُ

يَبْلَى لِكُلِّ مُسَلْطَنٍ سُلْطَانُهُ ... وَاللهُ لا يَبْلَى لَهُ سُلْطَانُ

فالملك الحقيقي لله ﷻ وَحْدَهُ؛ لا يشاركه فيه أحد، وكل من ملك شيئًا فإنما هو بتمليك الله له، قال ﷺ: «لاَ مَالِكَ إِلاَّ اللهُ ﷻ»، وفي رواية:

«لاَ مَلِكَ إِلاَّ اللَّهُ»[أخرجهما مسلم]، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾[آل عمران:٢٦].

فربُّنا جل وعلا هو المالك لخزائن السماوات والأرض، بيده الخير، يرزق من يشاء.

وهو جل جلاله المالك للموت والحياة والنشور، والنفع والضر، وإليه يرجع الأمر كله.

يتصرف في ملكوته كيف يشاء، كل يوم هو في شأن! صح عنه ﷺ أنه قال: «مِنْ شَأْنِهِ: أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيُفَرِّجَ كَرْبًا، وَيَرْفَعَ قَوْمًا، وَيَخْفِضَ آخَرِينَ»[حديث حسن. رواه ابن ماجه].

وهذا ملك الله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء: ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ﴾[البقرة:٢٤٧].

جاء في «مسند الإمام أحمد»: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تَسُبُّوا الدَّهْرَ! فَإِنَّ اللهَ جل جلاله قَالَ: أَنَا الدَّهْرُ، الأَيَّامُ وَاللَّيَالِي لِي؛ أُجَدِّدُهَا وَأُبْلِيهَا، وَآتِي بِمُلُوْكٍ بَعْدَ مُلُوْكٍ»[حديث صحيح. وأوله في «صحيح مسلم»].

أَيْنَ المُلُوْكُ ذَوُو التِّيجَانِ مِنْ يَمَنٍ ... وَأَيْنَ مِنْهُمْ أَكَالِيلٌ وَتِيجَانُ
أَتَى عَلَى الكُلِّ أَمْرٌ لاَ مَرَدَّ لَهُ ... حَتَّى قَضَوْا فَكَأَنَّ القَوْمَ مَا كَانُوْا

❐ الشيطان سول لهم..

لما أعطى الله ﷻ فرعون الملك؛ ظن أنه المالك الحقيقي، فتكبر وتجبر وظلم الناس؛ حتى وصل به الحال أنه: زعم لنفسه الملك والألوهية!

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص:٣٨]، فأهلكه الله ﷻ، وجعله عبرةً لملوك الأرض إلى قيام الساعة؛ حتى لا يطغيهم الملك وينسيهم أصلهم وضعفهم وميعادهم.

ومع أن الملوك لهم شبهة ملك في الحياة الدنيا؛ فهم يملكون الضياع والقصور والبساتين والذهب والفضة، فإنهم بين خيارين: إما أن يزول عنهم، أو يزولون عنه، فهو ملك زائل، وعارية مسترجعة..

فذكرهم الله ﷻ بأن مرجعهم إليه؛ ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ١٨﴾ [المائدة:١٨].

ونُهي النبي ﷺ عن التسمي بـ "ملك الملوك"، جاء في «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ قال: «أَخْنَعُ الأَسْمَاءِ عِنْدَ اللهِ: رَجُلٌ تَسَمَّى بِمَلِكِ الأَمْلاَكِ».

❐ مالك يوم الدين..

يوم القيامة يأخذ الله ﷻ السماوات بيمينه والأرض بيده الأخرى؛ كما قال ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ

﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾

[الزمر: ٦٧].

جاء في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَقْبِضُ اللهُ تبارك وتعالى الأَرْضَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ! أَيْنَ مُلُوْكُ الأَرْضِ؟».

وجاء في «صحيح مسلم» من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يَطْوِي اللهُ عز وجل السَّمَاوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ! أَيْنَ الجَبَّارُوْنَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُوْنَ؟
ثُمَّ يَطْوِي الأَرْضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ! أَيْنَ الجَبَّارُوْنَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُوْنَ؟».

وفي يوم القيامة: ينادي الرب سبحانه وتعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؟ فلا يجيبه أحد! فيجيب الحق نفسه بنفسه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾[غافر:١٦].

ملكه تام:

ومع أن الله عز وجل هو الملك، وهو غني عن عبادتنا؛ لكن من جميل إحسانه وامتنانه على عباده: قرن اسمه: (الملك) ببعض أسمائه؛ لتطمئن النفوس وتشتاق للقائه، قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾﴾[الفاتحة:٣-٤]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ

﴿إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ﴾ [الحشر:٢٢-٢٣]، والله ﷻ يخبرنا بأن المُلْك لا يحسن ولا يكمل إلا مع الإحسان والرحمة؛ فهو ﷻ الملك الرحيم.

ومُلْكُ ربِّنا ﷻ منزه عن النقائص؛ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ١﴾ [الجمعة:١].

ولما كانت ملوك الأرض تصيبهم النقائص من غرور، واسترسال في الشهوات، وظلم وجور؛ فالله ﷻ أخبرنا بأن ملكه تام، مجتمع فيه كل صفات الكمال الحسان؛ ولهذا كان الرسول ﷺ إذا سلم بعد الوتر قال: «سُبْحَانَ المَلِكِ القُدُّوْسِ»، ثلاثًا، ويرفع صوته بالثالثة. [حديث صحيح. رواه النسائي].

والواجب على العبد: أن يحمد الله على ملكه ورحمته، وأن يثني عليه على الدوام؛ قال الله ﷻ: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [التغابن:١]، فهو محمود في ملكه، فإن الملك بلا حمد يستلزم نقصًا، والحمد بلا ملك يستلزم عجزًا؛ والحمد مع الملك غاية الكمال والجلال.

ومن جلال ملكه: أنه يجير من استجار به، ولا يقدر أحد أن يجير ويحمي من أراد الله هلاكه؛ ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٨٨﴾ [المؤمنون:٨٨] .

يَـا مَالِكًـا هُـوَ بِالنَّوَاصِـي آخِـذُ   وَقَضَاؤُهُ فِـي كُـلِّ شَـيْءٍ نَافِـذُ

يا من لا يزول ملكه!

قال أهل السير: "لما بنى هارون الرشيد قصره، ولم ير مثله قط في الجمال في زمانه! دخل الناس يهنئونه، ودخل معهم أبو العتاهية؛ فقام وأنشد:

عِشْ مَا بَدَا لَكَ سَالِمًا فِي ظِلِّ شَاهِقَةِ القُصُوْرْ
يُسْعَى إِلَيْكَ بِمَا اشْتَهَيْتَ لَدَى الرَّوَاحِ وَفِي البُكُوْرْ
يُجْرَى عَلَيْكَ بِمَا أَرَدْتَّ مَعَ الغُدُوِّ مَعَ البُكُوْرْ
فَإِذَا النُّفُوسُ تَقَعْقَعَتْ فِي ظِلِّ حَشْرَجَةِ الصُّدُوْرْ
فَهُنَاكَ تَعْلَمُ مُوْقِنًا مَا كُنْتَ إِلاَّ فِي غُرُوْرْ

فبكى هارون حتى وقع على الأرض، ولم يمض عليه شهر واحد حتى أصبح في عداد الموتى".

هارون!.. الذي قال للسحابة: أمطري أنى شئت؛ فإن خراجك سيصل إلي؟! هارون.. الذي كان يحج عامًا ويغزو عامًا؟!

وعبد الملك بن مروان -حاكم العالم الإسلامي- لما أتته سكرات الموت؛ سمع غسالاً حول قصره يغني في سعادة وهناء! فقال عبد الملك: يا ليتني كنت غسالاً! يا ليتني ما عرفت الملك والخلافة! ثم مات.

وآخر يقول: يا من لا يزول ملكه؛ ارحم من زال ملكه، ولما سمع سعيد

ابن المسيب هذه الكلمات رد عليه قائلاً: "الحمد لله الذي جعلهم يفرون إلينا في سكرات الموت، ولا نفر إليهم".

اقرع باب الملك!

أيها القارئ! المرض يزول، والمصاب يحول، والذنب يغفر، والدين يقضى، والمحبوس يفك، والغائب يقدم، والعاصي يتوب، والفقير يغتني.. وهذه جميعها بيد ملك الملوك سبحانه وتعالى، فليكن الله عز وجل ملاذك ومعاذك ورجاءك في كل ساعة، وفي كل حين؛ وخاصةً في آخر الليل؛ فإن الله جل وعلا ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا وينادي: «أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَدْعُوْنِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يُضِيءَ الْفَجْرُ»[أخرجه مسلم].

ونبينا صلى الله عليه وسلم -وهو أعلم الخلق بالله وأشدهم له عبادةً- حثنا أن نردد على الدوام الإقرار بملك الله جل وعلا بعد الصلوات مباشرةً، وعند الفزع من النوم ليلاً، وأن يكون ذلك من ضمن أورادنا في الصباح والمساء، وبعد العودة من السفر، ثم إن كررت ذلك مائة مرة في يومك كنت من الفائزين.

صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ؛ كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا

جَاءَ بِهِ؛ إِلاَّ أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ» [أخرجه البخاري ومسلم].

اللهم يا مالك يوم الدين! اجعل خير أعمارنا آخرها، وهون علينا الحساب؛ يا رب العالمين!

(١٣)

السُّبُّوحُ جل جلاله

قال العلماء: توحيدُ الأسماء والصفات يقوم على ركنيين، وهي خلاصة التوحيد:

١ - إثبات الكمال في أسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته وأفعاله.

٢ - تنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل النقائص التي تنافي كماله في ذاته وصفاته وأفعاله.

ومن رحمة الله بنا أنه: أرشدنا إلى كيفية تنزيهه، وذلك بتسبيحنا له، قال عز وجل: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب:٤٢].

سُبحان مَنْ هُوَ لا يزال مُسَبَّحًا ... أبدًا وليس لغيره السبحان

سبحان مَنْ فِي ذِكْرِهِ طُرقُ الرِّضا ... منه وفيه الرُّوحُ والرَّيْحَانُ

وكان رسولنا صلى الله عليه وسلم يقول في ركوعه وسجوده: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ المَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ» [أخرجه مسلم].

والتسبيح في اللغة هو: التنزيه، (سبح الله) أي: نزهه، وبرأه من كل

عيب.

فربُّنا ﷻ منزَّه عن كل عيب ونقص وسوء، فله الكمال المطلق ﷻ.

أنت أحق..

الكون كله معبد، كل من فيه يسبح الله ﷻ، وهو أعظم ما يعبد الله به.

فهؤلاء أهل السماء من الملائكة: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾[البقرة:٣٠].

ولا شيء في الكون إلا وهو يسبح خالقه، وتتجاوب جنباته بالتسبيح لخالقه؛ إلا كفرة الإنس والجن.

فالله ﷻ قال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾[الإسراء:٤٤].

وهو ﷻ المستحق للتسبيح؛ لكمال ذاته وكمال صفاته.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَرَصَتْ نَمْلَةٌ نَبِيًّا مِنَ الأَنْبِيَاءِ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ؛ فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَحْرَقْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ؟!»[أخرجه البخاري -وهذا لفظه-، ومسلم].

الجبال والطير يسبحون الله ﷻ، والكل يسبح الله: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء:٧٩]، فنحن أحق من يتوجه بالتسبيح إلى الله ﷻ.

قال بعض السلف: أما يستحيي أحدكم أن تكون راحلته التي يركبها، وثوبه الذي يلبسه؛ أكثر ذكرًا لله منه.

❑ قلوب سمعت..

لما علم أهل الصلاح بالأجور: أن التسبيح أحب الكلام إلى الله؛ تسابقوا إلى التسبيح في جميع أحوالهم، فهي الغنيمة الباردة، جاء عنه ﷺ أنه قال: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ» [أخرجه البخاري ومسلم].

وصح عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ؛ حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ» [أخرجه البخاري ومسلم].

وقال ﷺ: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟»، فسأله سائل من جلسائه: كيف يكسب أحدنا ألف حسنة؟

قال: «يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ؛ فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ» [أخرجه مسلم].

❑ مفاتيح السعادة:

وتسبيح الله ﷻ: من الباقيات الصالحات.

وفي التسبيح: سلوة للطائعين، وملاذ للهاربين، وملجأ للخائفين؛ فهم يعلمون أن الذي يسبحونه وينزهونه من كل عيب ونقص هو: ملاذهم في الشدة، وأنيسهم في الوحشة، ونصيرهم في القلة.

كيف لا يستجاب لأهل التسبيح وهم الذين عرفوا الله في الرخاء، فكيف لا يعرفهم في الشدة؟!

فهذا نبي الله يونس بن متى عليه السلام؛ ماذا قال الله عز وجل عنه؟ ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾﴾[الصافات:١٤٣-١٤٤].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "كانت الحيتان تهدأ في البحر، ولا يهدأ هو من التسبيح، وكانت الضفادع تسكن من النقنقة، ولا يسكن هو من ذكر الله سبحانه وتعالى".

قال الحسن: "ما كان ليونس صلاة في بطن الحوت، ولكنه قدم عملاً صالحاً في حال الرخاء؛ فذكره الله به في حال البلاء".

قال الكرجي: "دليل على أن التسبيح والتهليل يجليان الغموم، وينجيان من الكرب والمصائب".

وجاء في الأثر: "أن العبد إذا كان صالحًا أصبح معروفًا في السماء"؛ لأن التسبيح عمل صالح، والله عز وجل يقول: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[فاطر: ١٠].

بالتسبيح يرزق العبد، جاء في «الأدب المفرد» عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«..وَسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ؛ فَإِنَّهَا صَلَاةُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ كُلُّ شَيْءٍ»

[حديث صحيح].

سبحانك!

فسبحان الله عدد ما خلق في السماء.

وسبحان الله عدد ما خلق في الأرض.

وسبحان الله عدد ما بين ذلك.

وسبحان الله عدد ما هو خالق.

أمرَ الله سبحانه وتعالى عباده: أن يكثروا من تسبيحه حين الشروق والغروب؛ فقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ١٧﴾[الروم:١٧]، وقال جل جلاله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ٤٢﴾[الأحزاب:٤٢].

ولأهمية التسبيح؛ جعل الله أهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس؛ ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠﴾[يونس:١٠].

قال ابن رجب رحمه الله: "والأعمال كلها يُفرَغ منها، والذِّكر لا فراغ له ولا انقضاء! والأعمال كلها تنقطع بانقطاع الدنيا، ولا يبقى منها شيء في الآخرة، والذِّكرُ لا ينقطع.

المؤمن يعيش على الذِّكر، ويموت عليه، وعليه يُبعث".

سُبْحَانَ مَنْ سَبَّحَتْهُ أَلْسُنُ الأُمَمِ
تَسْبِيحَ حَمْدٍ بِمَا أَوْلَى مِنَ النِّعَمِ
سُبْحَانَ مَنْ سَبَّحَتْهُ أَلْسُنٌ عَرَفَتْ
بِأَنَّ تَسْبِيحَهُ مِنْ أَفْضَلِ العِصَمِ
سُبْحَانَ مَنْ إِنْ يَشَأْ يُخْزِ المُسِيْءَ وَإِنْ
يَشَأْ عَفَا عَنْ كَبِيرِ الإِثْمِ وَاللَّمَمِ
سُبْحَانَ مَنْ مِنْهُ نَرْجُو عَفْوَ مُقْتَدِرٍ
وَنَسْتَعِيذُ بِهِ مِنْ بَطْشِ مُنْتَقِمِ

جعلنا الله سبحانه وتعالى من المسبحين بحمده، المؤمنين بأسمائه وصفاته، المحققين لتوحيده وتعظيمه؛ إنه سميع قريب.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الروم:١٧-١٨].

(١٤)

القُدُّوسُ جل جلاله

اشتر نفسك اليوم! فإن السوق قائمة، والثمن موجود، والبضائع رخيصة، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يوم لا تصل فيه إلى قليل أو كثير: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾[التغابن:٩]، ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾[الفرقان:٢٧].

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التُّقَى ... وَأَبْصَرْتَ يَوْمَ الحَشْرِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا

نَدِمْتَ عَلَى أَنْ لا تَكُوْنَ كَمِثْلِهِ ... وَأَنَّكَ لَمْ تَرْصُدْ لِمَا كَانَ أَرْصَدَا

نعيش مع اسم من أسماء الله الحسنى يقربنا إليه.

وهو خلاصة التوحيد، وأحد ركني توحيد الأسماء والصفات، وهو: اسم الله (القدوس ﷻ).

قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ﴾[الحشر: ٢٣]، وجاء في «صحيح مسلم»: أن النبي ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ المَلائِكَةِ وَالرُّوْحِ».

وجاء في «مسند الإمام أحمد»: أن النبي ﷺ إذا انتهى من صلاة الوتر قال: «سُبْحَانَ المَلِكِ القُدُّوسِ، سُبْحَانَ المَلِكِ القُدُّوسِ، سُبْحَانَ المَلِكِ القُدُّوسِ»، ويرفع صوته بالثالثة. [حديث صحيح].

والقُدُّوس في اللغة يأتي بمعنى: الطهارة، والنزاهة، وكذلك يأتي بمعنى: المبارك.

فربُّنا ﷻ القدوس، وهو: المطَهَّر من النقائص والعيوب، المنزه عن الصاحبة والأولاد والأنداد، الممدوح بالفضائل والمحاسن، الموصوف بصفات الكمال.

وربُّنا ﷻ هو المبارك؛ الذي كثرت وعمت خيراته على طول الأوقات في الأرض والسماوات، تبارك اسمه وتباركت أفعاله وذاته وصفاته العلا، وهو الذي يطهر من شاء من خلقه وفق حكمته؛ ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب:٣٣].

سبحانه!

وربُّنا ﷻ المُستحق للتقديس، والتنزيه، والإجلال؛ من جميع الخلائق.

والتقديسُ: عبادة أهل السماء من الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

والكون كلُّه يُقدس الله ﷻ ويُسبحه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي

ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾[التغابن:١]، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾[الإسراء:٤٤].

❐ أنت أحق..

وأحق المخلوقات بالتقديس: بنو آدم.

وتقديس الله جل وعلا يكون:

بمحبته وتعظيمه سبحانه وتعالى عن كل نقص وعيب.

وإثبات ما أثبته لنفسه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم.

وتنزيهه عن مشابهة أحد من خلقه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾[الشورى:١١].

وتنزيهه عن الشرك به، ثم التحاكم إلى شرعه والرضى به، والبعد عن سوء الظن به سبحانه وتعالى.

ومن ظن به خلاف ما وصف به نفسه ووصفه به رسله، أو عطل حقائق ما وصف به نفسه، ووصفته به رسله؛ فقد ظن بالله ظن السوء.

هَذَا وَمِنْ أَوصَافِهِ القُدُّوْسُ ذُوْ　　　التَّنْزِيهِ بِالتَّعْظِيمِ لِلرَّحمَنِ

❐ حظك منه..

والمؤمن يقدس نفسه بفعل الطاعات، والبعد عن الذنوب والمعاصي، وإزالة ما يعلق بالقلوب من الران، والابتعاد عن أكل المال الحرام بتطهير

المال من الشبهات، وهذا الذي امتدحه الله ﷻ بقوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾[الشمس:٩-١٠].

وقد بين الله ﷻ لموسى عليه السلام الغاية من إرساله لفرعون، وهي: أن يزكي نفسه بتقديس الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ ١٩﴾[النازعات:١٧-١٩].

ولذلك؛ لا فلاح إلا بهذه التزكية الإيمانية، ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥﴾[الأعلى:١٤-١٥]، بل وينزع التقديس عن الأمة الظالمة.

صح عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ لا يُقَدِّسُ أُمَّةً لا يَأْخُذُ الضَّعِيفُ حَقَّهُ مِنَ القَوِيِّ»[حديث صحيح. رواه البيهقي في «السنن الكبرى»]، وصح عنه ﷺ أنه قال: «كَيْفَ يُقَدِّسُ اللهُ أُمَّةً لا يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهِمْ مِنْ شَدِيدِهِمْ؟».

ولما كتب أبو الدرداء إلى سلمان الفارسي رضي الله عنهما ليهاجر من العراق إلى الأرض المقدسة؛ رد عليه سلمان ببلاغة توضح مفهوم القداسة؛ فقال: "إن الأرض لا تقدس أحدًا! وإنما يقدس الإنسان عمله".

سُبْحَانَ مَنْ هُوَ لا يَزَالُ وَرِزْقُهُ ... لِلْعَالَمِينَ بِهِ عَلَيْهِ ضَمَانُ
سُبْحَانَ مَنْ يُعْطِي المُنَى بِخَوَاطِرٍ ... فِي النَّفْسِ لَمْ يَنْطِقْ بِهِنَّ لِسَانُ

اللهم إنا نسألك يا سبوح.. يا قدوس! أن تطهرنا، وأن تغفر لنا وترحمنا؛ يا أرحم الراحمين!

(١٥)

السَّلَامُ جل جلاله

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ السَّلَامَ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ -تَعَالَى-، وَضَعَهُ اللهُ فِي الأَرْضِ؛ فَأَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»[حديث صحيح. رواه البخاري في «الأدب المفرد»].

لا يزال المؤمن يسأل الله السلامة في الدنيا والآخرة؛ أما سلامة الدنيا فهي: ظَاهِرَةٌ، وَبَاطِنَةٌ:

فالظاهرة: العافية من الأمراض والأسقام، وجميع ما يكره.

والباطنة فِي الدنيا: سلامة الدين، وسلامة اليقين من الكفر والبدع والعصيان.

وهذا الذي يطلبه المؤمن هو أوثق عرى الإيمان، فإذا سلمت لك هذه فقد فزت بالقلب السليم، ودخلت دار السلام.

فالكل يبحث عن السلام، والله هو السلام تبارك وتعالى.

يقول ابن القيم رحمه الله: "وكم ممن حفظ هذا الاسم لا يدري ما تضمنه من هذه الأسرار والمعاني!!".

قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر:٢٣].

فربُّنا السلام ﷻ هو: السالم من كل عيب ونقص؛ لكماله في ذاته وصفاته وأفعاله.

فالسلامة هي: البراءة، وقيل: العافية.

وَهُوَ السَّلَامُ عَلَى الحَقِيقَةِ سَالِمٌ
مِنْ كُلِّ تَمْثِيلٍ وَمِنْ نُقْصَانِ

وربنا ﷻ أحق بهذا الاسم من كل مسمى به.

◻ في ظلال اسم السلام:

تأمل هذا الاسم في صفات الله ﷻ! فحياته سلام من الموت، ومن السنة والنوم، وقيوميته وقدرته سلام من التعب واللغوب.

وتأمل في علمه! فهو سالم من عزوب شيء عنه، أو عروض نسيان، أو حاجة إلى تذكر، وتفكر! ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس:٦١]، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم:٦٤].

وكلماته سلامة من الكذب والظلم، بل تمت كلماته صدقًا وعدلاً: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

وغناه سلامٌ من الحاجة إلى غيره بوجه ما، بل كل ما سواه محتاج إليه، وهو غني عن كل ما سواه.

وملكه سلام من منازع فيه أو مشارك أو معاون أو مظاهر.

وحلمه وعفوه وصفحه ومغفرته وتجاوزه سلام من أن تكون عن حاجة منه أو ذل أو مصانعة؛ كما يكون من غيره.

حتى عذابه وانتقامه سلام من أن يكون ظلمًا أو تشفيًا أو غلظةً أو قسوةً، بل هو محض حكمته وعدله، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت:٤٦].

تأمل في قضائه وقدره! فهو سلام من العبث والجور والظلم.

تأمل في شرعه ودينه! فهو سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب؛ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء:٨٢].

استواؤه وعلوه على عرشه سلام من أن يكون محتاجًا إلى ما يحمله أو يستوي عليه؛ بل العرش محتاج إليه، وحملته محتاجون إليه؛ فهو الغني عن العرش، وعن حملته، وعن كل ما سواه.

وسمعه وبصره سلام من كل ما يتخيله مشبه، أو يتقوله معطل.

وحتى محبته لأوليائه سلام من عوارض محبة المخلوق للمخلوق؛ من كونها محبة حاجة إليه، أو تملق له، أو انتفاع بقربه.

مكافأة المحبين:

وسلَّم اللّه ﷻ عَلَى أنبيائه ورسله لإيمانهم وإحسانهم، وليقتدي بذلك البشر؛ فلا يذكرهم أحد بسوء: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١﴾ [الصافات: ١٨١]، ثم أكرم اللّه ﷻ يحيى عليه السلام؛ فخصه بسلام في مواضع -قيل: إنها الأكثر وحشةً للخلق-: يوم ولد؛ فيرى نفسه خارجًا مما كان، ويوم يموت؛ فيرى قومًا لم يكن عاينهم من قبل، ويوم يبعث؛ فيرى نفسه في المحشر العظيم؛ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ١٥﴾ [مريم:١٥].

ومن تبع هدى اللّه ﷻ سلم من سخطه وعذابه، وهذا معنى قوله: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ٤٧﴾[طه:٤٧].

والجنة: دار السلام: ﴿ لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾[الأنعام:١٢٧].

واللّه ﷻ يُسلِّم على عباده في الجنة: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ [يس: ٥٨].

والملائكة تُسلِّم على عباده الصالحين عند قبض أرواحهم وتطمئنهم: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٣٢﴾[النحل:٣٢].

حظك منه..

من التعبد للّه باسمه: (السلام ﷻ): أن يسلم قلب المسلم ولسانه من

كل سوء للمسلمين؛ لأن النبي ﷺ قال: «الْمُسْلِمُ: مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ» [أخرجه البخاري ومسلم].

ولا يقف عند هذا الحد من كف الأذى، بل يجب أن يؤدي حق هذا الاسم العظيم؛ قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ السَّلَامَ: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ -تَعَالَى-، وَضَعَهُ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ؛ فَأَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ» [حديث صحيح. رواه البخاري في «الأدب المفرد»].

ومن فضل التحية -وهي: "السلام عليكم"-: أنها توصل إلى دار السلام، صح عنه ﷺ أنه قال: «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ» [أخرجه مسلم].

وقفة..

لا يُقال: السلام على الله!

فالسلام من الله وله، ولما سمع النبي ﷺ الصحابة يقولون: السلام على الله! قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ، وَلَكِنْ قُولُوا: التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ.

أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ» [أخرجه البخاري ومسلم بنحوه].

وفي رواية: «فَإِنَّكُمْ إِذَا قُلْتُمُوْهَا أَصَابَتْ كُلَّ عَبْدٍ لِلهِ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ» [أخرجها البخاري ومسلم].

اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

اللهم! سلم لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وسلم لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وسلم لنا آخرتنا التي فيها معادنا، وأدخلنا دار السلام يا ربنا فأنت على كل شيءٍ قدير.

(١٦)

المُؤْمِنُ جل جلاله

إزالة تشكيل على رؤوس الجبال: شمس من الفرج مشرقة، وعلى مشارف التلال: هالة من النور بارقة، وعلى كل باب للحزن من السرور: طارقة.

افتح عينيك، وارفع يديك، لا تساعد الهم عليك، ولا تدع اليأس إليك؛ فهناك من يؤمنك، وهناك من يصدقك.. إِنَّهُ المُؤْمِنُ جل جلاله.

السمك والقرش والطيور والوحوش؛ كلها ترجو الأمان من المؤمن سبحانه وتعالى.

فاتَّجه إلى المؤمن جل جلاله، واشك الحال إليه؛ فإن فرجه أسرع من البرق الخاطف، وله في كل لحظة لطائف.

المؤمن جل جلاله: اسم من أسماء الله عز وجل؛ فالله قد قال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾[الحشر:٢٣].

ورد اسم (المؤمن) في القرآن في آية واحدة، وجاء ورودها: أمنًا للخائفين،

وأمانًا للراجين، وفرجًا للمهمومين.

❑ وقفة.. في ظلال اسم المؤمن:

قال أهل العلم: المؤمن له معنيان:

أوَّلهما: التصديق، وأعظم تصديق منذ أن خلق الله الخليقة إلى أن تقوم الساعة: تصديق الله جل وعلا لنفسه، وشهادته لنفسه بالوحدانية وانفراده بالعبودية، وبما أثنى على نفسه به من الكمال والصفات العلية، قال الله تبارك وتعالى عن نفسه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[آل عمران: ١٨]؟ فهذه أجل الشهادات الصادرة من الملك العظيم، وهو: الله رب العالمين؛ على أعظم وأجل مشهود به، وهو: توحيد الله تبارك وتعالى، وإخلاص الدين له، وقيامه بالقسط.

وأَشْهَدُ أَنَّ اللهَ لا رَبَّ غيرُهُ ... كَرِيمٌ رَحِيمٌ يُرْتَجَى وَيُؤَمَّلُ

وهو جل جلاله الذي يُصدِّق قوله ويُصدِّق وعده: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾[النساء: ١٢٢].

وصدَّق أنبياءه بإظهار الآيات الباهرة على أيديهم: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[آل عمران:٤٩]، ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾[الحجر:٦٤].

ويُصدِّق عباده ما وعدهم به من النصر في الدنيا، والتمكين في الأرض، ومن الثواب في الآخرة، قال جل وعلا: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾[الأنبياء:٩].

ويُصدِّق الكفار مَا وعدهم من العقاب والخذلان في الدنيا والآخرة، قال ﷻ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾[الأعراف: ٤٤].

وأخبار الله ﷻ صدق كلها.

وَإِنِّي بِكَ اللَّهُمَّ رَبِّي لَوَاثِقٌ وَمَا لِي بِبَابٍ غَيْرَ بَابِكَ مَدْخَلُ

والله ﷻ يحب الصادقين في وعدهم وخبرهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾[التوبة:١١٩].

وثانيهما: الأَمَانُ، وهو ضد: الإخافة، ﴿وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾[قريش:٤].

فالناس بين خوف من الداء، أو نقص في الدواء، أو تسلط الأعداء، أو فقر منس، أو موت مجهز؛ فتراهم يبحثون عن الأمن في تأمين الطعام، ويقيمون القلاع والحصون، ويقيمون المشافي، ويبنون السدود، والضعفاء من الأفراد والدول قد يلجؤون إلى الأقوياء طلبًا للأمن.

وفي لحظات تنهار هذه القوى، وتنكشف الأمور، ولا يبقى مع هؤلاء إلا الالتجاء إلى المؤمن ﷻ؛ واهب الأمن لعباده، فروا منه ثم عادوا إليه، خالقهم وخالق الكون أجمع، مهيمن على كل شيء، نواصي العباد بيده.

فإذا وقع عذاب الله ﷻ بقوم؛ فلا يوجد من يؤمنهم منه، ولا طاقة للبشر في دفعه: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك:١٦-١٧].

ثلاثة مواضع:

فالناس تبحث عن الأمن في ثلاثة مواضع، وجميعها بيد المؤمن ﷻ، القادر على كل شيء، ولا يهبها إلا لأوليائه المتقين:

الموضع الأول: أمن دنيوي بشتى أنواعه، ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

والموضع الثاني: يطلب الأمن فيه عند الاحتضار، ونزول ملك الموت، وفي البرزخ عند رؤية الملكين.

وهنا يأتي الأمان والبشارة للمؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت:٣٠].

والموضع الثالث: في الآخرة عند الفزع الأكبر؛ حيث الأمان الأكبر للمتقين، قال الله ﷻ: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ

﴿هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ١٠٣﴾[الأنبياء:١٠٣].

والأمـن لا يعطـى إلا للموحـد: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩﴾[النمل:٨٩].

وعلى قدر إيمانك يكون أمانك؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾[الأنعام:٨٢].

❑ حظك منه..

ولذا؛ فإن من ثمرات هذا الاسم العظيم على المؤمنين: أن يعلموا أن الله ﷻ هو الذي يؤمنهم عند المحن والشدائد والمصائب، ويعلموا كذلك: أن الجزاء من جنس العمل، فهم يؤمنون الناس شرهم وغوائلهم؛ رغبةً بما عند الله من الأمن، ورهبةً من نزع الأمن منهم يوم القيامة.

صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ: مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[حديث صحيح. رواه أحمد في «المسند»].

اللهم! آمنا في أوطاننا.. اللهم! آمن روعاتنا، ويمن كتابنا، ويسر حسابنا.

(١٧)

المُهَيْمِنُ جل جلاله

هذه رسالة إلى.. كل من مل من الحياة، وسئم من العيش، وضاق ذرعًا بالأيام، وذاق الغصص.. نبشرك بأن هناك فتحًا مبينًا، ونصرًا قريبًا، وفرجًا بعد شدة، ويسرًا بعد عسر.

هناك أمل مشرق، ومستقبل حافل، ووعد صادق: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾[الروم: ٦]، ألم يقل مولاك وخالقك: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠]، ثم إذا دعوته بها؛ فما النتيجة؟ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠].

ونحن في هذا المقام نتقرب إلى الله ﷻ بمعرفة اسم من أسمائه الحسنى: (المهيمن جل وعلا):

ومعرفة الله ﷻ بأسمائه الحسنى وصفاته هو: أصل الدين، وأساس الهداية، وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب، وحصَّلته النفوس، وأدركته العقول.

اسم الله (المهيمن ﷻ) ورد في آخر سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾[الحشر:٢٣].

وربُّنا المهيمن ﷻ هو: القائم على خلقه في كل أمورهم وشؤونهم؛ فهو المطلع على خفايا الأمور، وخبايا الصدور؛ الذي أحاط بكل شيء علماً، الشاهد على الخلق بأعمالهم، الرقيب عليهم فيما يصدر منهم من قول أو فعل، لا يغيب عنه من أفعالهم شيء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾[يونس:٦١].

هذه حالات العبد وتقلباته في ليله ونهاره، وسره وجهره، وحضره وسفره؛ علمها علام الغيوب، وأحصاها على العبد: ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾﴾[طه:٧].

النجوى عنده جهر، والسر عنده علانية، والخافي لديه مكشوف.

❑ إنه المهيمن..

بات نفر من المنافقين يدبرون الدسائس، ويحيكون الخطط؛ فكشفهم علام الغيوب، وقال ﷻ: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا

﴿١٠٨﴾ [النساء:١٠٨].

جلس عمير بن وهب وصفوان بن أمية بعد بدر عند الكعبة ليلاً؛ يدبران اغتيال رسول الله ﷺ، فأخبر الله رسوله بكيدهم، وأطلعه على فعلهم.

مَلِيكٌ عَلَى عَرْشِ السَّمَاءِ مُهَيْمِنٌ   لِعِزَّتِهِ تَعْنُوْ الوُجُوْهُ وَتَسْجُدُ

نعم؛ إنه المهيمن الحافظ جل وعلا، والأمين والشاهد، والرقيب على خلقه بأعمالهم.

اطمئن!

يا من ملأت عينيك بالدمع! كفكف دموعك، وأرح مقلتيك، واهدأ! فإن لك من خالق الوجود ولايةً، وعليك من لطفه رعايةً.

واطمئن -أيها العبد!- فقد فُرغ من القضاء، ووقع الاختيار، وحصل اللطف.

كم مرةً خفنا من الموت؛ فما متنا؟!

كم مرةً ضاقت بنا السبل، وتقطعت بنا الحبال، وأظلمت في وجوهنا الآفاق؛ فإذا هو الفتح والنصر، والخير والبشارة؟! ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام:٦٤].

كم مرةً أظلمت أمامنا الدنيا، وضاقت علينا السماء والأرض بما

رحبت؛ فإذا هو الخير العميم واليسر! ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٧﴾[يونس:١٠٧].

فربُّنا المهيمن ﷻ، والعزة له، والغلبة له، والفرج منه.

ذكر ابن كثير عن وهب بن منبه أثرًا، قال: "يقول الله ﵎ في بعض كتبه: (وعزتي وجلالي! ما اعتصم بي عبد، فكادت له السماوات والأرض؛ إلا جعلت له من بينهن فرجًا ومخرجًا، وعزتي وجلالي! ما من عبد اعتصم بغيري؛ إلا أسخت الأرض من تحت قدميه)".

جَلالُكَ يَا مُهَيْمِنُ لا يَبِيْدُ ... وَمُلْكُكَ دَائِمٌ أَبَدًا جَدِيدُ
وَحُكْمُكَ نَافِذٌ فِي كُلِّ أَمْرٍ ... وَلَيْسَ يَكُونُ إلاَّ مَا تُرِيدُ
قَصَدْتُ إِلَى المُلُوكِ فَكُلُّ بَابٍ ... عَلَيْهِ حَاجِبٌ فَظٌّ شَدِيدُ
وَبَابُكَ مَعْدِنٌ لِلْجُودِ يَا مَنْ ... إِلَيْهِ يَقْصِدُ العَبْدُ الطَّرِيدُ

❐ حبل النجاة..

وصف ربنا ﷻ كتابه -وهو: القرآن- بأنه: مهيمن على الكتب السابقة: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِ﴾[المائدة:٤٨].

فالقرآن الكريم حاكم على الكتب قبله؛ فقد جاء بأحسن ما فيها،

ونسخ منها ما نسخه، وقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون؛ فأظهر تحريفهم، وأظهر الحق الذي تضمنته الكتب السابقة.

وما آمن مسلم بهذا إلا أثمر تعظيم كتاب الله سبحانه وتعالى في صدره محبةً وفرحًا، وحمدًا لله وشكرًا على الهداية إليه؛ وهي التي يرجوها كل إنسان، ويطلبها المؤمن في كل ركعة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ٦ ﴾[الفاتحة: ٦].

اللهم يا مهيمن! اهدنا فيمن هديت، وتولنا فيمن توليت، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين.

(١٨)

العَزِيزُ جل جلاله

ذكر الحاكم في «المستدرك»: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه "لما قدم الشام عرضت له مخاضة، فنزل عمر عن بعيره ونزع خفيه، ثم أخذ بخطام راحلته، وخاض المخاضة.

فقال له أبو عبيدة بن الجراح: لقد فعلت يا أمير المؤمنين فعلاً عظيمًا عند أهل الأرض! نزعت خفيك، وقدمت راحلتك، وخضت المخاضة.

فصك عمر بيده في صدر أبي عبيدة؛ فقال: أوه! لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة!

أنتم كنتم أقل الناس؛ فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العزة بغيره يذلكم الله سبحانه وتعالى".

قال سبحانه وتعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[فاطر:١٠].

امتدح ربُّنا سبحانه وتعالى ذاته العلية بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٩﴾ [الشعراء:٩]، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾[آل عمران:٦]، وأمرنا من فوق سبع

سماوات أن نعلم ذلك ونتيقنه: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾[البقرة: ٢٦٠].

فربُّنا العزيز ﷻ؛ الَّذِي جمع معاني العزة كلها -وصفًا وملكًا-، في أسمى معانيها، وأعلى كمالها، قال ﷻ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[فاطر: ١٠].

فله عزة الغلبة؛ فهو القاهر لأعدائه والغالب لهم.

وله عزة الامتناع؛ فلا يناله أحد من خلقه ولا يصل إليه سبحانه؛ فهو غني بذاته.

وله عزة القوة ذلت الصعاب لعزته، ولانت الشدائد لقوته.

وربُّنا هو العزيز ﷻ؛ الشديد في نقمته إذا انتقم من أعدائه.

وهو العزيز ﷻ؛ الذي يهب العزة لمن يشاء من عباده.

وهو العزيز ﷻ؛ الذي لا يضام جاره، ولا يذل أنصاره.

وَهُوَ العَزِيزُ فَلَنْ يُرامَ جَنَابُهُ ... أَنَّى يُرامُ جَنَابُ ذِي السُّلْطَانِ
وَهُوَ العَزِيزُ القَاهِرُ الغَلَّابُ لَمْ ... يَغْلِبْهُ شَيْءٌ هَذِهِ صِفَتَانِ
وَهُوَ العَزِيزُ بِقُوَّةٍ هِيَ وَصْفُهُ ... فَالعِزُّ حِينَئِذٍ ثَلاثُ مَعَانِ
وَهِيَ الَّتِي كَمُلَتْ لَهُ سُبْحَانَهُ ... مِنْ كُلِّ وَجْهٍ عَادِمِ النُّقْصَانِ

❒ حمى العزيز:

وأهل الإيمان لما علموا وآمنوا أن العزة منه وحده؛ ذلوا للعزيز، والتجؤوا

إليه، واحتموا بحماه، ولاذوا بجنابه، وطلبوا منه العزة؛ لأنهم تلوا قوله ﷻ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[فاطر:١٠].

ذكر المدائني في كتابه قال: "قدم رجل من أهل اليمن على الحجاج يشكو أخاه محمد بن يوسف، فصادف الحجاج على المنبر، فقام إليه؛ فشكا أخاه محمداً، فأمر به الحجاج فحبس، فلما نزل عن المنبر؛ استدعاه وهو متغيظ عليه، فقال له: ما جرأك على أن ترفع أخي؟! فقال له: أنا بالله أعز من أخيك بك، فقال الحجاج: خلوا سبيله".

لا تَسقِني كأسَ الحيَاةِ بذِلَّةٍ ... بَلْ فاسْقِني بالعِزِّ كأْسَ الحنْظَلِ

وكلما عظم الاسم في قلب المسلم، وعمل على تحقيقه في حياته؛ كان نيله للعزة أعظم، ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[المنافقون:٨].

فأعز الناس: الأنبياء، ثم الذين يلونهم من المؤمنين.

ولذا؛ لا عزيز في الدنيا والآخرة إلا من أعزه الله؛ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦﴾[آل عمران:٢٦].

❐ للباحثين عن العزة..

فمن اعتز بغير الله ﷻ فقد اعتز بسلطان زائل، وقوة فانية.

ومن الذي يقوم في وجه الله ويصارعه ويغالبه؟! وقد اعتز قوم فرعون

بفرعون: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الشعراء:٤٤]، فماذا كانت النتيجة؟ ﴿فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾[الشعراء:٤٥].

يبحث كثير من الناس عن العزة عند الكافرين وعند أعداء الدين، وهؤلاء لم يقدروا الله ﷻ حق قدره، ولم يعرفوه حق معرفته! وإلا لهان في نفوسهم هؤلاء الذين يوالونهم؛ فإنهم مهما بلغت قوتهم، وكثر أتباعهم؛ ليسوا بشيء بجانب عزة الله ﷻ وقوته وجبروته وقهره.

والله ﷻ أخبرهم أن العزة التي يبحثون عنها والمتعة لن يجدوها عند غيره، بل صار حالهم حال المنافقين؛ خالف ظاهرهم باطنهم، ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾[النساء:١٣٨-١٣٩].

ومنهم من اعتز بنفسه وعشيرته، جاء في «مسند الإمام أحمد» عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: انتسب رجلان على عهد رسول الله ﷺ؛ فقال أحدهما: أنا فلان ابن فلان بن فلان، فمن أنت؛ لا أم لك؟!

فقال رسول الله ﷺ: «انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ مُوسَى عليه السلام؛ فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ، حَتَّى عَدَّ تِسْعَةً، فَمَنْ أَنْتَ؛ لَا أُمَّ لَكَ؟! قَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ ابْنِ الْإِسْلَامِ».

قال: «فَأَوْحَى اللهُ إِلَى مُوْسَى عليه السلام: أَنَّ هَذَيْنِ الْمُنْتَسِبَيْنِ؛ أَمَّا أَنْتَ أَيُّهَا الْمُنْتَمِي أَوِ الْمُنْتَسِبُ إِلَى تِسْعَةٍ: فِي النَّارِ؛ فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ.

وَأَمَّا أَنْتَ يَا هَذَا! الْمُنْتَسِبَ إِلَى اثْنَيْنِ: فِي الجنَّةِ؛ فَأَنْتَ ثَالِثُهُمَا فِي الجَنَّةِ» [حديث صحيح].

وقد قيل: من اعتزّ بمنصبه فلينظر إلى فرعون ومن اعتز بماله فلينظر إلى قارون ومن اعتز بنسبه فلينظر إلى أبي لهب. إنما العِزة بالتقوى.

وصدق من قال: "نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله".

وأعظم سبب في ذل الأمة الإسلامية في هذا العصر هو: عدم اعتزازها بالله عز وجل حق الاعتزاز.

❐ يمنحك العزة..

لما أخذ الكافرون يهددون رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويلقون عليه فاحش القول، ويبدون قوتهم؛ أنزل الله آيةً مواسيًا لرسوله صلى الله عليه وسلم ومخبرًا عن ضعف البشرية جمعاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾﴾ [يونس:٦٥].

وكلما زاد الإيمان زادت العزة في قلب المؤمن، وزاد يقينه بالنصر والغلبة؛ فالله سبحانه وتعالى قد قال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران:١٢٦]، وقال سبحانه وتعالى:

﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾[الحج: ٤٠].

من حاز الإيمان حاز العزة، ومن حاز العزة فاز بحب الله؛ فقد قال ﷻ:

﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[المائدة: ٥٤].

يقول ابن كثير: "من كان يحب أن يكون عزيزًا في الدنيا والآخرة؛ فليلزم طاعة الله ﷻ؛ فإنه يحصل له مقصوده؛ لأن الله ﷻ مالك الدنيا والآخرة، وله العزة جميعًا، كما قال ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ۝١٣٩﴾[النساء:١٣٩]".

وقال إبراهيم الخواص رحمه الله: "على قدر إعزاز المؤمن لأمر الله يلبسه الله من عزه، ويقيم له العز في قلوب المؤمنين. فذلك قوله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٨﴾[المنافقون:٨]".

❑ مفاتيح العزة:

ولا تتحقق العزة إلا بالإتيان بأسبابها:

بالإيمان أولاً؛ قال الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٨﴾[المنافقون:٨].

وبالتواضع للمؤمنين؛ قال الله ﷻ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى

ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[المائدة: ٥٤].

وبالعفو؛ قال النبي ﷺ: «مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا»[أخرجه مسلم].

وبالتقرب إلى الله بهذا الاسم في الدعاء، فهذا إبراهيم عليه السلام كان من دعائه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٥﴾ [الممتحنة: ٥]، ودعت به الملائكة من حملة العرش للمؤمنين: ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨﴾[غافر:٨].

وكان النبي ﷺ إذا فزع من نومه ليلاً كان يقول: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ، رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا العَزِيزُ الغَفَّارُ»[حديث صحيح. رواه ابن حبان].

وهذا النبي ﷺ يعلم رجلاً جاءه يشكو وجعًا بأن يتعبد بعزة الله؛ فقال له الحبيب ﷺ: «اجْعَلْ يَدَكَ اليُمْنَى عَلَيْهِ، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: بِاسْمِ اللهِ، أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ»[رواه مسلم].

❐ تأمل!

اقترن اسمه تبارك وتعالى العزيز بأسمائه: (القوي والحكيم والعليم والحميد والغفور والوهاب والمقتدر).

وهذا -والله!- من كمال رحمته بنا، وإفاضة الخير والإحسان علينا.

وهذا دليل على: كمال أسماء ربنا وصفاته العلا، وأنها يتضمن بعضها بعضًا؛ فإنه ﷻ مع كمال عزته وقوته، ومنعته، وشدة بطشه؛ فهو كامل في حكمته وعلمه، رحيم بعباده عطوف عليهم، محمود في أموره، وحميد في أقواله وأفعاله وأحكامه.

فعزته: حكمة، ورحمة، وعدل، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦﴾ [آل عمران: ٦].

ولما كانت عزته: عزة كمالٍ وجلالٍ؛ استحق الله أن يحمد عليها على الدوام، قال ﷻ: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [إبراهيم:١].

يَا مَالِكًا هُوَ بِالنَّوَاصِي آخِذٌ ... وَقَضَاؤُهُ فِي كُلِّ شَيْءٍ نَافِذُ
أَنَا عَائِذٌ بِكَ يَا كَرِيمُ وَلَمْ يَخِبْ ... عَبْدٌ بِعِزِّكَ مُسْتَجِيرٌ عَائِذُ

﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

اللهم يا عزيز! أعزنا بطاعتك، ولا تذلنا بمعصيتك.

(١٩)

الْجَبَّارُ جل جلاله

إذا أدبر الزمان، وجفاك الإخوان، وحل الظلام، وتغيرت الأيام، وتضاعفت الأسقام، واشتد الخطب، وعظم الكرب؛ فناد: يا الله.. يا جابر قلوب المنكسرين! اجبر كسري وارحم ضعفي؛ فالله يسمعك.

قال الله ﷻ عن نفسه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر:٢٣].

والجبار سبحانه وتعالى هو: الذي يجبر قلب الكسير، ويغني الفقير، وييسر كل عسير؛ وهو يجبر قلوب الخاضعين لعظمته وجلاله جبراً خاصًّا.

والجبار سبحانه وتعالى هو: القهار لكل شيء؛ الذي دان له كل شيء، وخضع له كل شيء.

والجبار سبحانه وتعالى هو: العلي على كل شيء فوق خلقه، مستو على عرشه.

فربُّنا له الجبروت وحده، فهو قاهر الجبابرة بجبروته، وهو الذي

علاهم بعظمته.

وقد مدح الله ﷻ نفسه بهذا الاسم؛ فقال ﷻ: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ﴾[الحشر:٢٣].

وكان النبي ﷺ يدعو في سجوده وركوعه: «سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوْتِ وَالمَلَكُوتِ وَالكِبْرِيَاءِ وَالعَظَمَةِ»[حديث صحيح. رواه أبو داود].

❑ لا تنازعه!

والجبار: صفة مدح وكمال في حق الله؛ وأما عند اتصاف البشر بها فهي غالبًا: صفة ذم ونقص وعيب، أما ترى أن الذي يدعي من البشر بأنه جبار؛ تؤذيه البقة، وتأكله الدودة، وتشوشه الذبابة، وهو أسير جوعه، وصريع شبعه؟!

لذلك؛ أنكرت الرسل على أقوامها صفة (التجبر والتكبر) في الأرض بغير الحق، والله قد قال: ﴿وَإِذَا بَطَشۡتُم بَطَشۡتُمۡ جَبَّارِينَ ١٣٠﴾[الشعراء:١٣٠].

ومن تجبر طبع الله ﷻ على قلبه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾[غافر: ٣٥]، وتوعد الله ﷻ الجبابرة بالعذاب: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦﴾[إبراهيم: ١٥-١٦].

وجاء في الحديث: أن النبي ﷺ قال: «تَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ؛

لَهَا عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ، وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ، يَقُولُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلَاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنْ دَعَا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وَبِالمُصَوِّرِينَ»[حديث صحيح. رواه الترمذي].

وصح عنه ﷺ أنه قال: «تَحَاجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: أُوثِرْتُ بِالمُتَكَبِّرِينَ، وَالمُتَجَبِّرِينَ..»[أخرجه مسلم].

فأين المتكبرون؟..

أين المتجبرون؟

أَيْنَ المُلُوكُ وَأَبْنَاءُ المُلُوكِ وَمَنْ
كَانَتْ تَخِرُّ لَهُ الأَذْقَانُ إِذْعَانَا
صَاحَتْ بِهِمْ حَادِثَاتُ الدَّهْرِ فَانْقَلَبُوْا
مُسْتَبْدِلِينَ مِنَ الأَوْطَانِ أَوْطَانَا

❑ اقرع باب السماء!

وكان من دعاء نبينا ﷺ: «اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاجْبُرْنِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي»[حديث صحيح. رواه الترمذي].

انكسارات الحياة عديدة، وكل يوم نتكسر بهموم هذه الحياة؛ فنحتاج إلى الله ﷻ في كل ساعة؛ حتى يجبر كسرنا، ويقوي ضعفنا.

شَبَابٌ وَشَيبٌ وَافْتِقَارٌ وَثَرْوَةٌ
فَلِلَّهِ هَذَا الدَّهْرُ كَيْفَ تَرَدَّدَا؟!

ينكسر المريض على فراشه، يصارع المرض؛ فينادي يا الله! فإذا الجبار يجبر كسره، وينزل الشفاء من عنده.

ينكسر الفقير فلا يملك قطميراً، ويتنهد من البؤس، ويبكي من الفاقة، وينظر في السماء ويقول: يا الله! فإذا الجبار يجبر كسره، ويرفع حاجته، ويكشف ضائقته.

ينكسر المظلوم، ويخفي أنينه، ويمسح دمعته، وينطرح عند باب الله ويقول: يا الله! فإذا بالجبار ينتقم له، ويرسل جنده، وينزل نصره.

ينكسر السجين في زنزانته؛ وقد كبل بالحديد، وغل بالقيود؛ فينادي: يا الله! فإذا بالجبار يجبر كسره، ويفتح الأبواب له، وإذا القيود تحل، والفرج يحصل.

ينكسر العقيم، ويلفه الحزن، ويضعف الأمل؛ فيأخذ سجادته، ويطيل بكاءه، وينادي: رب هب لي من لدنك ذريةً طيبةً! فإذا بالجبار يجبر كسره، ويرسل أمره وعونه ومدده؛ فإذا المستبعد موجود، وإذا الابتسامة تحصل، والحمل قد حل.

إنه الجبار ﷻ؛ يحل العقد، ويجبر القلوب والعظام والنفوس، ويكفكف الدموع، ويرفع البلاء، ويكشف الضراء، ويرسل السراء..

يناديه الجميع: اجبر كسرنا، وارحم ضعفنا! ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمن:٢٩].

وَإِذَا العِنَايَةُ لاحَظَتْكَ عُيُونُهَا
نَمْ فَالحوَادِثُ كُلُّهُنَّ أَمَانُ

وكل كسرٍ ألجأك إلى الله فهو جبرٌ وإن أوجعك.

يقول الله ﷻ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾[الحجر: ٢١]، فبيده مفاتيح الفرج ﷻ، فإذا أوقفتك الآلام والهموم؛ فاتجه إلى الملك العلام، جابر القلوب وجابر الكسور، وناد: يا جابر المنكسرين! اجبر كسري، وارحم ضعفي، وفرج همي، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[النمل:٦٢] .

وَلَرُبَّ نَازِلَةٍ يَضِيقُ بِهَا الفَتَى
ذَرْعًا وَعِنْدَ اللهِ مِنْهَا المَخْرَجُ
ضَاقَتْ فَلَمَّا اسْتَحْكَمَتْ حَلَقَاتُهَا
فُرِجَتْ وَكَانَ يَظُنُّهَا لا تُفْرَجُ

❐ كن بلسمًا!

وتذكر: أن الكروب كسور الدنيا، فإذا رأيت إنسانًا في كربة؛ فكن أنت من يستخدمك الله لجبر كسره؛ فإن المكافأة العظمى يوم يبحث الناس جميعًا عمن يجبر كسورهم يوم القيامة.

صح عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً؛ فَرَّجَ اللهُ عَنْهُ بِهَا

كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[أخرجه مسلم]، ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[القصص: ٧٧]، ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤﴾[آل عمران:١٣٤].

كُنْ بَلْسَمًا إِنْ صَارَ دَهْرُك أَرْقَمًا

وَحلاوَةً إِنْ صَارَ غَيْرُك عَلْقَمًا

اللهم! يا جابر قلوب المنكسرين اجبر كسرنا، وارحم ضعفنا، وتجاوز عنا؛ برحمتك يا أرحم الراحمين!

(٢٠)

ٱلۡمُتَكَبِّرُ جل جلاله

الكبرياء لله وحده ﷻ، قال الله مادحًا نفسه: ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٧﴾[الجاثية:٣٧]، وقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣﴾[الحشر:٢٣].

فربُّنا ﷻ تكبر عن كل سوء، وَتَكَبَّرَ عن السيئات، وَتَكَبَّرَ عن ظلم العباد.

وربُّنا سبحانه وتعالى هو الذي يتكبر على عتاة خلقه إذا نازعوه العظمة.

فهو جل وعلا المُتَكَبِّرُ عن كل سوء، المتعظم عما لا يليق به من صفات الحدث والذم.

وأصل الكبرياء: الامتناع، وربنا ﷻ ممتنع عن النقص والسوء والعيب.

❑ عبودية الانكسار..

والتاء في اسمه (المتكبر) ليست تاء التعاطي والتكلف؛ كما يقال:

فلان يتعظم وليس بعظيم، وإنما هي: تاء التفرد والاختصاص.

والتكبر لا يليق إلا به ﷻ؛ لأنه وحده الملك وما سواه مملوك، وهو وحده الرب وما سواه مربوب، وهو الخالق وحده وما سواه مخلوق، وهو وحده المتفرد بصفات الكمال والجمال والعظمة والجلال.

لذا؛ استأثر الله ﷻ بهذه الصفة لنفسه، وتوعد من اتصف بها بالعقاب الشديد.

صح عنه ﷺ أنه قال: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا؛ قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»[حديث صحيح. رواه أبو داود].

قال الخطابي: "وضرب الرداء والإزار مثلاً في ذلك: يقول –والله أعلم–: كما لا يشرك الإنسان في ردائه وإزاره أحد، فكذلك لا يشركني في الكبرياء والعظمة مخلوق، والله أعلم".

ومقام المخلوق: مقام عبودية وخضوع، وذل وانكسار للكبير المتعال، ذي الجلال والإكرام. ولعل في هذا سرًّا من أسرار ذكر الله بالتكبير عند الركوع والسجود، وذكر كبريائه وعظمته حال الركوع والسجود.

فقد كان النبي ﷺ يقول في ركوعه وسجوده: «سُبْحَانَ ذِي الجَبَرُوتِ وَالمَلَكُوتِ وَالكِبْرِيَاءِ وَالعَظَمَةِ»[حديث صحيح. رواه أبو داود].

ونزه الله ﷻ أنبياءه وعباده الصالحين عن الكبر، وكانوا يستعيذون من الكبر والتكبر: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا

يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾[غافر:٢٧].

تأمل العواقب!

ومن اتصف بها فسدت نفسه، وزال عنها صلاحها، وطبع على قلبه بالران، ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴿٣٥﴾﴾[غافر: ٣٥]، وقال ﷻ: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾[غافر:٥٦].

وإمام المتكبرين إبليس؛ ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾[ص: ٧٤]، وهي صفات الملوك الطغاة؛ كفرعون ومن على شاكلته من الطغاة: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾﴾[القصص:٣٩].

ومن زاد ماله وكثر عياله، وبارز الله بهما؛ فقد تسلل الكبر إلى قلبه، فمنعه من قبول الحق؛ كالوليد بن المغيرة: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾﴾[المدثر: ٢٣].

والكبر: سبب هلاك الأمم المكذبة بالحق؛ ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾[فصلت:١٥].

وقال ﷻ عن قوم صالح عليه السلام: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾[الأعراف:٧٦].

ومآل المتكبرين: جهنم، وبئس المصير: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى

لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ [الزمر:٦٠].

وجاء عند الترمذي: أن النبي ﷺ قال: «يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، يُسَاقُونَ إِلَى سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ، يُقَالُ لَهُ: بُولَسُ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ: طِينَةِ الخَبَالِ» [حديث صحيح] –أعاذنا الله منها–.

❑ الدواء:

ومن اعتراه الكبر فلينظر في باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلى ظاهره نظر البهائم!

وليتذكر أصل وجوده، ومن أين خرج؟ ونهايته في هذه الدنيا.. جيفة منتنة!

حكي: "أن مطرف بن عبد الله بن الشخير نظر إلى المهلب بن أبي صفرة وعليه حلة يسحبها، ويمشي الخيلاء؛ فقال: يا أبا عبد الله! ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله؟

فقال المهلب: أما تعرفني؟

فقال: بل أعرفك، أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وحشوك فيما بين ذلك بول وعذرة".

لَوْ فَكَّرَ النَّاسُ فِيمَا فِي بُطُونِهِمُ
مَا اسْتَشْعَرَ الكِبْرَ شُبَّانٌ وَلاَ شِيبُ

قال المناوي ﵀: "فينبغي للإنسان أن لا يحتقر أحدًا؛ فربما كان المحتقَر أطهرُ قلبًا، وأزكى عملاً، وأخلص نية، فإنَّ احتقار عباد الله يورث الخسران، ويورث الذُّل والهوان".

قال ابن تيمية: "العاصي الخائف خير من العابد المتكبر".

وعلى العاقل بالتواضع ومجالسة العلماء وضعاف الناس، وعيادة المرضى، ومشاهدة المحتضرين وأهل البلاء، والنظر في سير المتكبرين وأخبارهم؛ كيف كانوا؟ وإلى أي شيء صاروا؟

كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بِأَخْبَارِ مَنْ مَضَى
وَلَمْ تَرَ فِي البَاقِينَ مَا يَصْنَعُ الدَّهْرُ
فَإِنْ كُنْتَ لا تَدْرِي فَتِلْكَ دِيَارُهُمْ
مَحَاهَا مَجَالُ الرِّيحِ بَعْدَكَ وَالقَبْرُ

اللهم! إنا نسألك باسمك المتكبر: أن ترحم ضعفنا، وتستر عيبنا، وتغفر ذنبنا، ولا تجعلنا من المتكبرين؛ يا رب العالمين!

(٢١، ٢٢)
الخالق الخلاق جل جلاله

تِلْكَ الطَّبِيعَةُ قِفْ بِنَا يَا سَارِي حَتَّى أُرِيكَ بَدِيعَ صُنْعِ البَارِي
الأَرْضُ حَوْلَكَ وَالسَّمَاءُ اهْتَزَّتَا لِرَوَائِعِ الآيَاتِ وَالآثَارِ
سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الوُجُودَ مُصَوِّرًا تِلْكَ الدُّمَى وَمُقَدِّرِ الأَقْدَارِ

من الذي خلق السماوات والأرض؟ من الذي خلق الحب والنوى؟ من الذي فلق الإصباح، وجعل الليل سكنًا، والشمس والقمر حسبانًا؟ من الذي بدأ خلق الإنسان من طين؟ من الذي أنشأ الخليقة من نفس واحدة؟ من الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى؟

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾[لقمان:١١].

سبحان من بهرت عظمته عقول العارفين!

سبحان من ظهرت بدائعه لنواظر المتأملين!

سبحان من بهرت أنواره بصائر السالكين!

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ١٤﴾[المؤمنون:١٤].

نقف مع اسمين من أسماء الله عز وجل وهما: (الخالق والخلاق جل جلاله):

قال ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨٦﴾[الحِجر:٨٦]، وقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾[الحشر:٢٤].

وربنا الذي أوجد الأشيا جميعها بعد أن لم تكن موجودة، وقد أبدعها على غير مثال سابق، وأفعال الله ﷻ مُقَدَّرة على مقدار ما قدرها عليه.

❑ عظمة الخالق..

كل ما في الكون خلقه، وهو ناطق معترف بألوهيته وربوبيته، وكل ما تراه حولك -وما لا تراه- دليل على الله؛ فهو الذي خلق جميع الموجودات وبرأها وسواها بحكمته، وصورها بحكمته، وهو لم يزل ولا يزال على هذا الوصف العظيم.

كسا العظام لحمًا، واللحم جلدًا، وألبس البهائم صوفًا ووبرًا، ونفخ الروح في الجنين وهو في بطن أمه، ثم أخرجه ورزقه وحفظه وعلمه، وخلق الإنسان في أحسن تقويم، وجعل له عينين ولسانًا وشفتين، وهداه النجدين، ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨﴾[الانفطار:٧-٨]، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾[المؤمنون:١٤].

وَكَذلِكَ يَشْهَدُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ   الخَلاَّقُ بَاعِثُ هَذِهِ الأَبْدَانِ

ربُّنا ﷻ خلق الخلق ليعرفوه ويعبدوه: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾[الذاريات:٥٦].

❑ تناغم الكون:

وجميع المخلوقات لم تخلق لهوًا أو عبثًا أو لعبًا –تنزه الله وتقدس عن ذلك!–، قال ﷻ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾[الأنبياء: ١٦-١٨].

فالموجودات بأسرها شواهد صفات الرب ونعوته ﷻ، فهي كلها تشير إلى الأسماء الحسنى وحقائقها، وتناديها، وتدل عليها.

تَأَمَّلْ سُطُورَ الكَائِنَاتِ فَإِنَّهَا ... مِنَ المَلِكِ الأَعْلَى إِلَيْكَ رَسَائِلُ
وَقَدْ خُطَّ فِيهَا لَوْ تَأَمَّلْتَ خَطَّهَا ... أَلا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلا اللهَ بَاطِلُ
تُشِيرُ بِإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ لِرَبِّهَا ... فَصَامِتُهَا يَهْدِي وَمَنْ هُوَ قَائِلُ

قال ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[القمر:٤٩].

يقول الأطباء: "إن فتحة الحنجرة قد قدرت تقديرًا دقيقًا جدًّا؛ حيث لو اتسعت قليلاً جدًّا أكثر مما هي عليه لاختفى صوت الإنسان، ولو ضاقت قليلاً جدًّا أكثر مما هي عليه لأصبح التنفس عسيرًا"، فإما أن يكون التنفس مريحًا ويختفي الصوت، أو أن يكون الصوت واضحًا ويصعب التنفس.

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾[النمل: ٨٨].

لو أن الرؤية زادت عن حدها الذي هي عليه لأصبحت حياتنا جحيمًا!

إنك إذا نظرت إلى كأس الماء الذي تشربه الآن تراه صافيًا عذبًا فراتًا رائقًا، لو أن قوة البصر زادت قليلاً ودقت أكثر مما هي عليه لرأيت في هذا الكأس العجب العجاب! لرأيت الكائنات الحية، والجراثيم غير الضارة بعدد لا يحصى! إنك لن تشرب الماء عندها، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾[القمر: ٤٩].

ولو أن قوة السمع ارتفع مستواها قليلاً لما أمكنك أن تنام الليل؛ لأن الأصوات كلها تتلقفها، بل إن أصوات جهاز الهضم في معدتك وحده تكاد تكون كالمعمل الكبير، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر:٤٩].

ولو أن حاسة اللمس زادت لشعرت بالكهرباء الساكنة التي تحول حياتك جحيمًا لا يطاق، ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات:٢١].

﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾[لقمان:١١].

وتعجب من بعض ذوي الفطر المنكوسة، والأنفس المريضة! يجادلون في الله مع أنه مغروس في ضمائرهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[النمل:

١٤].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾[لقمان:٢٥].

اطمئن!

والمؤمن يعلم أنه عزيز بالخالق؛ فتطمئن نفسه، ويعلم أن الذي خلقه لن يهمله، وأن اللّٰه حافظه، وأنه على خير في ضرائه وسرائه، وفي غناه وفقره، وفي شدته ورخائه، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾[يونس:٦٢].

اللهم! إنا نسألك باسمك الخالق أن تجعلنا من أوليائك.

(٢٣)

البَارِئُ جل جلاله

صح عنه ﷺ أنه قال: «قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ عليهما السلام: لأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى مِائَةِ امْرَأَةٍ، أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ؛ كُلُّهُنَّ يَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللهُ، فَلَمْ يَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلاَّ امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ؛ جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ.

وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللهُ؛ لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فُرْسَانًا أَجْمَعُونَ» [متفق عليه].

ليس للعبد وصول إلى حاجته إلا من باب الله ﷻ؛ فالله هو: ﴿ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤﴾ [الحشر:٢٤].

فاللهم لك الحمد! أنعمت علينا بنعمة الإيجاد بعد أن لم نكن شيئًا مذكورًا: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾ [الإنسان:١].

وامتدح الله ﷻ ذاتَه العليَّة باسمه: (البارئ ﷻ) بقوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾[الحشر:٢٤].

والبرء في اللغة: له معنيان؛ الأول: الخلق.

والثاني: التباعد عن الشي وخلوصه منه.

وبرئ: إذا تنزَّه وتباعد.

فربُّنا البارئ: الموجد والمبدع من العدم إلى الوجود، وهو الذي فضل بعض الخلق على بعض، وميز كل جنس عن الآخر، وصور كل مخلوق بما يناسب الغاية من خلقه؛ فهو يخلق الشيء من لا شيء، ويبرؤه بالخاصية التي تُمَيِّزُهُ عن بقية الخلق.

وهو ﷻ خلق الخلق بريئًا من التفاوت والتنافر؛ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾[الملك: ٣].

وربُّنا البارئ المنزَّه عن كل النقائص والعيوب في ذاته وصفاته وأفعاله.

وَفِي اسْمِهِ البَارِي يُرَى كُلُّ خَلْقِهِ
وَأَلْطَافُهُ تَتَرَى دَوْمًا وَتَنْزِلُ
فَسُبْحَانَ مَنْ كُلُّ الوَرَى سَجَدُوْا لَهُ
إِذَا سَبَّحُوْا أَوْ كَبَّرُوْا أَوْ هَلَّلُوْا

قال ربنا ﷻ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾[الحشر:٢٤].

والخلق: التقدير.

والبرء: الإيجاد من العدم.

والتصوير: هو إعطاء الصورة.

فالله ﷻ إذا أراد خلق شيءٍ قدره بعلمه وحكمته ثم برأه -أي: أوجده-؛ وفق ما قدره في الصورة التي شاءها وأردها ﷻ.

❐ ليست صدفة..

قيل لأحد الحكماء: بم عرفت الله؟ قال: بخطوط أقلام القدرة على أوراق الكائنات؛ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾[السجدة:٧]، ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[الدخان:٣٩].

تَأَمَّلْ فِي نَبَاتِ الأَرْضِ وَانْظُرْ ... إِلَى آثَارِ مَا خَلَقَ المَلِيكُ
عُيُوْنٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ... بِأَحْدَاقٍ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ
عَلَى كُثُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ ... بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[يونس:١٠١]، هل هناك إلا صنعه وبديع خلقه، وعجيب قدرته، وآثار حكمته؟! فمن أحق بالألوهية؟ أليس الذي يخلق أولى أن يعبد، وأن يحمد، وأن يوحد؟!

وأكثر الناس تعلم أنها خلق الله؛ ولكن أكثرهم يشركون؛ ﴿وَمَا

﴿يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف:١٠٦]، فاقتسم الناس إلى صنفين:

المؤمنون: وهم خير البرية.

والمشركون: وهم شر البرية.

والعبد ينظر إلى فعله؛ فإن كان خيرًا فليحمد الله؛ حيث خلقه أهلاً للخير، ولو ترك نفسه لهواها ولم يقمعها بتقوى الله؛ لكان من شر البرية.

ومن هنا أمر موسى عليه السلام قومه بالتوبة إلى الله البارئ؛ حين انحرفوا عن الإيمان بالله، فصنعوا لهم صنمًا من حليهم على شكل عجل: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٤﴾ [البقرة:٥٤].

والمؤمن كلما علم اسمًا من أسماء الله الحسنى وتعلمه؛ ازداد شرفًا ورفعةً، وازداد شوقًا ومحبةً لله عز وجل، وتقرب إلى الله بمعرفة هذا الاسم.

وعلم أن الله عز وجل على كل شيء قدير.

اللهم يا بارئ! الطف بنا، وأنزل علينا رحماتك.

(٢٤)

ٱلْمُصَوِّرُ جَلَّ جَلَالُهُ

قال ابن القيم رحمه الله: "وإذا تأملت ما دعى الله سبحانه وتعالى في كتابه عباده إلى الفكر فيه؛ أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله".

كَمْ فِي كِتَابِ الكَوْنِ مِنْ عِبَرٍ لأُوْلِي النُّهَى وَالبَحْثِ وَالنَّظَرِ
فِي الأَرْضِ فِي الآفَاقِ قَاطِبَةً فِي النَّفْسِ فِي الأَصْوَاتِ فِي الصُّوَرِ

نقف مع اسم الله (المصور سبحانه وتعالى):

قال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾[الحشر:٢٤].

فربُّنا سبحانه وتعالى الذي صوَّر خلقه كيف شاء، وصور جميع الموجودات؛ ورتبها فأعطى كل شيء منها صورةً خاصةً، وهيئةً مفردةً يتميز بها على اختلافها وكثرتها، وقد صور سبحانه وتعالى كل صورة على الصفة التي يريد، والصورة التي يختار، وهو ينفذ ما يريد على الصفة التي يريدها: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾[الانفطار:٨].

فربُّنا سبحانه وتعالى هو الذي هيأ خلقه وعدلهم إلى الأشكال والهيئات التي توافق تقديره وعلمه ورحمته، والتي تتناسب مع مصالح الخلق ومنافعهم؛ فأتت على صور مختلفة، وهيئات متباينة؛ من الطول والقصر، والحسن والقبح، والذكورة والأنوثة، كل واحد بصورته الخاصة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾[الأعراف:١١]، وقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ③﴾[التغابن:٣].

يَـا عَـالِمَ الغَيْـبِ مِنَّـا وَالـشَّهَادَةِ يَـا
رَبَّ البَرِيَّـــةِ تَرْكِيبًـــا وتَـــصْوِيرًا
شَـهِدتُّ أَنَّـكَ فَـرْدٌ وَاحِـدٌ أَحَـدٌ
شَـــهَادَةً لَـــمْ تَكُـــنْ مَيْنًـــا وَلاَ زُورًا
وَجَّهْتُ وَجْهِي فِي سِرِّي وَفِي عَلَنِي
إِلَيْــكَ حَمْــدًا وَتَهْلِــيْلاً وَتَكْــبِيرًا

وقال سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾[الحشر:٢٤]، فالأسماء الثلاثة: (الخالق، والبارئ، والمصور) إذا اجتمعت دل كل واحد منها على معنًى؛ فالخلق هنا: التقدير، والبرء هنا: الاختراع، والتصوير هنا: إعطاء كل شيء صورته، وعند افتراقها فالمعنى واحد.

فربُّنا سبحانه وتعالى أراد وقدَّر ثم برأ، أي: خلق وأوجد، ثم خص كل مخلوق

بالصورة والهيئة المناسبة: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون: ٩١].

كان النبي ﷺ يقول في سجوده: «اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ، وَصَوَّرَهُ، وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ» [أخرجه مسلم].

أكمل الدلالات:

خلقُ الإنسان: آية للمتوسمين، وعبرة للمعتبرين، وعظة للمتعظين؛ ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١].

وفي نفس الإنسان وخلقه: أعظم الدلائل على خالقه وفاطره.

وأقرب شيء إلى الإنسان: نفسه، وفيه من العجائب الدالة على عظمة الله ﷻ ما تنقضي الأعمار في الوقوف على بعضه، ولكن الإنسان معرض عن ذلك، ولو تأمل قليلاً لانزجر عن كفره وجحوده، ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾ [عبس: ١٧-٢٢].

يعيش فوق الأرض ما يزيد على سبعة مليارات نسمة، كل واحد منهم تغاير صورته صورة غيره في الملامح والسمات والألوان والهيئات.. والأب واحد والأم واحدة: آدم وحواء، ولكنه صنع الله تبارك وتعالى؛ ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨]، ألا يستوجب ذلك: الشكر؟! والعبد يرى

نعم الله سبحانه وتعالى عليه منذ كان نطفةً في بطن أمه، ثم صور سمعه وبصره ونفخ فيه من الروح، ثم غذاه وسقاه وكساه وآواه وكفاه، ومن كل ما سأل أعطاه؛ ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد:٨-١٠].

ومن أعظم الشكر: استخدام نعم الله عز وجل في طاعته، وإبعادها عن معصيته وما يغضبه.

وأخيراً..

العاقل لا يسخر من صور الناس ولا من أشكالهم؛ لأنه يعلم بأن الله هو الذي خلقهم، ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾[آل عمران:٦].

فالله هو: الخالق البارئ المصور؛ فليس لصاحب الشكل الذميم ذنبٌ فيُعَيَر ويُلام، وليس لصاحب الشكل الجميل فضلٌ أو يدٌ فيُشكَر ويُزَان.

قال رجل لحكيم: "يا قبيحَ الوجه! فقال: ما كان خَلْقُ وجهي إليَّ فأحسنه، فمن ذمَّ صنعةً فقد ذم صانعها"، وفي الحديث: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كُلُّ خَلْقِ اللهِ عز وجل حَسَنٌ»[«السلسلة الصحيحة» للألباني].

فإذا رأيت مبتلىً؛ فاحمدِ الله أن يعافيه، وكما قيل: "لا تسخر من أخيك، فيعافيه الله ويبتليك".

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فيقول: "البلاء موكَّل بالقول، لو

سخرتُ من كلبٍ لخشيت أن أكون كلبًا".

وعن إبراهيم النخعي رحمه الله أنه قال: "إني لأرى الشيءَ مما يُعاب، ما يمنعني أن أتكلم فيه إلا مخافة أن أُبتلى بمثله".

اللهم يا خالق يا بارئ يا مصور! نسألك: أن تجعلنا من خيرة خلقك، وترحمنا يوم العرض عليك.

(٢٥)

العَفُوُّ جل جلاله

لما سمع المذنبون: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ٩٩﴾[النساء:٩٩]؛ رفعوا أكف الضراعة، ونثروا شكواهم بين يديه، وأناخوا مطاياهم ببابه، ولاذوا بجنابه، وكثر استغفارهم، ونادوا: يا عفو.. يا غفور! ليس لنا سواك.

فنظر الكريم العفو إلى حالهم، واطَّلع على سرائرهم؛ فحط عنهم الخطايا، ومحا عنهم السيئات، ورفع لهم الدرجات.

فسبحان العفو! وسبحان من اختارهم لعفوه، واصطفاهم لمغفرته!

فإذا نزلت بك النوازل، وألمت بك الخطوب، أو أثقلتك الذنوب؛ فاهتف باسمه، واطلب عفوه.

يَا رَبِّ إِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً ... فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إِنْ كَانَ لا يَرْجُوكَ إِلاَّ مُحْسِنٌ ... فَبِمَنْ يَلُوذُ وَيَسْتَجِيرُ المُجرِمُ
أَدْعُوكَ رَبِّ كَمَا أَمَرتَ تَضَرُّعًا ... فَإِذَا رَدَدْتَ يَدِي فَمَنْ ذَا يَرْحَمُ

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٦٠﴾[الحج:٦٠].

ربُّنا ﷻ كثير الصفح عن ذنوب عباده؛ إلى ما لا نهاية له، فهو ﷻ يتجاوز عن الذنوب، ويزيل آثارها عنهم بالكلية؛ فلا يطالب بها العباد يوم القيامة، ويمحوها من ديوان الكرام الكاتبين، بل وينسيها من قلوبهم كي لا يخجلوا عند تذكرها، ويثبت مكان كل سيئة حسنةً.

وربُّنا ﷻ هو الذي كان -ولا يزال- بالعفو معروفًا، وبالغفران والصفح عن عباده موصوفًا، كل أحد مضطر إلى عفوه ورحمته وكرمه، وقد وعد بالمغفرة والعفو من أتى بأسبابهما.

وهو ﷻ يقبل العفو، وهو: السهل، وذلك بتيسير الواجبات على عباده، لما يقع من العبد من تقصير وضعف، فالله أوجب الوضوء لمن أراد الصلاة إذا انتقض وضوؤه، ولكنه عفا عمن لا يجد الماء بأن يتيمم؛ مراعاةً لضعف عباده.

قيل: العفو أبلغ من المغفرة؛ لأن الغفران يشعر بالستر، والعفو يشعر بالمحو، والمحو أبلغ من الستر.

❑ **وعفوه نوعان:**

عفوه العامُّ: ويكون عن جميع المجرمين من الكفار وغيرهم؛ بدفع العقوبات المنعقدة بأسبابها، والمقتضية لقطع النعم عنهم، فهم يؤذونه بالسب والشرك، وهو يعافيهم ويرزقهم، ويبسط لهم الدنيا، ويمهلهم ولا

يهملهم بعفوه وحلمه، فخير الله إلى العباد نازل، وشرهم إليه صاعد، الله غني عن عبادة العباد، وهو يتودد إليهم بنعمه، وهم يتبغضون إليه بالمعاصي وهم الفقراء إليه.

وعفوه الخاصُّ، وهو: مغفرته للتائبين والمستغفرين والداعين والعابدين والمصابين بالمصائب، المحتسبين من المؤمنين.

إنه العفو..

ومن جلال عفوه تبارك وتعالى: أنه من عفا الله عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعود في عفوه يوم القيامة، فهو كريم لا يرجع في عفوه، فهذه سنة الله جل وعلا مع أوليائه.

ومن جلاله تبارك وتعالى: أنه كما يعفو في الدنيا عن المذنبين التائبين؛ فإنه عز وجل في الآخرة يعفو عن الموحدين المصرين.

ومن جلاله عز وجل: أنه يعفو عن ذنب عبده مهما كان جرمه؛ حتى عن حقه سبحانه وتعالى، ويبدل سيئاته حسنات، فمن الذي يكافئ الذنب بمثل هذا غير الرب سبحانه وتعالى؟ وإنه لولا جلال عفوه لغارت الأرض بأهلها؛ لكثرة ما يرتكب من المعاصي على ظهرها.

ومن جلال عفوه عز وجل: أنه دل عباده على الأسباب التي ينال بها عفوه الكريم؛ من الأعمال والأخلاق والأقوال والأفعال، فإن العبد إذا أكثر من الأعمال الصالحة غلبت على كثير من ذنوبه وخطاياه.

عد إليه!

العفوُّ ﷻ يناديك من فوق سبع سماوات بقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، فما الذي يبطئك عن كرمه؟! وما الذي يجعلك تتأخر عن الانضمام لركب الأوابين والتوابين؟

إذا طرق الناس أبواب ملوك الدنيا، ووقفوا أذلاء بساحتهم؛ فقف أنت متذللاً بساحة ملك الملوك الإله الأكرم العفو؛ الذي بيده مفاتيح الفرج، وبيده السعادة، بيده العفو والمغفرة.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التوبة:١٠٤]، قال بلال ابن سعد : "إن لكم رباًّ ليس إلى عقاب أحدكم بسريع، يقيل العثرة، ويقبل التوبة، ويقبل على المقبل، ويعطف على المدبر".

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ! إِنَّكَ عفوٌّ تُحِبُّ العفْوَ؛ فَاعْفُ عَنِّي»

[حديث صحيح. رواه ابن ماجه].

قال ابن القيم رحمه الله : " فإن عفا عنك؛ أتتك حوائجك من دون مسألة".

وقال سفيان الثوري رحمه الله: "ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبي وأمي؛ لأني أعلم أن الله ﷻ أرحم بي منهما".

وَلَمَّا قَسَا قلْبِي وَضَاقتْ مَذَاهِبِي ... جَعَلْتُ رَجَائِي نَحْوَ عَفْوِكَ سُلَّمَا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ ... بِعَفْوِكِ رَبِّي صَارَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا
وَمَا زِلْتَ ذَا عَفْوٍ عَنِ الذَّنْبِ لَمْ تَزَلْ ... تَجُودُ وَتَعْفُو مِنَّةً وَتَكَرُّمَا

مفتاح العفو:

قال العلماء: إن أحب الخلق إلى الله سبحانه وتعالى: من اتصف بمقتضيات أسمائه وصفاته، فهو تبارك وتعالى رحيم يحب الرحماء، عفو يحب العافين عن الناس، فالله سبحانه وتعالى يكون لعبده على حسب ما يكون العبد لخلقه، فالله قال جل جلاله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران:١٥٩].

وحبل العفو مع المقدرة من أقرب منازل التقوى؛ بل من كرمه وجوده: أنه يقابل عفو العباد بعفو أكبر، قال جل جلاله: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾[النساء:١٤٩].

وفي حادثة أبي بكر الصديق رضي الله عنه عندما حلف ألا ينفق على مسطح (أحد أقاربه) بعد أن قذف عرض زوج النبي صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها، في حادثة الإفك المعروفة، قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[النور:٢٢].

فمن عفا رجاء ما عند الله؛ أعطاه الله سبحانه وتعالى فوق ما يأمله في الدنيا والآخرة.

وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «مَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا»[أخرجه مسلم].

قال النووي رحمه الله: "من عُرف بالعفو والصفح ساد وعظُم في القلوب، وزاد عِزَّه وإكرامه".

خطب الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان خطبةً بليغةً، ثم قطعها، وبكى بكاءً شديداً، ثم قال: "يا رب! إن ذنوبي عظيمة، وإن قليل عفوك أعظم منها، فامح بقليل عفوك عظيم ذنوبي.

فبلغ ذلك الحسن البصري؛ فبكى، وقال: لو كان كلام يكتب بالذهب لكتب هذا الكلام!".

ودعا أعرابي: "اللهم! إنك أمرتنا أن نعفوا عمن ظلمنا، وقد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا".

ونحن ندعوك: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾[الأعراف:٢٣].

اللهم! إنك عفو تحب العفو؛ فاعف عنا؛ يا أرحم الراحمين!

(٢٦، ٢٧)

الْغَفُورُ الْغَفَّارُ جل جلاله

جاء عند الطبراني بإسناد صحيح من حديث أبي طويل: أنه أتى رسول الله ﷺ؛ فقال: أرأيت رجلاً عمل الذنوب كلها، فلم يترك منها شيئًا، وهو في ذلك لم يترك حاجةً ولا داجةً إلا أتاها، فهل له من توبة؟

قال: «فَهَلْ أَسْلَمْتَ؟»، قال: أما أنا؛ فأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأنك رسول الله، قال: «نَعَمْ؛ تَفْعَلُ الخَيْرَاتِ، وَتَتْرُكُ السَّيِّئَاتِ، فَيَجْعَلُهُنَّ اللهُ لَكَ خَيْرَاتٍ كُلَّهُنَّ»، قال: وغدراتي وفجراتي؟! قال: «نَعَمْ»، قال: الله أكبر! فما زال يكبر حتى توارى.

وَإِنِّـي لأَدْعُـوْ اللهَ أَطلُـبُ عفْـوَهُ
وَأَعْلَـمُ أنَّ اللهَ يَعْفُـوْ وَيَغْفِـرُ
لَئِنْ أَعْظَمَ النَّاسُ الذُّنُوْبَ فَإِنَّهَا
وَإِنْ عَظُمَتْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ تَصْغُرُ

حديثنا عن اسم ما سمع به مذنب ولا مؤمن إلا تعلق قلبه به، وفرح به فرحًا شديدًا، وفتح له باب أمل؛ إنه: اسم الله (الغفور والغفار تبارك وتعالى).

قال ﷻ: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾[الحجر:٤٩]، وقال: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾[نوح:١٠]، وقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[النجم:٣٢].

وأصل الغفر في اللغة: الستر والتغطية.

وربُّنا ﷻ هو الساتر لذنوب عباده، المغطيهم بستره؛ فلا يطلع على ذنوبهم أحد غيره، المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم.

فهو ﷻ يغفر ذنوب عباده مرة بعد مرة، إلى ما لا يحصى، كلما تكررت توبة العبد من الذنب تكررت المغفرة من الله ﷻ.

❑ الباب مفتوح..

ذكر الطبراني وغيره: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أحدنا يذنب الذنب؟ قال: «يُكْتَبُ عَلَيْهِ»، ثم قال: يستغفر منه ويتوب؟ قال: «يُغْفَرُ لَهُ وَيُتَابُ عَلَيْهِ، وَلاَ يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا»[حديث حسن. وهو في «المعجم الكبير والأوسط»].

وَهُوَ الغفُورُ فَلَوْ أَتَى بِقُرَابِهَا ... مِنْ غَيرِ شِرْكٍ بَلْ مِنَ العِصْيَانِ
لأَتَاهُ بِالغُفْرَانِ مِلءَ قُرَابِهَا ... سُبْحَانَهُ هُوَ وَاسِعُ الغُفْرَانِ

فتح الله ﷻ بابه لكل التائبين والمذنبين والخطائين؛ فقال ﷻ: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ

﴿جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر:٥٣]، بل نادى من فوق سبع سماوات الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة؛ ناداهم بالتوبة؛ حتى يغفر لهم؛ فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٤﴾ [المائدة:٧٤].

جميع الذنوب تُغفر؛ عدا من أقبل على الله وهو مشرك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النساء:٤٨].

والآيات في هذا كثيرة.

وأما السنة؛ ففي الحديث القدسي: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي؛ غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي.

يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي؛ غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي.

يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا؛ لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً» [حديث صحيح. رواه الترمذي].

هذا لمن جاء بالاستغفار مجردًا عازمًا على عدم العودة، صادقًا في توبته، وإذا علم الله صدقه بدل سيئاته حسنات، وهذا من جوده وكرمه على عباده.

لا تقنطوا!

والأعمال الصالحة مكفرة للذنوب، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[هود:١١٤]، وصح عنه ﷺ: «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا»[حديث حسن. رواه الترمذي].

والمصائب التي تصيب العبد -سواء في نفسه أو في ولده أو ماله- تكفر سيئاته؛ إذا احتسب ثوابها، وصبر، ورضي بقضاء الله ﷻ.

والله ﷻ أشد فرحًا بتوبة عبده من رجل فقد راحلته في فلاة وعليها طعامه وشرابه ثم وجدها.

ومهما عظم الذنب أو تكرر من العبد؛ فإن الله أوسع في رحمته ما دام العبد يستغفر: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[الأعراف:١٥٦]، وصح عنه ﷺ فيما يحكيه عن ربه ﷻ، قال: «أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا؛ فَقَالَ: اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ ﷻ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ ﷻ: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ؛ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ! اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ ﷻ: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ! فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»[أخرجه مسلم].

أي: ما دمت تائبًا أوَّاهًا منيبًا.

انكسر لمولاك!

وباب الله ﷻ مفتوح لكل التائبين والمنيبين، وهو لم يزل ولا يزال عفوًا غفورًا، وقد وعد بالمغفرة والعفو لمن أتى بأسبابها: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾[طه: ٨٢]، ومن كثرت ذنوبه وسيئاته حتى فاتت العدّ والإحصاء؛ فليستغفر الله مما عَلِمِ الله، فإن الله قد علم كل شيء وأحصاه .

وهذا لا يعني: أن يسرف المسلم في الخطايا والذنوب، ويتجرأ على معصية الله بحجة: أن الله غفور رحيم! فالله ﷻ قال: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ۝٢٥﴾[الإسراء:٢٥]، قال الفضيل ابن عياض رحمه الله: " استغفارٌ بلا إقلاع.. توبةُ الكذَّابين".

حبل النجاة..

وقد أمر جميع الخلق بالاستغفار وعلى رأسهم: الأنبياء؛ ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠﴾[نوح:١٠].

وصح عنه ﷺ أنه قال: «وَاللهِ! إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»[أخرجه البخاري] هذا في حق الأنبياء؛ فمن دونهم أولى بالاستغفار.

قال النبي ﷺ لعلي بْنِ أبي طالب رضي الله عنه: «أَلاَ أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ إِذَا قُلْتَهُنَّ

غفَرَ اللَّهُ لَكَ؛ وَإِنْ كُنْتَ مَغْفُورًا لَكَ؟»، قَالَ: «قُلْ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ العَلِيُّ العَظِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ الحَلِيمُ الكَرِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَرْشِ العَظِيمِ»[صحيح، رواه الترمذي].

وقال علي رضي الله عنه: "العجب ممن يهلك ومعه النجاة! قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار".

وقال قتادة رحمه الله: "القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم؛ أما داؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار".

قال شيخ الإسلام رحمه الله: "الذنوب سبب للضّر؛ والاستغفار يزيل أسبابه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ٣٣﴾[الأنفال: ٣٣]".

قال ابن كثير رحمه الله: "ومن اتصف بهذه الصفة أي: صفة "الاستغفار" يسر الله عليه رزقه. وسهّل عليه أمرَه. وحفظ عليه شأنه وقوته".

أَشْكُوْ إِلَيْكَ ذُنُوْبًا لَسْتُ أُنكِرُهَا
وَقَدْ رَجَوْتُكَ يَا ذَا المَنِّ تَغْفِرُهَا
مِنْ قَبْلِ سُؤْلِكَ لِي فِي الحَشْرِ يَا أَمَلِي
يَوْمَ الجَزَاءِ عَلَى الأَهْوَالِ تَذْكُرُهَا
أَرْجُوْكَ تَغْفِرُهَا فِي الحَشْرِ يَا أَمَلِي
إِذْ كُنْتَ سُؤْلِي كَمَا فِي الأَرْضِ تَسْتُرُهَا

وسر الجمع بين (لا إلهَ إلا الله) و(الاستغفار) في قوله ﷻ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾[محمد:١٩]: "إن التوحيد يُذهب أصل الشرك، والاستغفار يمحو فروعه.

فأبلغ الثناء: قول: لا إله إلا الله، وأبلغ الدعاء: قول: أستغفر الله، فأمره بالتوحيد والاستغفار لنفسه ولإخوانه من المؤمنين والمؤمنات".

اللهم! اغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين؛ يا رب العالمين!

(٢٨)

الكَبِيرُ جل جلاله

على عتبة الباب..

ربك سبحانه وتعالى ذو الجبروت وذو الملكوت، الكبير المتعالي؛ أنزل حوائجك ببابه، واجعل قلبك منكسرًا عنده، وأخبت إليه؛ سيقضي حوائجك، ويرفع مرضك، ويقضي دينك، ويزيل همك، ويخلق الابتسامة على ثغرك..

إنه الله الكبير تبارك وتعالى.

أمانيك مع الله الكبير.. حقائق.

وتطلعاتك مهما بلغت فإنها مع الكبير.. صغيرة.

ورغباتك مع الكبير.. ستهدى إليك، وأشواقك ستهب عليك.

إنه الكبير تبارك وتعالى؛ ملجؤك من الخوف، ومعينك على نوائب الدهر.. إنه الله الكبير، ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩﴾[الرعد:٩].

فربُّنا الكبير تبارك وتعالى؛ الذي كبر وعلا في ذاته، فلا أكبر ولا أعظم منه جل وعلا على الإطلاق، ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعًا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ

ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطۡوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾[الزمر:٦٧].

وربُّنا تبارك وتعالى هو الكبير في أوصافه؛ فكلها كمال وعظمة وجلال، لا سمي له فيها، ولا مثيل ولا شبيه ولا نظير.

وربُّنا تبارك وتعالى هو الكبير في أفعاله، فعظمة خلقه تشهد بجلال أفعاله، ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾[غافر:٥٧].

ربُّنا تبارك وتعالى الكبير العظيم ذو الكبرياء، الذي صغر دون جلاله وعظمته كل كبير.

وربُّنا عز وجل كبر وتعالى عن كل النقائص والمساوئ والعيوب.

وربُّنا عز وجل هو الذي تكبر عن كل سوء وشر وظلم؛ ﴿ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾[الرعد: ٩]، ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾[غافر:١٢].

لَـكَ الحَمْدُ وَالنَّعْمَاءُ وَالمُلْكُ رَبَّنَا
وَلاَ شَيْءَ أَعْلَى مِنْكَ مَجْداً وَأَمْجَدُ
فَسُبْحَانَ مَنْ لاَ يَقْدِرُ الخَلْقُ قَدْرَهُ
وَمَنْ هُوَ فَوْقَ العَرْشِ فَرْدٌ مُوَحَّدُ

❒ قصرت العقول!

والله جل وعلا: أكبر من كل شيء، وأكبر من أن نحيط به علمًا؛ ﴿وَلَا

يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾[طه:١١٠].

فالله ﷻ: أكبر من أن نعرف كيفية ذاته أو صفاته؛ ولذلك نهينا عن التفكر في الله؛ لأننا لن ندرك ذلك بعقولنا الصغيرة القاصرة المحدودة، جاء عند الطبراني في «الأوسط»: أن النبي ﷺ قال: «تَفَكَّرُوا فِي آلاَءِ اللهِ، وَلاَ تَفَكَّرُوا فِي اللهِ ﷻ»[حديث صحيح]، وجلال كبريائه ﷻ لا يعلمه إلا هو؛ لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل؛ فاختص الله ﷻ به.

❑ أبلغ لفظ..

فالله ﷻ أكبر من كل شيء؛ ذاتًا وقدرًا ومعنًى وعزةً وجلالةً؛ ولهذا يقال: إن أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال هي: (الله أكبر)؛ لكونها أكمل من صفة العظمة؛ فقولنا: (الله أكبر) يتضمن: العظمة ويزيد عليها في المعنى.

ولهذا جاءت الألفاظ المشروعة في الصلاة والأذان بقول: (الله أكبر)؛ فإن ذلك أكمل من قوله: (الله أعظم)، كما جاء في الحديث: «قَالَ اللهُ ﷻ: الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا؛ قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»[حديث صحيح. رواه أبو داود].

يقول الإمام ابن تيمية ﵀: "فجعل العظمة كالإزار، والكبرياء كالرداء، ومعلوم: أن الرداء أشرف، فلما كان التكبير أبلغ من التعظيم صرح بلفظه، وتضمن ذلك: التعظيم".

❑ مفتاح الدخول على الملك:

ولذا؛ شرعت هذه الكلمة للدخول في الصلاة، فإن المسلم يدخل دخول العبيد على الملوك فيها، فإذا تشرف بالدخول شرع له أبلغ لفظ وهو: (الله أكبر)، وحاله يقول: "الله أكبر؛ أدخل بها على مولاي وخالقي ورازقي، والله أكبر من شواغل الحياة"، فإذا قالها مخلصًا متفكرًا بها؛ عظم الله في قلبه، وخشعت أطرافه، واستحيا من الله، ومنعه وقاره وكبرياؤه أن ينشغل قلبه بغيره، ولعظم هذه الكلمة صاحبت المسلم في عبادات عديدة؛ لينال رضا الله، قال ابن القيم رحمه الله: "﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾[التوبة:٧٢]، رضا الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها؛ لأن الرضا صفة الله، والجنة خلقه".

❑ العزيز من لاذ بالكبير..

(الله أكبر) إذا خالطت القلب؛ اعتز بها المؤمن، ووثق بالله، واعتمد عليه، وتوكل عليه، وصغر كل شيء عند كبرياء الله وعظمته.

ذكر أهل السير: "أن الحجاج بعد أن أدى الركعتين خلف المقام؛ جاء رجل فقير من أهل اليمن، وقام يطوف بالبيت، وأثناء طوافه نشبت حربة بثوب الفقير اليمني، ثم وقعت على بدن الحجاج؛ ففزع الحجاج، وقال: خذوه! فأخذه الجنود، فقال: قربوه مني؛ فقربوه منه.

فقال الحجاج: أعرفتني؟ قال: ما عرفتك! قال الحجاج: من واليكم على اليمن؟ قال: محمد بن يوسف -أخو الحجاج-، ظالم مثله، أو أسوأ

منه.

قال: أما علمت أني أنا أخوه؟ قال: أنت الحجاج؟ قال: نعم، فقال الفقير: بئس أنت! وبئس أخوك!

قال: كيف تركت أخي في اليمن؟ قال: تركته بطينًا سمينًا.

قال: ما سألتك عن صحته، إنما سألتك عن عدله.

قال: تركته غاشماً ظالماً،

قال: أما علمت أنه أخي؟ أما تخاف مني؟

قال: أتظن يا حجاج أن أخاك يعتز بك أكثر من عزتي بالواحد الأحد؟!".

قال طاووس -الراوي-: "والله! لقد قام شعر رأسي! ثم أطلق الحجاج الرجل؛ فجعل يطوف بالبيت لا يخاف إلا الله".

أَكْفَانُهُمْ بِدِمَاءِ البَذْلِ قَدْ صُبِغَتْ
اللهُ أَكْبَرُ مِنْ سَلْسَالِهَا رَشَفُوْا

فِي كَفِّكَ الشَّهْمِ مِنْ حَبْلِ الهُدَى طَرَفٌ
عَلَى الصِّرَاطِ وَفِي أَرْوَاحِنَا طَرَفُ

ما الأمر الكبير والكرب الشديد والهم العظيم الذي سيستعصي على الله الكبير؟

إِذًا؛ الكبير هو الله ﷻ، وكل كبير رأيته أو سمعت به أو علمته؛ فالله

ربه، وهو أكبر منه، فكيف يمكن لكروب أن تصمد أمام إرادة رب العزة والكبرياء والعظمة؟

فالله الكبير تبارك وتعالى، وهو الذي سيحول مشكلاتك إلى حلول، وكل آلامك إلى عافية، وكل أحلامك إلى واقع، وكل دموعك إلى ابتسامات.

فَالْزَمْ يَدَيْكَ بِحَبْلِ اللهِ مُعْتَصِمًا

فَإِنَّهُ الرُّكْنُ إِنْ خَانَتْكَ أَرْكَانُ

اللهم! إنا نسألك باسمك الكبير: أن تمن علينا بدخول الجنة والنجاة من النار.

(٢٩، ٣٠، ٣١)
الأعلى العلي المتعال جل جلاله

إذا وقعت المصيبة، وحلت النكبة، وجثمت الكارثة؛ اتجه القلب إلى الأعلى، وارتفعت الأيادي إلى العلي، ونظرت الأعين إلى السماء تنتظر الفرج من العلي الأعلى المتعال.

فربُّنا عز وجل هو: الأعلى والعلي والمتعال، قال تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾[البقرة:٢٥٥]، وقال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾[الأعلى: ١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾[الرعد: ٩].

فربنا الأعلى – العلي – المتعال: الذي لا أعلى منه له العلو المطلق من جميع الوجوه:

❖ علو ذات: فربنا سبحانه وتعالى مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، علا على جميع الكائنات، ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾[طه:٥].

❖ علو قدر: فهو سبحانه وتعالى ذو قدر عظيم، صفاته صفات كمال وجمال وجلال، فلا يقاربها ولا يماثلها صفة أحد من خلقه، بل لا يطيق العباد أن

يحيطوا بصفة واحدة من صفاته سبحانه، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ۝١١٠﴾ [طه:١١٠].

❖ علو قهر: فربنا سبحانه وتعالى قهر كل شيء، ودانت له الكائنات بأسرها، فالكل تحت قهره وسلطانه وعظمته، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام:١٨].

عَلَى السَّمَاوَاتِ فَوْقَ العَرْشِ مُرْتَفِعًا
مُبَايِنًا لِجَمِيعِ الخَلْقِ مُتَّصِفًا
بِكُلِّ أَوْصَافِهِ العُلْيَا الَّتِي كَمُلَتْ
وَلَيْسَ هَذَا بِحَمْدِ اللهِ فِيهِ خَفَا

❐ أين الله؟!

في «صحيح مسلم» عن الصحابي الجليل معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه قال:..كانت لي جارية ترعى غنمًا لي قِبَلَ أُحُد، فاطَّلعت ذاتَ يوم فإذا الذيبُ قد ذهبَ بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم، آسف -أغضب- كما يأسفون، لكني صككتها صكةً.

فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعظَّمَ ذلك علي، قلتُ: يا رسول الله أفلا أعتقها؟ قال: «ائْتِنِي بِهَا!»؛ فأتيته بها، فقال لها: «أَيْنَ اللهُ؟»، قالت: في السماء، قال: «مَنْ أَنَا؟»، قالت: أنت رسول الله، قال: «أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ».

ومعنى كون الله في السماء؛ أي: في العلو فوق السماء، و(في) بمعنى

(على)؛ كما جاء بهذا المعنى في قوله ﷻ: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه:٧١] ولا يتوهم أن السماء تحيط بالله؛ فالله أعظم من أن يحيط به شيء من خلقه.

وأقف هنا -أيها القارئ!- فأقول: هل يجوز وصف الله ﷻ بضد ما وصف به نفسه؛ كوجود الله في كل مكان؟

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في «مجموع الفتاوى»: "وهو ﷻ وصف نفسه بالعلو، وهو من صفات المدح له بذلك والتعظيم؛ لأنه من صفات الكمال، كما مدح نفسه بأنه العظيم والعليم والقدير والعزيز والحليم ونحو ذلك، وأنه الحي القيوم، ونحو ذلك من معاني أسمائه الحسنى.

فلا يجوز أن يتصف بأضداد هذه، فلا يجوز أن يوصف بضد العلو وهو: السفول، ولا بضد القوي وهو: الضعيف.

بل هو ﷻ منزه عن هذه النقائص المنافية لصفات الكمال الثابتة له".

هَـذَا ومِـنْ تَوْحِيـدِهِمْ: إِثْبَـاتُ ... أَوْصَافِ الكَمَالِ لِرَبِّنَا الرَّحْمَنِ
كَعُلُوِّهِ سُبْحَانَهُ فَوْقَ السَّمَاوَاتِ ... العُلَى بَلْ فَوْقَ كُلِّ مَكَانِ
فَهُوَ العَلِيُّ بِذَاتِهِ سُبْحَانَهُ ... إِذْ يَسْتَحِيلُ خِلافُ ذَا بِبَيَانِ
وَهُوَ الَّذِي حَقًّا عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى ... قَدْ قَامَ بِالتَّدْبِيرِ لِلأَكْوَانِ

قال ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ

ﭐسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[الأعراف:٥٤]؟

وذكر الله ﷻ في كتابه نزول جبريل والملائكة: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾﴾[القدر:٤]؟ والتنزيل لا يكون إلا من العلو.

وذكر ﷻ أن الملائكة تعرج إليه وتصعد: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾[المعارج:٤]؟

وذكر ﷻ أن الأعمال الصالحة والكلام الطيب إليه يصعدان: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[فاطر:١٠]؟

فإلى من ترفع الأعمال؟

وإذا كان ربنا ﷻ بنفسه في كل مكان؛ فماذا يصنع بالتنزيل؟ -تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا-.

فربُّنا ﷻ تعالى عن الشبيه والنظير والمثيل والعديل.

وربُّنا ﷻ تعالى عن الصاحبة والولد: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾[الجن:٣].

وربُّنا ﷻ تعالى عن الشريك في ألوهيته: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾[الأعراف:١٩٠].

الطريق..

ومن عرف معنى الأسماء الثلاثة: (العلي الأعلى المتعالي)؛ عرف أن الله ﷻ علي بصفات الكمال، متعال عن صفات النقص، أعلى من خلقه.

ومن أعطى هذا المشهد حقه –معرفةً وعبوديةً– استغنى به، وبلغ العزة والمجد؛ ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾[مريم:٥٧].

والعُلُوُّ في الدارين يُنَال:

بالإيمان: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥﴾[طه: ٧٥].

وبالعلم: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١].

وبالتواضع، صح عنه ﷺ أنه قال: «وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلهِ إلاَّ رَفَعَهُ اللهُ» [أخرجه مسلم].

ولما طلب أحد الصحابة رضي الله عنهم مرافقة النبي ﷺ في الجنة؛ قال له: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ» [أخرجه مسلم]، والذكر في السجود: (سبحان ربي الأعلى)، والله ﷻ قال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾[الأعلى: ١].

وعلل بعضهم هذا القول في السجود: بأنه غاية في الخضوع والتذلل من العبد بأشرف شيء فيه لله ﷻ، وهو: وجهه؛ بأن يضعه على التراب،

فناسب وهو في غاية سفوله أن يصف ربه بأنه: الأعلى ﷻ.

ولذلك لما كان هذا حال العبد في تلك الهيئة كان أقرب إلى الله ﷻ، قال ﷺ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ؛ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»

[أخرجه مسلم].

❑ بلغت المنى..

وبعد أن علمت أن الأرض تدار من العلي الأعلى ﷻ؛ الذي بيده ملكوت السماوات والأرض..

فيا أيها المريض! الشافي في السماء، ويا أيها الفقير! الغني في السماء، ويا أيها الحزين! الجابر في السماء، أيها العقيم! الوهاب في السماء، أيها المدين! الرزاق في السماء، أيها المغموم! الفتاح في السماء..

فتوجه بقلبك ووجهك إلى السماء، وادع الله العلي الأعلى، وأبشر بما يسرك؛ فقد بشرت من فوق سبع سماوات بقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة:١٨٦].

لَكَ الحَمْدُ يَا ذَا الجُودِ وَالمَجْدِ وَالعُلَا
تَبَارَكْتَ تُعْطِي مَنْ تَشَاءُ وَتَمْنَعُ

إِلَهِي لَئِنْ جَلَّتْ وَجَمَّتْ خَطِيئَتِي
فَعَفْوُكَ عَنْ ذَنْبِي أَجَلُّ وَأَوْسَعُ

إِلَهِـي تَـرَى حَـالِي وَفَقْـرِي وَفَـاقَتِي
وَأَنْـتَ مُنَاجَـاتِي الخَفِيَّـةَ تَـسْمَعُ
إِلَهِـي لَـئِنْ خَيَّبْتَنِـي أَوْ طَرَدْتَنِـي
فَمَـنْ ذَا الَّـذِي أَرْجُـوْ وَمَـنْ لِـي يَـشْفَعُ

اللهم! إنا نسألك باسمك الأعلى: أن تعلي شأننا في الدنيا والآخرة.

(٣٢، ٣٣)

القاهر القهار جل جلاله

روى أبو يعلى في «مسنده» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إِنَّ فِرْعَوْنَ أَوْتَدَ لامْرَأَتِهِ أَرْبَعَةَ أَوْتَادٍ فِي يَدَيْهَا وَرِجْلَيْهَا، فَكَانُوا إِذَا تَفَرَّقُوا عَنْهَا ظَلَّلَتْهَا المَلائِكَةُ، فَقَالَتْ: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾[التحريم:١١]» [حديث صحيح].

من غرفة فرعون الطاغية تخرج إحدى أعظم نساء الأرض! ومن قصره يخرج موسى عليه السلام!!..

فرعون القائل: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾[الأعراف:١٢٧]، فما كان من القهار إلا أن قهر هذا الطاغية، وجعله عبرةً لمن خلفه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢﴾[يونس: ٩٢].

فالله سبحانه وتعالى أثنى على ذاته العليَّة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ

ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ [الأنعام:١٨].

فربنا ﷻ القاهر بعز سلطانه، المتصرف في أكوانه، لا يقهر إرادته شيء..

قهر الجبابرة، وقصم القياصرة، وخضعت له الرقاب، وذلت لجبروته الصعاب، وعنت له الوجوه، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه.

وربنا سبحانه وتعالى هو الذي خضعت له المخلوقات، وذلت لعزته وقوته وكمال اقتداره.

القهار ﷻ لجميع العالم العلوي والسفلي؛ فلا يحدث حادث ولا يسكن ساكن إلا بإذنه، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، هذا معنى الاسمين لربنا ﷻ: (القاهر والقهار) .

وَكَذَا القَهَّارُ مِنْ أَوصَافِهِ فَالْخَلْقُ مَقْهُوْرُوْنَ بِالسُّلْطَانِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ حَيًّا عَزِيزًا قَادِرًا مَا كَانَ فِي قَهْرٍ وَلاَ سُلْطَانِ

❐ إنه القهار:

من الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء؟ ومن الذي يحيي العظام وهي رميم، ويعيد الخلق كما بدأهم أول مرة، وهو أهون عليه؟ من للمظلوم إذا ظلم؟ من للضعيف إذا هضم؟

ربنا القاهر الحكِيم ﷻ؛ الذي لا يخلق شيئًا عبثًا، ولا يترك شيئًا

سدًى، ولا يقبل فعلاً أو يشرع شرعًا إلا لحكم، عرفها من عرفها وجهلها من جهلها.

إِلَيْكَ جَمِيعُ الأَمْرِ يُرْجَعُ كُلُّهُ
وَمِنْكَ الأَمَانِي تُرْتَجَى وَالبَشَائِرُ

فمن الذي يستحق التوحيد والعبادة؟ أليس الله الواحد القهار الذي لا كفء له.

بها جادل يوسف عليه السلام صاحبيه في السجن، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾[يوسف:٣٩].

فهل رأيتم مقهورًا يستطيع لنفسه نفعًا أو ضرا؟ فكيف يطلب ويتوكل على المقهور الضعيف، والله هو الواحد القهار؟!

وكان من دعاء النبي ﷺ إذا فزع من نومه: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ، رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، العَزِيزُ الغَفَّارُ»[حديث صحيح. رواه ابن حبان].

❐ فوض أمرك إليه ..

لما علم المؤمن بأن الله هو الواحد القهار؛ أعلن الاستسلام لله، وفوض أمره إلى الله، وتوكل عليه، ولم يعظم إلا الله، ولم يخف إلا من الله، وسقط الخوف من المخلوقين الضعفاء؛ حتى لو ادعوا القوة والقهر.

فهؤلاء سحرة فرعون لما دخل الإيمان في قلوبهم، وعلموا أن الله هو

الواحد القهار؛ كان جوابهم لطاغية الأرض فرعون عندما هددهم: ﴿قَالُواْ لَا ضَيْرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝٥٠﴾[الشعراء:٥٠].

والله ﷻ القاهر للطغاة والعصاة: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٨﴾[الأنعام: ١٨] قهر قوم نوح بالطوفان، وقهر قوم صالح بالصيحة، وقهر قوم عاد بالريح، وقهر قوم لوط بالحجارة، وقهر قارون بالخسف، وقهر قوم سبأ بالجوع والعطش وضيق الأرزاق، وقهر بني إسرائيل بالخوف وتسليط الأعداء وكثرة القتل، وقهر قومًا منهم بالمسخ والطاعون.

فقهر الله ﷻ ظاهر: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝١١٨﴾ [النحل:١١٨]، فالله الذي أطاحت صولته صولة المخلوقين، وبادت عند سطوته قوى الخلائق أجمعين؛ ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦﴾[غافر: ١٦].

يقول الرازي ﵀: "فأين الجبابرة والأكاسرة عند ظهور هذا الخطاب؟!

وأين الأنبياء والمرسلون والملائكة المقربون في هذا العتاب؟!

أين أهل الضلال والإلحاد، والتوحيد والإرشاد؟!

وأين آدم وذريته؟

وأين إبليس وشيعته؟

وكأنهم بادوا وانقضوا!...

زهقت النفوس، وتبددت الأرواح، وتلفت الأجسام والأشباح، وتفرقت الأوصال، وبقي الموجود الذي لم يزل ولا يزال".

وليس بالضرورة أن تُحسم جميع القضايا في الدنيا: ثمّة مظالم ستستأنف مِن جديد يوم القيامة! وتلك الحقيقة هي أشدّ وقعاً من المطارق الحامية على قلوب الظالمين .. ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[غافر:٤٣].

قال الشافعي: "آيةٌ من القرآن هي سهمٌ في قلب الظالم، وبلسمٌ على قلب المظلوم، قيل: وما هي؟! فقال قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم: ٦٤]".

اللهم يا ذا القهر والجبروت! اكفنا شر الأشرار وكيد الفجار.

(٣٤)

الوَهَّابُ جل جلاله

وَكَـذلِكَ الوَهَّـابُ مِـنْ أَسْـمَائِهِ
فَـانْظُرْ مَوَاهِبَــهُ مَـدَى الأَزْمَـانِ
أَهْلُ السَّمَاوَاتِ العُلا وَالأَرْضِ عَنْ
تِلْـكَ المَوَاهِــبِ لَـيْسَ يَنْفَكَّـانِ

قال الله مثنيًا على ذاته العلية بقوله: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ٩﴾[ص:٩].

فربنا تبارك وتعالى واسع الهبات، شمل كل الكائنات في الأرض والسماوات، لا ينقطع نواله في الحال ولا في المآل، يعطي من غير سؤال ولا وسيلة، وينعم بلا سبب ولا حيلة: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾[آل عمران:٨]، ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ٩﴾ [ص:٩].

إنه الوهاب:

فسبحانه من خلاق عظيم، جواد كريم وهاب!

الكرم: صفة من صفاته، والجود: من أعظم سماته، والعطاء: من أجل هباته، فمن أعظم منه جودًا؟!

الخلائق له عاصون، وهو لهم مراقب، يكلؤهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوه، ويتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا، يجود بالفضل على العاصي، ويتفضل على المسيء.

من الذي دعاه فلم يستجب له؟! أم من ذا الذي سأله فلم يعطه؟ أم من ذا الذي أناخ ببابه فنحاه؟

سُبْحَانَ مَنْ يُعْطِي المُنَى بِخَوَاطِرٍ ... فِي النَّفْسِ لَمْ يَنْطِقْ بِهِنَّ لِسَانُ
سُبْحَانَ مَنْ هُوَ لا يَزَالُ وَرِزْقُهُ ... لِلْعَالَمِينَ بِهِ عَلَيْهِ ضَمَانُ

نِعم الله ﷻ تترى على العبد منذ كان نطفةً في بطن أمه، ثم صور سمعه وبصره ونفخ فيه الروح، ثم غذاه وسقاه وكساه وآواه وكفاه، ومن كل ما سأل أعطاه.

والله ﷻ يقول للعبد: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾[البلد:٨-١٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾[فاطر:١٥].

خلقك ورزقك، أحياك وأماتك، حباك وأعطاك، أمرضك وشفاك،

أجاعك وأشبعك، أظمأك وسقاك، أضحكك وأبكاك، علمك ما لم تكن تعلم، وعرفك ما كنت تجهل، هيأ رزقك.

أجاب دعاءك، لبى نداءك، قهر عدوك، أرسل لك رسولاً، وعلمك كتاباً، وهداك منهجاً.. وبعد هذا تعصيه؟! ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾ [عبس:١٧].

على عتبة بابه..

هل ضاقت بك الدنيا؟

هل آلمك المرض؟

هل كبلتك الديون؟

هل هدك الفقر؟

هل رغبت بالزوجة والولد؟

هل حار ذهنك وتشتتت أفكارك؟

فعليك في هذه الساعة بالالتجاء إلى الوهاب، إلى كثير العطايا، فقط ارفع يديك وقف ببابه ولُذ بجنابه؛ وسترى كيف يصبح الجوع شبعًا، والظمأ ريا، وبعد السهر نوم، وبعد المرض عافية، وسيصل الغائب، ويهتدي الضال، ويفك العاني، وينقشع الظلام.

إنه الوهاب ﷻ؛ الذي يحول الدمعة بسمةً، والخوف أمنًا، والفزع سكينةً، بشر الليل بصبح صادق، بشر المهموم بفرج مفاجئ، بشر المنكوب

بلطف خفي.

خزائن الله ﷻ ملأى لا تنفد، وهو القائل: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[غافر: ٦٠]، فمن دعا الله فليعظم المسألة؛ فإنه لا يتعاظمه شيء! فهذا سليمان عليه السلام يطلب خيري الدنيا والآخرة: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥﴾[ص:٣٥].

وهذا زكريا يدركه الكبر وامرأته عاقر؛ ومع ذلك يقول: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾[آل عمران:٣٨].

❐ ارجع إلى الوهاب!

والملك والسلطان والمال والذرية والعافية جميعها من الملك الوهاب ﷻ، ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٤٧﴾[البقرة:٢٤٧]، ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ٤٩﴾[الشورى: ٤٩].

وأعظم ما يدعو العبد به ربه: دعاء أهل العلم الذين عرفوا سر مناجاة الله بأسمائه الحسنى؛ فسألوه الثبات والرحمة: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٨﴾[آل عمران:٨].

ولذا؛ جعلها الله ﷻ في كل ركعة، نتلفظ بها، ونرجو أن يهبها الله لنا، وهي: الهداية: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾[الفاتحة:٦].

السر في حلاوة الدعاء!

إنه يحب من يسأله، بل لولا دعاؤهم لم يبال بهم: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان:٧٧].

ومن الدعاء الذي يتقرب به إلى الله ﷻ: ما علمنا إياه ربنا في قوله ﷻ: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان:٧٤].

بل وعد ﷻ بالجنة بعد هذا الدعاء: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾﴾ [الفرقان:٧٥].

من تعلق بالله، ولجأ إليه في كل ما أهمه ورجاه، وأدمن قرع باب الله بالافتقار إليه والدعاء وطول المناجاة؛ أكرمه الله وحماه، وأعطاه فوق ما تمناه، وكان له مُعينًا ونصيراً طول الحياة.

همسة..

وربنا ﷻ يهب العطاء في الدنيا على سبيل الابتلاء، ويهب العطاء في الآخرة على سبيل الأجر والجزاء.

فعطاؤه في الدنيا علقه بمشيئته، وابتلاء الناس بحكمته؛ ليتعلق العبد بربه عند الدعاء والرجاء، ويسعد بتوحيده وإيمانه بين الدعاء والقضاء.

وهذه أعظم الهبات والعطاء؛ إذا أدرك العبد حقيقة الابتلاء.

وإذا علم العبد ذلك؛ أورث هذا الاسم محبة العبد لربه، والقيام بحمده وشكره، والتعلق به على الدوام.

لَكَ الحَمْدُ اللَّهُمَّ يا خَيْرَ واهِبِ
وَيَا خَيْرَ مَرْجُوٍّ لِنَيْلِ المَآرِبِ
وَيَا خَيْرَ مَنْ يُرْجَى لِكَشْفِ مُلِمَّةٍ
وَيَا خَيْرَ مَنْ يُسْدِي العَطَا وَالمَوَاهِبَ

اللهم! هب لنا من لدنك رحمةً؛ إنك أنت الوهاب، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين؛ يا رب العالمين!

(٣٥)

الرَّزَّاقُ جل جلاله

بعد الجوع شبع، وبعد الظمإِ ري، وبعد الفقر غنىً، وبعد السهر نوم، وبعد المرض عافية... سيقضى الدين، ويكثر الرزق، ويفك الأسير، ويفرج عن العاني، وينقشع الظلام، ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾[المائدة: ٥٢].

إذا حاصرتك الحاجات، وداهمتك الخطوب، والتفت من حولك الهموم، وكثرت الديون، وضاق الرزق؛ فعليك أن تتجه إلى الرزاق، فارج الهم، وكاشف الغم، ومستجيب دعوة المضطر.

تعرف على الرزاق من قريب، وعش مع هذا الاسم العظيم؛ الذي ما ولج أذن سامع إلا واطمئن قلبه، وسكنت روحه، وتغير حاله.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾[الذاريات:٥٨].

فربنا الرزاق، المتكفل بالرزق، والقائم على كل نفس، وسع الخلق كلهم رزقه ورحمته؛ فلم يختص الله جل جلاله بذلك مؤمنًا دون كافر، ولا وليًّا دون عدو، يسوقه إلى الضعيف كما يسوقه إلى القوي، يسوقه إلى الجنين

في بطن أمه، وإلى الطير في وكره، يسوقه إلى الثعبان في جحره، وإلى السمك في بحره، ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠﴾ [العنكبوت: ٦٠].

ورد الاسم مفردًا مرةً واحدةً، وورد بصيغة الجمع خمس مرات في القرآن الكريم.

(الرزاق) جاءت بصيغة مبالغة؛ حتى تطمئن نفسك، ولتعلم أنه كريم، ولتتعلق القلوب به وحده جل وعلا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أصاب رجلاً حاجة؛ فخرج إلى البرية، فقالت امرأته: اللهم! ارزقنا ما نعتجن وما نختبز.

فجاء الرجل والجفنة ملأى عجينًا، وفي التنور جنوب الشواء، والرحى تطحن؛ فقال: من أين هذا؟ قالت: من رزق الله، فكنس ما حول الرحى.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَوْ تَرَكَهَا لَدَارَتْ -أو قال: طَحَنَتْ- إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[حديث صحيح. رواه الطبراني في «المعجم الأوسط»].

❑ كتبت المقادير..

لَوْ كَانَ فِي صَخْرَةٍ فِي البَحْرِ رَاسِيَةٍ
صَمَّاءَ مَلْمُومَةٍ مُلْسٌ نَوَاحِيهَا
رِزْقٌ لِعَبْدٍ يَرَاهُ اللهُ لانْفَلَقَتْ
حَتَّى تُؤَدِّي إِلَيْهِ كُلَّ مَا فِيهَا

أَوْ كَانَ بَيْنَ طِبَاقِ السَّبْعِ مَسْلَكُهَا

لَسَهَّلَ اللهُ فِي المَرْقَى مَرَاقِيهَا

حَتَّى تَنَالَ الَّذِي فِي اللَّوْحِ خُطَّ لَهَا

فَإِنْ أَتَتْهُ وَإِلَّا سَوْفَ يَأْتِيهَا

جاء في صحيح البخاري أنه ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ ﷻ قَدْ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا؛ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ نُطْفَةٌ، أَيْ رَبِّ عَلَقَةٌ، أَيْ رَبِّ مُضْغَةٌ! فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقًا قَالَ المَلَكُ: أَيْ رَبِّ! ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الأَجَلُ؟ فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ».

فرزقك من الرزاق مضمون، فلا يجره حرص حريص، ولا يَرُدُّه كراهية كاره.

جاء في الحديث: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ العَبْدَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ»[حديث صحيح. رواه ابن حبان].

وصح عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا» [حديث صحيح. رواه ابن ماجه].

والله ﷻ ينزل الأرزاق بقدرٍ، فهو أعلم بحال العباد وما يصلحهم، ﴿۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧﴾[الشورى:٢٧]، قال ابن كثير ﵀: "خبير بصير بمن يستحق الغنى ومن يستحق الفقر".

خزائنه ملأى..

ورزق الله لا ينفد، وكل ذلك بلا ثقل ولا كلفة ولا مشقة؛ فهو رازق بلا مؤونة.

جاء في الحديث القدسي: «يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي؛ فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ» [أخرجه مسلم].

ومع أن الله يرزق الخلق جميعًا؛ فإنه واسع الحلم، وصح عنه ﷺ أنه قال: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ، يَدَّعُونَ لَهُ الوَلَدَ، ثُمَّ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ» [أخرجه البخاري، ومسلم].

قف!

وكثرة الرزق لا تدل على محبة الله سبحانه وتعالى! وهذا ظن الكفار والجهال: أن زيادة الرزق تدل على محبة الله ورضاه، فالله قد قال: ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [سبأ:٣٥-٣٦].

كما أن قلة الرزق لا تدل على الإهانة: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ

أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا﴾[الفجر:١٥-١٧].

مفاتيح الأرزاق..

وإن من أعظم ما يضفي السعادة والطمأنينة على العبد: ركونه إلى ربه، وتوكله على رازقه، واكتفاءه بولايته ورعايته، ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾[الأعراف:١٩٦].

وإذا تولى الله العبد؛ جعل التقوى في قلبه، وهي من أعظم أسباب الرزق؛ وهي أعظم من كل نظريات الاقتصاد: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾[الأعراف:٩٦]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق:٢-٣].

ومن سنن الله ﷻ في الكون: أن الرزق مرتبط بالطاعة: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾[المائدة:٦٦].

وكذا بالعكس؛ فإن المعاصي تمنع الرزق وتمحق البركة: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ

يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ [الروم:٤١].

❑ أرزاق منسية!؟

حسن الخلق وأمن في وطن، وصحة جسد، وقوت يوم، ولقاء محب، ووجود أخ، وضحكة ابن، وصلاح زوجة، وصديق صالح، وسكينة روح، وعين ترى، ولسان ينطق، وأذن تسمع، ونوم هنيء، وأعظم ذلك: من من الله عليه بوجود والديه أو أحدهما.

وَإِذَا رُزِقْتَ خَلِيقَةً مَحْمُودَةً — فَقَدْ اصْطَفَاكَ مُقَسِّمُ الأَرْزَاقِ
فَالنَّاسُ هَذَا حَظُّهُ مَالٌ وَذَا — عِلْمٌ وَذَاكَ مَكَارِمُ الأَخْلَاقِ

❑ أخيراً..

ليحذر العبد من تخويف الشيطان له في الرزق؛ فالله ﷻ قال:

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة:٢٦٨].

ويقول أحد السلف: صدق الناس إبليس، وكذبوا الله في الرزق!!

النَّفْسُ تَجْزَعُ أَنْ تَكُونَ فَقِيرَةً
وَالفَقْرُ خَيْرٌ مِنْ غِنًى يُطْغِيهَا
وَغِنَى النَّفْسِ هُوَ الكَافِي فَإِنْ
أَبَتْ فَجَمِيعُ مَا فِي الأَرْضِ لا يَكْفِيهَا

اللهم ارزقنا! الهدى والتقى والعفاف والغنى وأنت خير الرازقين.

(٣٦)

الفَتَّاحُ جل جلاله

يا من مل من الحياة، وسئم العيش، وضاق ذرعًا بالأيام، وذاق الغصص! إن هناك فتحًا مبينًا، ونصرًا قريبًا، وفرجًا بعد شدة، ويسرًا بعد عسر، إن هناك لطفًا خفيًّا من بين يديك ومن خلفك، وإن هناك أملاً مشرقًا ومستقبلاً حافلاً، ووعدًا صادقًا: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾[الروم:٦].

إن لضيقك مع الفتاح فرجةً وكشفًا، ولهمك مع الفتاح أنسًا.

قال الله سبحانه وتعالى عن نفسه: ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾[سبإ:٢٦].

فربنا سبحانه وتعالى يفتح مغاليق القلوب بالهدى والإيمان والتقى.

وربنا سبحانه وتعالى هو الذي يفتح ويحكم ويقضي بين عباده بالحق في الآخرة؛ حكمًا لا جور فيه ولا جنف ولا ظلم، ولكنه عدل وحق، والله خير الفاتحين: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾[سبإ:٢٦].

وربنا سبحانه وتعالى يكشف الغمة عن عباده، ويسرع بالفرج، ويرفع الكرب، ويزيل الضراء، ويفيض بالرحمة، ويفتح أبواب الرزق، ويفتح لعباده في شؤون

دنياهم ما يصلح به عيشهم وتستقيم حياتهم، ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢﴾[فاطر:٢].

وربنا سبحانه وتعالى هو الذي فتح أبواب العلم والحكمة والمعرفة والبصيرة لأنبيائه وأوليائه وعباده الصالحين: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٨٢﴾[البقرة: ٢٨٢].

وربنا سبحانه وتعالى الذي فتح الممالك والأمصار لعباده الصالحين المؤمنين، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾[الفتح: ١].

وربنا سبحانه وتعالى هو الذي يفتح بأنواع النعم للعاصين؛ استدراجًا لهم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤﴾[الأنعام:٤٤] .

وَكَذَلِكَ الفَتَّاحُ مِنْ أَسْمَائِهِ ... وَالفَتْحُ فِي أَوْصَافِهِ أَمْرَانِ
فَتْحٌ بِحُكْمٍ وَهُوَ شَرْعُ إِلَهِنَا ... وَالفَتْحُ بِالأَقْدَارِ فَتْحٌ ثَانِي
وَالرَّبُّ فَتَّاحٌ بِذَيْنِ كِلَيْهِمَا ... عَدْلاً وَإِحْسَانًا مِنَ الرَّحْمَنِ

□ حقيقة..

ذكرت في التعريف ما ذكره العلماء من تعريف لاسم الله: (الفتاح)، وهو تعريف شامل، لكن في هذه السطور سأقف عند قوله جل جلاله: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ

لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ [فاطر:٢]:

حقيقة لا بد أن يتذكرها المؤمن على الدوام، وهي: أنه لا عبور لأي رغبة إلا عن طريق الله ﷻ، ولا وجود لأي حاجة إلا في ساحة الله ﷻ، ولا إمكانية لحدوث شيء إلا بالله ﷻ؛ فإنه وحده الذي لا حول في الوجود ولا قوة إلا به ﷻ.

ولا يمكن لخلية أن تتحرك، ولا لذرة أن تكون، ولا لقطرة أن تتبخر، ولا لورقة شجر أن تسقط إلا بحوله وقوته ﷻ.

ولا يستطيع العالم كله أن يمسك بسوء لم يرده الله ﷻ، ولا يستطيع العالم كله أن يدفع عنك سوءاً قدره الله ﷻ.

كتب بعض السلف لأخ له: أما بعد؛ فإن كان الله معك فمن تخاف؟ وإن كان عليك فمن ترجو؟!

▢ المفاتيح بيده..

يحتاج المريض إلى الشفاء بعد أن أوجعته الآلام، وأتعبته الأوجاع، وضاقت به الدنيا، وعَجزَ عنه الأطباء، وأغلق باب الدواء دونه؛ فإذا بالرحمن الفتاح

العليم الشافي يشفيه بسبب، أو بأضعف سبب، أو بأقرب سبب، أو بلا سبب... إِنَّهُ الفَتَّاحُ ﷻ.

تهشمك الظروف، وتتواطأ ضدك الكروب، وتتكالب عليك الأزمات، وتتزاحم في قلبك الآلام، ويغلق الباب دونك؛ حتى تظن أن ليس لهذا الهم والغم كاشفة؛ فإذا بِالْفَتَّاحِ يُرْسِلُ إليك فتحه بأيسر الأمور، وتتم إرادته على ما يشاء.

يدركك الفقر، وتغشاك الديون، وتتغير ملامحك، وينكسر قلبك عندما تتذكر أبناءك، وتخشى من صاحب الدين، ويحار فكرك، وتتشتت أفكارك؛ ويغلق الباب دونك.

هنا يرسل الفتاح ﷻ بفرج خفي؛ فيقضى الدين، وينقشع الفقر، وتسر النفس.. إنه الفتاح؛ الذي فتح أبواب الرزق.

يغيب الابن، ويسافر الوالد، ويذهب الحبيب والصديق، ويؤسر العالم؛ فتضيق النفس، وتتشتت الأفكار، ويرجف القلب كلما تذكر الغائب؛ وهنا ينطرح المؤمن عند باب الملك الفتاح، سائلاً أن يرد الغائب ويحفظه؛ سواءً أكان أسيرًا أم مسافرًا، فإذا بالبشرى من فوق سبع سماوات؛ بقدوم الغائب، وفك الأسير، ورد الحبيب؛ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢].

❑ أقبل عليه!

إنه الفتاح العليم ﷻ؛ فما أعظم شأنه، وأعلى مكانه، وأقربه من خلقه، وألطفه بعباده.

فباب الفتاح مفتوح، فإذا رأيت الحبل يشتد؛ فاعلم أنه سينقطع، وإذا اشتد الظلام؛ فأبشر بصبح قريب، لا تضق ذرعًا مع الرب الكريم الفتاح، فمن المحال دوام الحال، وأفضل العبادة: انتظار الفرج، والأيام دول، والدهر قُلَّبُ، والليالي حُبالى، والغيب مستور، والفتاح ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾[الرحمن:٢٩]، و﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾[الطلاق:١]، ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ٦﴾[الشرح:٥-٦].

قُـلْ لِلطَّبِيــبِ تَخَطَّفَتْــهُ يَـدُ الـرَّدَى:
مَــنْ يَــا طَبِيــبُ بِطِبِّــهِ أَرْدَاكَــا؟

قُـلْ لِلمَــرِيضِ نَجَـا وَعُـوفِيَ بَعْـدَمَا
عَجِزَتْ فُنُوْنُ الطِّـبِّ: مَنْ عَافَاكَـا؟

قُـلْ لِلـصَّحِيحِ يَمُـوْتُ لاَ مِـنْ عِلَّـةٍ:
مَـنْ بِالمَنَايَـا يَـا صَـحِيحُ دَهَاكَـا؟

هَـذِي عَجَائِــبُ طَالَمَـا أُخِـذَتْ بِهَـا
عَيْنَــاكَ وَانْفَتَحَــتْ بِهَـا أُذُنَاكَـا

يَـا أَيُّهَـا الإِنْـسَانُ مَهْـلاً مَـا الَّـذِي
بِــاللهِ جَــلَّ جَلاَلُــهُ أَغْرَاكَــا؟

فتح خاص..

الأرزاق من الفتاح قد قسمت، فرُبَّ رجل فُتح له في إطالة الصلاة ولم يُفتح له في كثرة الصوم، وآخر فُتح له في الصدقة ولم يُفتح له في العلم، والآخر فُتح له في القرآن ولم يُفتح له في أعمال البر، وآخر فُتح له باب برِّ والديه... فهنيئًا لم فُتح عليه.

فَإِذَا أَحَبَّ اللهُ بَاطِنَ عَبْدِهِ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ مَوَاهِبَ الفَتَّاحِ
وَإِذَا صَفَتْ للهِ نِيَّةُ مُصلِحٍ مَالَ العِبَادُ عَلَيْهِ بِالأَرْوَاحِ

اللهم! افتح علينا من بركات الأرض والسماء، وافتح لنا أبواب رحمتك، واجعلنا مفاتيح خير مغاليق شر؛ يا فتاح يا عليم!

(٣٧)

السَّمِيعُ جل جلاله

في الوقت الذي يريدك الله أن تعلم: أنه على العرش استوى، يريدك أن تتيقن: أنه يسمعك ويراك؛ يسمع كلماتك، ويرى أفعالك، لا تخفى عليه منك خافية، يسمع مناجاتك ونداءك له، خواطرك مكشوفة، ودعاؤك مسموع، وطلبك ملبى، واستغفارك مجاب، وتوبتك مقبولة.

فهل حطمتك الأوجاع؟ هل روحك تئن شوقًا إلى ربها؟ فالله يسمع أنينك، وهو أقرب إليك من حبل الوريد؛ يجيبك، يكشف غمك، يفرج همك.. إنه هو السميع العليم.

قال سبحانه وتعالى مثنيًا على نفسه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٣٧﴾[البقرة:١٣٧].

ورد اسم الله: (السميع) في كتابه العزيز في خمسة وأربعين موضعًا.

فربنا سبحانه وتعالى سميع؛ أحاط سمعه بجميع المسموعات، فكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعها؛ سرها وعلنها، وكأنها لديه صوت واحد، لا تختلط عليه الأصوات، ولا تخفى عليه جميع اللغات، والقريب منها والبعيد والسر والعلانية عنده سواء، قال سبحانه وتعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ

﴿ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ١٠﴾[الرعد: ١٠].

واشتراك المخلوق مع الخالق ﷻ في هذا الاسم لا يعني: المشابهة -تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا-؛ لأن صفات المخلوق تناسب ضعفه وعجزه وخلقه، وصفات الخالق تليق بكماله وجلاله ﷻ، ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾[الشورى:١١].

فالسمع هنا يأتي بمعنى: السمع والإحاطة، ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾ [المجادلة:١]، ويأتي بمعنى: الاستجابة والقبول: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾[إبراهيم:٣٩].

وَهُوَ السَّمَيعُ يَرَى وَيَسْمَعُ كُلَّ مَا
فِـي الكَـوْنِ مِـنْ سِـرٍّ وَمِـنْ إِعْـلاَنِ
وَلِكُـلِّ صَـوْتٍ مِنْـهُ سَـمْعٌ حَاضِـرٌ
فَالـسِّـرُّ وَالإِعْـلاَنُ مُـسْتَوِيَانِ
وَالـسَّمْعَ مِنْـهُ وَاسِـعُ الأَصْـوَاتِ لاَ
يَخْفَـى عَلَيْـهِ بَعِيـدُهَا وَالـدَّانِي

❐ إنه سميع قريب:

جاء في «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ سمع الصحابة رضي الله عنهم يدعون ربهم بأصوات مرتفعة؛ فقال ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ! ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، وَلَكِنْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا»، وبمجرد أن ينتهي العبد من مناداته ومناجاته فإذا بالإجابة تلوح.. لأنه السميع العليم.

يسمع نداء المضطرين، ويجيب دعاء المحتاجين، ويعين الملهوفين، ويسمع حمد الحامدين، ويسمع دعاء الداعين، وَيَسْمَعُ دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويسمع خطرات القلوب، ويسمع هواجس النفوس، ويسمع مناجاة الضمائر.

تأتي امرأة تجادل في زوجها عند رسول الله ﷺ -وهي: خولة رضي الله عنها-، وعائشة رضي الله عنها في طرف البيت تقول أنها تسمع كلمةً وتغيب كلمة، وبعد ذلك الجدال ينزل جبريل عليه السلام على محمد ﷺ بقوله جل وعلا: ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾[المجادلة:١]. يا له من قرب عجيب، وعلم عظيم، وسمع محيط!

سمعُ الله لأوليائه: سمع إجابة وحفظ وتوفيق، سمع يهدئ من روعهم كما هدأ من روع موسى عليه السلام عندما أعلن خوفه من الذهاب إلى فرعون، فقال له جل وعلا: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾[طه: ٤٦].

الله حاميهم، والله حسيبهم؛ وكفى به حسيبًا!

❑ مفاتيح الفرج:

إذا صفعتك المخاوف، وادلهمّت عليك الخطوب؛ فتوسل إلى ربك بهذا الاسم العظيم؛ كما توسل الأنبياء عليهم السلام به، فهو الذي يسمع المناجاة، ويجيب عند الاضطرار، ويكشف السوء.. فلا تسمع همك لأحد، انطرح عنده ساجدًا، أنخ مطاياك ببابه، وتحدث إليه وابك بين يديه، ثم انتظر الفرج.

زكريا عليه السلام يعطيه الله ما في قلبه بعد أن ناداه سرا؛ ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم:٣]، فيهب له الذرية الصالحة؛ بعد تضرعه باسمه: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾[آل عمران:٣٨].

إبراهيم عليه السلام يسأل الله بهذا الاسم أن يتقبل عمله؛ حين أنهى هو وابنه إسماعيل عليه السلام بناء الكعبة: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾[البقرة:١٢٧].

وبهذا الاسم المبارك إبراهيم عليه السلام يشكر الله على استجابة دعائه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾[إبراهيم:٣٩].

وبهذا الاسم تتقرب امرأة عمران إلى ربها بقبول عملها؛ حين نذرت ما

في بطنها: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥﴾[آل عمران:٣٥].

ضاقت الدنيا بيوسف عليه السلام من مكايد الفساد حوله؛ فدعا ربه: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤﴾ [يوسف:٣٣-٣٤].

يونس عليه السلام في بطن الحوت ينادي: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾[الأنبياء:٨٧]، فكان الصوت الضعيف المنطلق من الظلمات الثلاث يخترق السماء، فإذا بالسميع العليم جل وعلا ينجيه من الغم: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّ﴾[الأنبياء:٨٨].

واللهُ سبحانه وتعالى يبتلي عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه، قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[يوسف:٨٦].

❐ السميع يحفظك..

تجتمع عليك شياطين الإنس والجن؛ فيأخذون بالوسوسة والقهر حتى تصاب بالهم والحزن، فيأمرك الله بالاستعانة به والاستعاذة به منهم باسميه: (السميع العليم)؛ ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٠٠﴾[الأعراف:٢٠٠].

يجتمع عند البيت قرشيان وثقفي أو ثقفيان وقرشي؛ فيقولون عن الصحابة: كثيرة شحوم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟

قال الآخر: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا.

وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا؛ فإنه يسمع إن أخفينا! فأنزل الله ﷻ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢٢ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾[فصلت:٢٢-٢٣].

❐ ذكرى..

وكان نبينا ﷺ يستعيذ بهذين الاسمين: (السميع العليم) إذا قام لصلاة الليل؛ فيقول: «أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ؛ مِنْ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْثِهِ»[حديث صحيح. رواه أبو داود].

وتعوذ ﷺ بالاسمين: (السميع العليم) من كل ضرر يصيبه: «مَنْ قَالَ: بِسْمِ اللهِ الَّذِي لاَ يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ، فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ؛ لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلاَءٍ حَتَّى يُصْبِحَ، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يُصْبِحُ ثَلاَثُ مَرَّاتٍ؛ لَمْ تُصِبْهُ فَجْأَةُ بَلاَءٍ حَتَّى يُمْسِيَ»[حديث صحيح. رواه أبو داود].

واستشعارك لهذا الاسم (السميع) يجعلك في قرب دائم منه ﷻ.

اللهم يا سميع.. يا عليم! اجعلنا ممن دعاك فأجبته، وتضرع إليك فرحمته.

(٣٨)

البَصِيرُ جل جلاله

ذكر أبو نعيم في «الحلية»: "أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر ليلاً في سكك المدينة؛ فسمع عجوزًا تقول لابنتها: امزجي اللبن بالماء، فقالت البنت: أما علمت أن عمر نهى عن مزج اللبن بالماء؟ فقالت العجوز: وأين عمر حتى يرانا؟! فقالت البنت -الموقنة بنظر الله تبارك وتعالى إليهما-: إن كان عمر لا يرانا؛ فرب عمر يرانا!".

هناك أناس عاشوا في هذه الدنيا في منزلة عالية، في أمن دائم، في سعادة أبدية، في ثبات على الحق، متلذذين بالعبودية؛ وما ذاك إلا لأنهم علموا: أن الله بصير بما يعملون.

ورد اسم الله (البصير سبحانه وتعالى) في القرآن الكريم في اثنين وأربعين موضعًا، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾[المائدة:٥٤].

فربنا الذي يبصر كل شيء؛ وإن دق وصغر، فيبصر دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء، يبصر ما تحت الأرضين السبع، كما يبصر ما فوق السماوات السبع.

وهو البصير العالم بالأحوال كلها، وبخفيات الأمور؛ الخبير بها، المطلع على بواطن الأمور.

وَهُوَ البَصِيرُ يَرَى دَبِيبَ النَّمْلَةِ ... السَّوْدَاءِ تَحْتَ الصَّخْرِ وَالصُّوَّانِ
وَيَرَى مَجَارِي القُوْتِ فِي أَعْضَائِهَا ... وَيَرَى عُرُوْقَ بَيَاضِهَا بِعَيَانِ
وَيَرَى خِيَانَاتِ العُيُوْنِ بِلَحْظِهَا ... وَيَرَى كَذَاكَ تَقَلُّبَ الأَجْفَانِ

ربنا سبحانه وتعالى أثبت صفة (البصر) له عز وجل، فالله له عينان حقيقيتان، تليقان بذاته سبحانه وتعالى، نؤمن بها من غير تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١].

واشتراك المخلوق مع الخالق في هذا الاسم لا يعني: المشابهة؛ فإن صفات المخلوق تناسب ضعفه وعجزه وخلقه، وصفات الخالق تليق بكماله وجلاله سبحانه وتعالى ؛ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١].

ومن رحمة الله عز وجل بعباده: أنه يخاطبهم خطاب رحمة، وحثهم على طاعته والإخلاص له؛ مع أنه غني عن عبادتهم؛ ففي كتاب الله -العزيز- خاطب بقوله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فوق الأربعين مرةً؛ ليذكر المؤمن، وينبه الغافل بأن الله مطلع على أعمالهم.

❑ حلاوة الامتثال..

ومن علم أن ربه مطلع عليه؛ استحى أن يراه على معصيته أو فيما لا

يحب، ومن علم أن الله يراه؛ أحسن عمله وعبادته، وأخلص فيهما حتى يصل لمقام الإحسان؛ وهو أعلى مقامات الطاعة؛ التي قال عنها الحبيب ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنَّ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» [أخرجه البخاري ومسلم].

فإذا بلغ ذلك كان في معية الله الخاصة لعباده؛ كما قال الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ؛ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ» [أخرجه البخاري].

ومن علم أن الله يراه على ما هو عليه من الابتلاء، اطمأنَّ قلبه، وسكنت نفسه، وتيقن أن الفرج قريب.

ومن علم أنه يراه استحى من الله أن يراه خائنًا في أعماله وأقواله غاشًّا لعباده.

خرج ابن عمر رضي الله عنهما إلى مكة في بعض أصحابه، فاستراحوا في الطريق، فانحدر عليهم راعٍ من جبل، فقال له ابن عمر: "يا راعي الغنم! بعنا شاةً!

فقال الراعي: إني مملوك -أي: أنا عبد مملوك-.

فقال له ابن عمر: قل لسيدك: أكلها الذئب.

فقال الراعي: أين الله؟".

فبكى ابن عمر، واشترى الغلام (الراعي) من سيده وأعتقه.

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ

خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيْبُ

وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفَلُ سَاعَةً
وَلا أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

راود بعضهم أعرابيةً عن نفسها؛ فقال لها: لا يرانا إلا الكواكب، فقالت له: أين مكوكبها؟

وقد قيل: من راقب الله في خواطره؛ عصمه في حركات جوارحه.

وإذا نظرت إلى السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ وجدت أن الشيء المشترك بينهم أنهم: آمنوا حق الإيمان بأن الله ينظر إليهم؛ فعبدوه كأنهم يرونه؛ فنالوا المنزلة.

وبهذا الاسم دعا الرجل الصالح من قوم موسى، ملتجئًا لله ﷻ معتصمًا به من مكر فرعون وقومه: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٤٤﴾[غافر:٤٤].

فماذا كانت النتيجة؟

استجاب الله لدعائه: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥﴾[غافر:٤٥] .

يَا مَنْ يَرَى صَفَّ البَعُوضِ جَنَاحَهَا
فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ البَهِيمِ الأَلْيَلِ
وَيَرَى نِيَاطَ عُرُوْقِهَا فِي نَحْرِهَا
وَالمُخَّ مِنْ تِلْكَ العِظَامِ النُّحَلِ

أُمْـنُنْ عَلَـيَّ بِتَوْبَـةٍ تَمْحُـوْ بِهَـا
مَـا كَـانَ مِنِّـي فِـي الزَّمَـانِ الأَوَّلِ

❑ ذكـرى..

والمؤمن يحذر من ذنوب الخلوات والإصرار عليها دون توبة، جاء في «الصحيح» من حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالَ جِبَالِ تِهَامَةَ بيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللهُ عز وجل هَبَاءً مَنْثُورًا»، قال ثوبان: يا رسول الله! صفهم لنا، جلهم لنا؛ أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم! قال: «أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا» [رواه ابن ماجه] وهؤلاء الذين يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا.

والخلوة إما ترفع وإما تخفض، فمن عظّم اللهَ في خلوته عظّمه الناس في جلوته.

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله: " النفاق الأصغر كلّه يرجع إلى اختلاف السريرة و العلانية"، وقال : "الخاتمة الحسنة لا تقع إلا لمن كانت سريرته حسنة؛ لأن لحظة الموت لا يمكن تصنّعها، فلا يخرج حينئذٍ إلا مكنون القلب".

اللهم يا بصير! ارحم ضعفنا وتجاوز عن تقصيرنا وزلاتنا وتوفنا مسلمين؛ يا رب العالمين.

(٣٩)

التَّوَّابُ جل جلاله

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "اجلسوا إلى التوابين؛ فإنهم أرق أفئدةً".

أَسَأْتُ وَلَمْ أُحسِنْ، وَجِئْتُكَ تَائِبًا ... وَأَنَّى لِعَبْدٍ مِنْ مَوَالِيهِ مَهْرَبُ

يُؤَمِّلُ غُفْرَانًا فَإِنْ خَابَ ظَنُّهُ ... فَمَا أَحَدٌ مِنْهُ عَلَى الأَرْضِ أَخْيَبُ

نعيش مع اسم الله: (التواب جل وعلا):

ما أحلى اسم الله التواب؛ يعطي المذنب أملاً ليبدأ من جديد في مرحلة السعادة، ويخرج به من دائرة الإحباط والظلام، ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾ [التوبة:١٠٤].

ربنا سبحانه وتعالى هو التوَاب، وصف نفسه بالتواب بصيغة المبالغة؛ لكثرة من يتوب عليه، ولما كانت المعاصي متكررةً من عباده؛ جاء بصيغة المبالغة، ليقابل الخطايا الكبيرة بالتوبة الواسعة.

فهو سبحانه وتعالى ما زال يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين؛ حتى لو تكررت التوبة تكرر القبول إلى ما لا نهاية.

قــال ﷻ: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾[المائدة:٣٩].

جاء في «المستدرك»: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله! أحدنا يذنب، قال: «يُكْتَبُ عَلَيْهِ»، ثم قال: يستغفر منه ويتوب، قال: «يُغْفَرُ لَهُ وَيُتَابُ عَلَيْهِ، وَلاَ يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا»[حديث حسن].

فكل من تاب إلى الله توبةً نصوحًا؛ تاب الله عليه وقبله.

ما أكرم الله!

وانظر إلى كرم الله حين أكرم عبده أن جعل توبته محفوفةً بتوبة من الله عليه قبلها، وتوبة منه بعدها، فتوبة العبد بين توبتين من ربه ﷻ: سابقة، ولاحقة.

فإنه تاب عليه أولاً: إذنًا وتوفيقًا وإلهامًا؛ حيث حرك دواعي قلبه للتوبة، ثم قام بالتوبة، وهذا توفيق من الله الكريم الرحيم التواب.

ثم لما تاب بالفعل تاب الله عليه؛ فقبل توبته، وعفا عن خطاياه وذنوبه، قال ﷻ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾[التوبة: ١١٨].

لا إله إلا الله، له الفضل بالتوبة أولاً وأخيرًا.

وَكَذلِكَ التَّوَّابُ مِنْ أَوْصَافِهِ ... وَالتَّوْبُ فِي أَوْصَافِهِ نَوْعَانِ
إِذْنٌ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ وَقَبُوْلُهَا ... بَعْدَ المَتَابِ بِمِنَّةِ المَنَّانِ

وكذا الأعمال الصالحة بهذه المثابة؛ ألهمها للعبد، ثم أثابه عليها؛ فالله المبتدئ بالإحسان والنعم، المتفضل بالجود والكرم.

❑ **ذكرى..**

والتوبة: واجبة على البشر جميعًا، في جميع مراحل العمر، من مؤمنهم وعاصيهم؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾[النور:٣١].

والتوبة: من الكمال الذي يحبه الله، وليست نقصًا، والله ﷻ قد قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾[البقرة:٢٢٢]، وقال ﷻ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾[التوبة:١١٧]،.

وقال عن آدم عليه السلام: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾[البقرة:٣٧].

وقال عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾[البقرة:١٢٨].

وقال عن موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾[الأعراف:١٤٣].

ومن المعلوم: أن الأنبياء معصومون من الإقرار على الذنوب -كبارها وصغارها-، وهم بما أخبر به عنهم من التوبة ترفع درجاتهم، وتعظم

حسناتهم؛ فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين.

وفي «صحيح البخاري» عنه ﷺ: أنه قال: «وَاللهِ! إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً».

❑ لولا أنكم تذنبون..

والله يعلم أن عباده لا يخلون من قصور ونقص، وقد خلقهم كذلك؛ لتظهر فيهم رحمته وغفرانه وتوبته، صح عنه ﷺ أنه قال: «لَوْ أَنَّكُمْ لَمْ تَكُنْ لَكُمْ ذُنُوبٌ يَغْفِرُهَا اللهُ لَكُمْ، لَجَاءَ اللهُ بِقَوْمٍ لَهُمْ ذُنُوبٌ يَغْفِرُهَا لَهُمْ»[رواه مسلم].

قال ﷺ: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[حديث صحيح. رواه الترمذي].

وقد امتدح الله نفسه تعالى بقبول توبة عباده؛ فقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾[غافر:٣].

والله يريد من عباده: أن يعلموا أنه: يقبل توبة عبده؛ حتى ولو عظمت ذنوبه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[الزمر:٥٣].

ربنا غني عنا، وعن عبادتنا، ومع ذلك يفرح فرحًا شديدًا بتوبة عبده إذا تاب، فما أكرم الله! وما أجمل الله! وما أرحم الله!

جاء في «الصحيحين» عنه ﷺ أنه قال: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ المُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ، مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ، فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ العَطَشُ.

ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ؛ فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيَمُوتَ، فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ، وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ العَبْدِ المُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادِهِ».

قال ابن تيمية رحمه الله: "كلُّ من تابَ فهوَ حبيبُ الله"، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢].

فحري بمن هذا وصفه في رحمته بعباده: أن يُحَبَّ الحبَّ كُلَّه، وأن يُعبَد وحده لا شريك له، وأن تظهر آثار هذه المحبة بإخلاص العبادة له، والتقرب إليه بطاعته ومحبة من يحبه وما يحبه، وببغض من يبغضه وما يبغضه.

قال بلال بن سعد: "إن لكم ربًّا ليس إلى عقاب أحدكم بسريع، يقيل العثرة، ويقبل التوبة، ويقبل على المقبل، ويعطف على المدبر، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشورى: ٢٥].

❐ على عتبة الباب..

التوبة: هروب من المعصية إلى الطاعة، ومن السيئة إلى الحسنة، ومن وحشة العصيان إلى الأنس بالرحمن.

إنها فرار من الخالق إلى أعتابه، وهروب من الجبار إلى رحابه، وعياذ

برضاه من سخطه، وبمعافاته من عقوبته، وبه منه لا نحصي ثناءً عليه، ولا ملجأ منه إلا إليه، ولا مفر منه إلا إليه؛ ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾ [الذاريات: ٥٠].

يَـا رَبِّ إِنْ عَظُمَـتْ ذُنُـوبِي كَـثْـرَةً ... فَلَقَـدْ عَلِمْـتُ بِـأَنَّ عَفْـوَكَ أَعْظَـمُ

إِنْ كَـانَ لاَ يَرْجُـوْكَ إِلاَّ مُحْـسِنٌ ... فَـبِمَنْ يَلُـوْذُ وَيَـسْتَجِيرُ الْمُجْـرِمُ

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "عجبًا لمن يهلك ومعه النجاة! قيل: وما هي؟ قال: التوبة والاستغفار".

قال ابن القيم رحمه الله: "أغلب ما يحمل المسلم على الذنب (الاتكال على التوبة) ولو علم أنه قد يحال بينه وبينها لهاج خوفه".

والتوبة الصادقة لا تكون إلا بـ: ترك الذنب، والندم على فعله، والعزم على عدم معاودته، واستبداله بعمل صالح، ثم إذا كان متعلقًا بحق العباد فليتحلل من صاحبه.

قال شقيق البلخي رحمه الله: "علامة التوبة: البكاء على ما سلف، والخوف من الوقوع في الذنب، وهجران إخوان السوء، وملازمة الأخيار".

والتوبة الصادقة مقبولة إلا في موضعين: إذا طلعت الشمس من مغربها، وعند الغرغرة.

❑ هزات إيقاظ..

وقد يبتلي الله عز وجل عبده المؤمن بما يتوب منه لتكمل عبوديته، ويتضرع

ويخشع وينيب إلى ربه.

فكم من إنسان ابتعد عن الله؛ فضيق الله ﷻ عليه حتى يرجع إليه، فلما رجع، وذاق طعم القرب منه، وشعر بنعمة الاستقامة والتوبة؛ شكر الله على هذه المصيبة والشدة التي كانت سببًا في نجاته وفلاحه، ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١﴾[السجدة:٢١].

فلو تركت على معاصيك وانحرافاتك ولم تتب، ورأيت النعم بين يديك؛ فاعلم أنك مبغوض إليه، وأن هذا استدراج منه لك؛ لأن الله ﷻ قَالَ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾[الأنعام: ٤٤].

ثم إذا أعلنت التوبة؛ فاطلب من الله الثبات، فقد كان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ! ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[حديث صحيح. رواه البخاري في «الأدب المفرد»].

اللهم! تب علينا إنك أنت التواب الرحيم، واغفر لنا ولوالدينا؛ إنك أنت الغفور الرحيم.

(٤٠)
العَلِيمُ جل جلاله

تتستر الصدور بخواطر وواردات ومقاصد ونيات، لا ينفذ إليها سمع، ولا يصل إليها بصر؛ فيطلع عليها الحكيم العليم.

وتتكتم الضمائر عن مستودعات الأفكار؛ فلا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا ولي محبب، ولا عالم جهبذ، ولا شيطان مارد؛ ويعلمها علام الغيوب.

ويلف الجنين بغشاء إثر غشاء في رحم أمه؛ فلا يدرى أحي أم ميت؟ أذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟

لا يدرى أجله ولا رزقه ولا عمره! ويعلم ذلك من أحاط بكل شيء علمًا، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾[البقرة:٢٨٢].

العِلْمُ: نقيض الجهل.

وربنا سبحانه وتعالى أحاط علمه بالظاهر والباطن، والإسرار والإعلان، وأحاط بالعالم العلوي والسفلي، وأحاط علمه بالماضي والحاضر والمستقبل، قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾[طه:

١١٠].

وهو عالِم ﷻ بكل ما أخفته صدور خلقه؛ من إيمان وكفر، وحق وباطل، وخير وشر؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾[آل عمران:١١٩]، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٨٢﴾[البقرة:٢٨٢].

النجوى عنده جهر، والسر لديه علانية، والخافي لديه مكشوف.

وَهُوَ العَلِيمُ أَحَاطَ عِلْمًا بِالَّذِي ... فِي الكَوْنِ مِنْ سِرٍّ وَمِنْ إِعْلانَ
وَبِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمُهُ سُبْحَانَهُ ... قَاصِي الأُمُورِ لَدَيْهِ قَبْلَ الدَّانِي
لاَ جَهْلَ يَسْبِقُ عِلْمَهُ كَلاَّ وَلا ... يَنْسَى كَمَا الإِنْسَانُ ذُو نِسْيَانِ

❑ إنه العليم:

الورقة تسقط بعلمه، والهمسة تصدر بعلمه، والكلمة تقال بعلمه، والنية تعقد بعلمه، والقطرة تنزل بعلمه..

علم الحي والميت، والرطب واليابس، والحاضر والغائب، والسر والجهر، والكثير والقليل: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ٥٩﴾[الأنعام:٥٩].

وحدث بعض الصحابة أنفسهم بحديث لم يظهروه، بل كتموه وأسروه؛ فأنزل الله ﷻ: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾

[البقرة:١٨٧].

وأسر النبي ﷺ إلى بعض أزواجه حديثًا، فعرف بعضه وأعرض عن بعض، فقالت: من أنبأك هذا؟ ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ③﴾ [التحريم: ٣].

جلس عمير بن وهب وصفوان بن أمية -بعد بدر- عند الكعبة ليلاً يدبران اغتيال رسول الله ﷺ؛ فأخبر الله ﷻ رسوله بكيدهم، وأطلعه على فعلهم: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ④﴾ [الأنبياء:٤].

وتناجى المنافقون في تبوك فيما بينهم، وهمزوا ولمزوا رسول الله ﷺ والصحابة رضي الله عنهم والدين؛ فأطلع علام الغيوب رسوله على كيدهم ومكرهم وسخريتهم: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ⑦⑧﴾ [التوبة:٧٨].

□ علم الله كامل وشامل:

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ⑨⑧﴾ [طه: ٩٨].

ولا يشابهه أحد من مخلوقاته في كمال علمه ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ①①﴾ [الشورى:١١].

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ②⑦﴾ [الفتح:٢٧]،

وإذا علم البشر شيئًا فهو من تعليم الله ﷻ لهم، فكل علم شرعي وقدري فمرجعه إلى الله العزيز الحكيم ﷻ؛ ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾[البقرة:٣٢].

وقال ﷻ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[النساء:١١٣].

ولو جمع الناس علومهم وما عندهم من معلومات؛ لكانت ضئيلةً جدًّا بالنسبة لعلم الله الواسع؛ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[الإسراء:٨٥].

قال الخضر لموسى عليه السلام لما ركبا السفينة، ورأى عصفورًا قد وقع على حرف السفينة؛ فنقر في البحر نقرةً أو نقرتين، قال له الخضر: "يا موسى! ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره من البحر...".

❑ حقيقة..

واختص ربنا ﷻ بعلوم الغيب: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾[الأنعام:٥٩]، وذكر منها خمسة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾[لقمان: ٣٤].

فهذه الخمسة مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله:

١- علم الساعة: مبدأ مفتاح لحياة الآخرة.

٢- تنزيل الغيث: مفتاح لحياة الأرض بالنبات.

٣- علم الأرحام: مفتاح للحياة الدنيا.

٤- علم ما في الغد: مفتاح الكسب في المستقبل.

٥- علم مكان الموت: مفتاح لحياة البرزخ، وقيامة كل إنسان بحسبه.

وعلم الغيب لا شك أنه أعظم وأوسع من أن يحصر في هذه الخمسة فقط، والإخبار هنا يحمل على: بيان البعض المهم، لا على دعوى الحصر، فالله قال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[النمل:٦٥].

ومن زعم أن أحدًا يعلم الغيب غير الله سبحانه وتعالى؛ فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

والأنبياء لا يعلمون شيئًا من الغيب؛ إلا ما أخبرهم الله به، تقول عائشة رضي الله عنها: "من زعم أن النبي صلى الله عليه وسلم يخبر بما يكون في غد؛ فقد أعظم على الله الفرية!"، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾[الأعراف:١٨٨]، فكيف بمن هو دونهم؟!

حظك منه..

ومن آتاه الله علمًا ولو كان قليلاً؛ فقد رفعه الله جل وعلا: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾[المجادلة:١١]، فكيف لو كان عالمًا تقيًّا عارفًا بالله، مؤديًّا حقه؟

فهؤلاء تيقنوا بعلم الله؛ فازدادوا له خشيةً وتعظيمًا، ولذا زكاهم الله من فوق سبع سماوات؛ فقال: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر: ٢٨].

فالعلم: أصل الخصال الشريفة، يرقى بالإنسان إلى المنازل الرفيعة..

ولا يصل لهذه المنزلة إلا بالعلم والمداومة على سؤال الله إياه، وامتثالاً بدعاء رسولنا ﷺ الذي علمه الله إياه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾[طه: ١١٤].

قال ابن حزم رحمه الله: "وأجلُّ العلوم: ما قربك من ربك".

قال ابن القيم رحمه الله: "لولا جهلُ الأكثرين بحلاوة هذه اللّذة –لذّة العلم– وعِظم قدرها؛ لتجالدوا عليها بالسّيوف، ولكن حُفَّت بحجابٍ من المكاره، وحُجبوا عنها بحجابٍ من الجهل؛ ليختصّ الله لها ما يشاء، والله ذو الفضل العظيم".

اللهم يا عليم! علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا وزدنا علمًا.

(٤١) العَظِيمُ جل جلاله

سبحانك يا عظيم!

تنزع الملك ممن تشاء، وتفقر بعد غنًى، وتخفض بعد رفعةً، وتذل بعد عزة، وتضعف بعد قوة، وترفع قدر من تشاء، وتكتب التوفيق لمن تشاء، وتضع القبول لمن تشاء، وتهب لمن تشاء وتمنع من تشاء؛ بيدك الخير؛ إنك على شيء قدير.

لا إله إلا أنت العظيم الحليم.

عَظُمَتْ صِفَاتُكَ يَا عَظِيمُ فَجَلَّ أَنْ
يُحْصِي الثَّنَاءَ عَلَيْكَ فِيهَا قَائِلُ

العظيم عز وجل: اسم من أسماء الله الحسنى، اسم جليل لربنا العظيم، يحمل في مبناه ومعناه: الجلال والعظمة، والشرف والسؤدد.

بالغ الهيبة، قوي الحروف، شامخ المعنى، قال تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥].

والعظيم ﷻ: ذو العظمة، عظيم شأنه، جليل قدره، وهو الذي جاوز حدود العقل حتى لا تتصور الإحاطة بكنهه وحقيقته.

فربنا العظيم في ذاته، ليس كمثله في عظمته..

فمن عظمته: أن السماوات والأرض في كفه أصغر من الخردلة، ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر:٦٧].

وصح عنه ﷺ أنه قال: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلاَّ كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلاةٍ، وَفَضْلُ العَرْشِ عَلَى الكُرْسِيِّ كَفَضْلِ تِلْكَ الفَلاةِ عَلَى تِلْكَ الحَلْقَةِ» [حديث صحيح. رواه ابن أبي شيبة].

هذه العظمة في الكرسي والعرش -وهي من مخلوقاته-؛ فكيف بعظمة الله ﷻ الذي له المثل الأعلى، والذي استوى على العرش، وهو فوق جميع خلقه ﷻ.

وربنا ﷻ عظيم في صفاته، فهو الموصوف بكل صفات الكمال، عظيم في رحمته، عظيم في قدرته، عظيم في هباته وعطائه، عظيم في جماله.

جاء في الحديث القدسي: «الكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا؛ قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ» [حديث صحيح. رواه أبو داود].

وربنا العظيم في أفعاله؛ لأنها تنبئ عن سعة الحكمة والعدل والفضل والمشيئة.

وَهُوَ العَظِيمُ بِكُلِّ مَعْنىً يُوْجِبُ
التَّعْظِيمَ لاَ يُحْصِيهِ مِنْ إِنْسَانِ

فالله ﷻ قد كمُل في عظمته: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾[الزمر:٦٧].

❑ ارفع يديك!

لا تتعاظم عليه المسائل؛ مهما عظمت وكثرت، صح عنه ﷺ أنه قال: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلا يَقُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ! وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»[أخرجه البخاري ومسلم -وهذا لفظه-].

وربنا عظيم في رحمته وفي مغفرته، وعظيم في حلمه، وعظيم في لطفه وجزيل كرمه، لا يتعاظمه شيء أن يغفره.

جاء في حديث الشفاعة في «الصحيحين»: أن النبي ﷺ قال: «.. يَا مُحَمَّدُ! ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ! فَأَقُولُ: يَا رَبِّ! ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي! لأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ».

وَلَمَّا قَسَا قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي
جَعَلْتُ رَجَائِي نَحْوَ عَفْوِكَ سُلَّمَا
تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ
بِعَفْوِكَ رَبِّي صَارَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا

❐ من لاذ بالعظيم نجا..

صح عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا دخل المسجد قال: «أَعُوذُ بِاللهِ العَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ القَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»، قال: «فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ؛ قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ اليَوْمِ»[حديث صحيح. رواه أبو داود].

ومن عظم الله ﷻ بلسانه؛ فلح، وثقل ميزانه يوم القيامة، صح عنه ﷺ أنه قال: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ»[أخرجه البخاري ومسلم].

بل أمر عباده بالتسبيح بهذا الاسم؛ فقال ﷻ: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾[الواقعة:٧٤].

وأمر النبي ﷺ أمته أن يسبحوا الله بهذا الاسم في صلاتهم: «فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ ﷻ»[أخرجه مسلم].

❐ مفتاح الفرج:

إذا حلت بك كارثة، وضاق صدرك، وغمرك الهم؛ فقل: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ، وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ»[أخرجه البخاري ومسلم].

وإذا خفت من سلطان؛ فسلطان الله أعظم، قال عبد الله بن مسعود: "اللهم! رب السماوات السبع ورب العرش العظيم؛ كن لي جارًا من فلان بن فلان وأحزابه من خلائقك؛ أن يفرط علي أحد منهم أو يطغى؛ عز جارك،

وجل ثناؤك، ولا إله إلا أنت".

وكان ﷺ يستعيذ بعظمة الله من الخسف في الصباح والمساء؛ فيقول: «اللَّهُمَّ! أَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ مِنْ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي»[حديث صحيح. رواه الترمذي].

لذا؛ من لاذ بالعظيم، وتقرب إلى العظيم، وأصبح من المتقين؛ نال الأمن الدنيوي والأجر الأخروي، فالله ﷻ قد قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ۝٥﴾[الطلاق:٥].

وأما أعظم درجة عند الله فهي: لهؤلاء الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٢٠﴾[التوبة:٢٠].

ومن أشرك بالله، وقصر إيمانه عن عظمة الله ﷻ؛ فإن الجزاء من جنس العمل، وهو: جهنم -أعاذنا الله منها!- ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٣].

❑ كيف يعظم المسلم ربه؟

تعظيم الله تبارك وتعالى يكون: بتعظيم أسمائه وصفاته، ويكون تعظيمه في القلب بمحبته والاعتراف بعظمته والتواضع له، جاء في «مسند الإمام أحمد»: «مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ، أَوْ اخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ؛ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ

غَضْبَانُ»[حديث صحيح].

ويكون تعظيم الله ﷻ: باللسان، وكثرة ذكره، ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ۝٧٤﴾[الواقعة:٧٤].

ويكون تعظيم الله ﷻ: في الجوارح باستخدامها في طاعته؛ فتعظيمه: أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر.

ومن تعظيم الله ﷻ: تعظيم رسله وملائكته ومناسكه؛ كالصلاة والزكاة والصيام والحج والعمرة، وغيرها من شعائر دينه وأحكامه؛ ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ۝٣٢﴾[الحج:٣٢].

ومن تعظيمه ﷻ: تعظيم كتابه العزيز، فالله ﷻ قد قال واصفاً كتابه العزيز بالعظيم: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ۝٨٧﴾[الحجر:٨٧].

ومن تعظيمه ﷻ: تعظيم حرماته، وحرمات المؤمنين، ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾[الحج:٣٠].

ومن تعظيمه ﷻ: ألا يقدم العبد على كلام ربه كلام أحد؛ مهما كانت مكانته: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١﴾[الحجرات:١].

يَـا فَـاطِرَ الخَلْـقِ البَـدِيعِ وَكَـافِلاً
رِزْقَ الجَمِيـعِ سَحَابُ جُـودِكَ هَاطِـلُ

عَظُمَتْ صِفَاتُكَ يَا عَظِيمُ فَجَلَّ أَنَّ
يُحْـصِي الثَّنَـاءَ عَلَيْـكَ فِيهَـا قَائِـلُ

هَـا قَـدْ أَتَيْـتُ وَحُـسْنُ ظَنِّـي شَـافِعِيْ
وَوَسَائِلِــــي نَـــدَمٌ وَدَمْـــعٌ سَــــائِلُ

فَـاغْفِرْ لِعَبْـدِكَ مَـا مَضَى وَارْزُقْهُ تَـوْ
فِيقًـا لِـمَا تَرْضَـى فَفَضْلُكَ كَامِـلُ

وَافْعَـلْ بِــهِ مَــا أَنْـتَ أَهْـلُ جَمِيلِـهِ
وَالظَّـنُّ كُـلُّ الظَّـنِّ أَنَّـكَ فَاعِـلُ

أسأل الله العظيم: أن يجعلنا من المتقين الفائزين بجنات النعيم!

(٤٢)

القَوِيُّ جلَّ جلالُه

يَـا رَبِّ عُـدْتُ إِلَـى رِحَابِـكَ تَائِبًـا
مُسْتَسْلِمًا مُسْتَمْسِكًا بِعُرَاكَـا

مَـا لِـي ومَـا لِلأَقْوِيَـاءِ وَأَنْـتَ يَـا
رَبِّـي عَظِـيمُ الـشَّانِ مَـا أَقْوَاكَـا

إِنِّـي أَوَيْـتُ لِكُلِّ مَـأْوَىً فِـي الحيَـاةِ
فَمَـا رَأَيْـتُ أَعَـزَّ مِـنْ مَأْوَاكَـا

حديثنا عن ربنا ﷻ القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذاريات:٥٨]، **والقائل:** ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥﴾ [الأحزاب:٢٥]، **والقائل:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾ [الحديد:٢٥].

فربنا القوي ﷻ هو الذي لا يعتريه ضعف أو قصور، ولا يتأثر بوهن أو فتور.

وربنا ﷻ هو الذي لا يغلبه غالب، ولا يمنعه مانع، ولا يدفعه دافع، ولا يرد قضاءه راد، له القوة المطلقة، والإرادة الكاملة.

وهو ﷻ المتناهي في القوة.

وربنا ﷻ كمل في قوته، قادر على الأشياء كلها؛ لا يستولي عليه عجز ولا نصب في حال من الأحوال، نافذ أمره في أي وقت شاء ﷻ؛ في أرضه أو سماواته.

قوي ﷻ فِي بطشه وعقابه.

تفرَّد بالقوة، ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[البقرة:١٦٥].

وَهُوَ القَوِيُّ بِقُوَّةٍ فِي وُصْفِهِ ... وَعَلَيْكَ يَقدِرُ يَا أَخَا السُّلْطَانِ

القوة منه..

فما لنا لا تنقطع قلوبنا إليه؟! وما لنا لا نعتمد في مهامنا وحاجتنا عليه؟! فما أفقرنا إلى قوته وغناه!!

لا قوة لنا إلا بقوته وتوفيقه ﷻ، ولا حول لنا على اجتناب المعاصي ودفع شرور النفس إلا به.

هذه القوة يمنحها الله ﷻ لمن يشاء؛ شأنها شأن الرزق العام.

والإنسان ضعيف.. خلق ضعيفاً، وولد ضعيفاً، ويموت ضعيفاً؛ قال الله ﷻ: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾[النساء:٢٨]، وقال ﷻ: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا

وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم:٥٤]؟

أيام الله ..

لما نسي كثير من العباد هذه الحقيقة -أن الأصل في الإنسان أنه: ضعيف، ولا حول ولا قوة إلا بالله-؛ جرهم الشيطان إلى الاغترار بقوتهم؛ حتى نسوا قوة الله ﷻ، فأخذوا يتمادون في غيهم!..

فهذه أمة عاد؛ قال الله ﷻ فيها: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت: ١٥].

ولما قال لهم هود عليه السلام: اتقوا الله واعبدوه وحده! قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥] قهرنا العباد، ونحن نقدر أن ندفع أي عذاب بفضل قوتنا!!.. غرهم طول أجسامهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "كان أطولهم: مائة ذراع، وأقصرهم: ستين ذراعًا".

ولما بلغ التحدي ذروته والعصيان قمته وانحلاله؛ أرسل الله ﷻ عليهم جندًا من جنده: ريحًا صرصرًا في أيام نحسات، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [فصلت:١٦].

وهذه سنة من سنن الله في الأرض، وعلى مر التاريخ: أن المغتر بقوته والمتكبر نهايته كحال قوم عاد؛ تأخذه قوة الملك الجبار.

لذا؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾[الأنعام:١١]، لعلهم يعتبرون بمصارع الغابرين! فعشرات الأمم كفرت بالله ورسله، واغترت بقوتها وشؤونها وعمارتها في الأرض؛ فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾[العنكبوت:٤٠].

أحاط المشركون بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم؛ قاصدين: اجتثاثهم من الأرض في غزوة الأحزاب؛ فأرسل الله عز وجل جندًا من جنوده: ريحًا، جعلتهم يفرون من حول المدينة: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾[الأحزاب: ٢٥].

صبي يهلك ملكًا، وماء يغرق قومًا، وبحر يدمر جيشًا، وبعوضة تذل نمرودًا، وأرض تبلع قارون، وطيور تطحن أبرهة..

إنه القوي؛ يدهشك بقوته سبحانه وتعالى.

إِلى اللهِ كُلُّ الأَمْرِ فِي الخَلْقِ كُلِّهِ وَلَيْسَ إِلَى الخَلْقِ شَيْءٌ مِنَ الأَمْرِ

ألا أدلك؟!

كلما ازداد علم العبد بمعنى اسم الله: (القوي)؛ زاد توكله على الله ﷻ، واستمد قوته منه، وذلك بالتبرؤ من حوله وقوته، صح عنه ﷺ أنه قال لأحد أصحابه: «أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ؟ لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ»[أخرجه البخاري -واللفظ له-، ومسلم]، أي: لا تحول من حال إلى حال، ولا قدرة على ذلك إلا بمعونة الله ﷻ وتسديده وتأييده.

قال عبد الله ابن مسعود ﷺ: "لا حول ولا قوة إلا بالله: لا حولَ عن معصيةِ الله إلاّ بعصمته، ولا قوَّةَ على طاعتهِ إلا بمعونتِه".

يقول ابن القيم رحمه الله: "وهذه الكلمة لها تأثير عجيب في معالجة الأشغال الصعبة، وتحمل المشاق، والدخول على الملوك ومن يخاف منه، وركوب الأهوال، ولها -أيضًا- تأثير في دفع الفقر!".

والله ﷻ يحب أن يراك متواضعًا ذاكرًا لقوته؛ ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾﴾[الكهف: ٣٩].

ومع محبة الله للمتواضعين؛ فهو يحب الأقوياء من المؤمنين، صح عنه ﷺ أنه قال: «المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ»[أخرجه مسلم].

والصفتان اجتمعتا في قوله ﷻ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

[المائدة:٥٤]، ولا قوة لأمة إلا بالعلم والعمل؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡ﴾[الأنفال: ٦٠].

كن لله كما يريد، يكن لك فوق ما تريد!

اللهم يا قوي.. يا عزيز! انصرنا على القوم الظالمين.

(٤٣)

المَتِين جل جلاله

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أصاب رجلاً حاجة؛ فخرج إلى البرية، فقالت امرأته: اللهم! ارزقنا ما نعتجن وما نختبز.

فجاء الرجل والجفنة ملأى عجينًا، وفي التنور جنوب الشواء، والرحى تطحن؛ فقال: من أين هذا؟ قالت: من رزق الله، فكنس ما حول الرحى.

فقال رسول الله ﷺ: «لَوْ تَرَكَهَا لَدَارَتْ -أو قال: طَحَنَتْ- إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[حديث صحيح. رواه الطبراني في «المعجم الأوسط»].

هذه رسالة إلى من حل به الهم، وضعف حاله، وسئم عيشه، وضاق ذرعًا بالأيام، وذاق حرارة الغصص؛ أبشرك بأن هناك فتحًا قريبًا، ونصرًا مبينًا، وفرجًا بعد شدة، وتيسيرًا بعد عسر، وقوةً بعد ضعف، ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾[الروم:٦].

نعيش مع اسم من أسماء الله الحسنى: (المتين جل جلاله):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[الذاريات:٥٨].

فربنا ﷻ المتين، أي: الشديد القوي.

قد تناهى ﷻ في القوة والقدرة؛ فهو شديد القوة، لا تنقطع قوته، ولا تلحقه في أفعاله مشقة، ولا يمسه لغوب، فله العزة جميعًا، وهو الغالب على أمره، وهو القادر الذي لا يلحقه عجز.

❐ أين هم؟!

وقد حكى الله لنا وهو المتين سبحانه: عن أمم عتت عن أمره ورسله، بل وادعت القوة والقهر؛ فحاسبها حسابًا شديدًا: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [فصلت:١٥].

فكانت العاقبة كما قال ﷻ: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢٥] .

أَيْنَ المُلُوْكُ وَمَنْ بِالأَرْضِ قَدْ عَمَرُوْا
قَدْ فَارَقُوْا مَا بَنَوْا فِيهَا وَمَا عَمَرُوْا
وَأَصْبَحُوْا رَهْنَ قَبْرٍ بِالَّذِي عَمِلُوْا
عَادُوْا رَمِيمًا بِهِ مِنْ بَعْدِ مَا دَثَرُوْا
أَيْنَ العَسَاكِرُ مَا رَدَّتْ وَمَا نَفَعَتْ
أَيْنَ مَا جَمَعُوْا فِيهَا وَمَا ادَّخَرُوْا

آتَـاهُمْ أَمْـرُ رَبِّ العَـرْشِ فِـي عَجَـلٍ
لَـمْ يُـنْجِهِمْ مِنْـهُ أَمْـوَالٌ وَلاَ نُـصِرُوْا

أمنيتك تتحقق..

فالعبد المؤمن الحق يعلم: أن الله قوي متين ﷻ، وأن الله على كل شيء قدير، يحقق الأماني، ويجعل البعيد قريبًا والحلم حقيقةً.

وهذا إبراهيم عليه السلام يأتي بأهله إلى واد غير ذي زرع؛ فيسكن المرأة الضعيفة والطفل الصغير في هذا الوادي؛ فيقول متوكلاً واثقًا بقوة الله: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾، ربي! قربتهم من بابك، وقطعت رجاءهم من دونك: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ربي! ليقوموا بخدمتك؛ فأنت أولى بهم مني ومنهم: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾[إبراهيم:٣٧] فذلل العباد لهم إذا احتاجوا إلى شيء؛ إنك على كل شيء قدير.

فإذا كنت ضعيفًا وربك قوي متين؛ فلا تخف! فأنت عبد قوي، وعبد متين، فمن توكل على الله كفاه، ومن استغنى بالله أغناه، والله تبارك وتعالى يغار أن يتعلق قلب المؤمن بغيره، وأن يعتمد على غيره، أو ينقاد إلى غيره، أو يريق ماء وجهه عند غيره.

وقصة يوسف من أحسن القصص وأوضحها وأبينها؛ لما فيها من أنواع التنقلات من حال إلى حال، ومن محنة إلى منحة ومنة، ومن ذل إلى عز،

ومن رق إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، ومن حزن إلى سرور، ومن رخاء إلى جدب إلى رخاء، ومن إنكار إلى إقرار .

ثم لا تشكُ القوي إلى الضعيف.

وَإِذَا شَكَوْتَ إِلَى ابْنِ آدَمَ إِنَّمَا
تَشْكُوْ الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لاَ يَرْحَمُ

فالقوة: أن تتمسك بالله ﷻ دون غيره؛ أفرادًا وأممًا، أما ترى إلى حالة الأمة الإسلامية عندما تخلت عن اعتمادها على الله، وعلقت آمالها بعدوها؟! سقطوا عند الله، وسقطوا في أعين أعدائهم! فهم في ذل وخسارة، ولن تعود إليهم العزة والمنعة حتى يتعلقوا بالله القوي المتين وحده لا شريك له.

قال الله ﷻ: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة:٢١].

اللهم! إنا نسألك باسمك المتين: أن تغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين.

(٤٤، ٤٥، ٤٦)

القَادِرُ القَدِيرُ المُقْتَدِرُ جل جلاله

من أقام أمر الله أقام الله ﷻ أمره، ومن سخر ما بين يديه لله سخر الله ﷻ له ما بين يديه، وكل هذا الكون بيد الله؛ فهو القدير والقادر تبارك وتعالى.

أخرج مسلم في «صحيحه»: أن النبي ﷺ قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ؛ فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ، فَانْتَهَى إِلَى الحَرَّةِ، فَإِذَا هُوَ فِي أَذْنَابِ شِرَاجٍ، وَإِذَا شَرَاجَةٌ مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدِ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ المَاءَ كُلَّهُ، فَتَبِعَ المَاءَ؛ فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ، يُحَوِّلُ المَاءَ بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ! مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ -بِالاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَةِ-.

فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللهِ! لِمَ سَأَلْتَنِي عَنِ اسْمِي؟ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ، يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ بِاسْمِكَ، فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟

قَالَ: أَمَّا إِذَا قُلْتَ هَذَا؛ فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا خَرَجَ مِنْهَا؛ فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثَهُ، وَأَرُدُّ ثُلُثَهُ».

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر:٤٤]، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [المائدة: ٤٠].

ربنا ﷻ القادر على كل شيء، لا يعجزه شيء، ولا يفوته مطلوب، بخلاف خلقه، فهو ﷻ لا يتطرق إليه العجز، ولا يعتريه الفتور.

وربنا ﷻ هو الذي يقوى على الشيء ويقدر عليه، فهو ﷻ كامل القدرة؛ فبقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبرها، وبقدرته سواها وأحكمها، وبقدرته يحيي ويميت، ويبعث العباد للجزاء؛ فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وربنا ﷻ هو الذي ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢].

وهو القَدِيرُ ليسَ يُعجِزُهُ إذا
ما رَامَ شَيئًا قَطُّ ذُو سُلطَانِ

❐ كمال قدرته ..

ومن قدرة ربنا ﷻ: أنه: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ [المائدة:٤٠]، وهو ﷻ: ﴿ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥].

ومما يدل على قدرته: أنه قادر على أن يأتي بنا ويجمعنا أينما كنا وحيثما حللنا؛ ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [البقرة: ١٤٨].

ومما عرفنا به ربنا ﷻ عن عظيم قدرته: أنه ﷻ يقبض أرضه بيده يوم القيامة، ويطوي السماوات بيمينه، قال ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

كتبت المقادير..

وربنا ﷻ مقدِّر المقادير ومقسِّمها، علم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها، ثم أوجد ما سبق في علمه أنه يوجد؛ ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس: ٣٨].

والله كتب مقادير الخلق قبل أن يخلقهم بآلاف السنين، صح عنه ﷺ أنه قال: «كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الخَلائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَعَرْشُهُ عَلَى المَاءِ» [أخرجه مسلم].

ولذا؛ كان هذا هو الإيمان؛ لما سأل جبريل عليه السلام الرسول ﷺ عن الإيمان، قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» [أخرجه البخاري ومسلم –واللفظ له–].

لا تعجب!

فقد فصل لنا ربنا تبارك وتعالى في كتابه القول ليعرفنا بقدرته: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾ [فاطر:٤٤].

إذا أراد الله جل جلاله أن ينصرك؛ أمر ما لا يكون سببًا في العادة فكان أعظم الأسباب.

وإذا أراد القدير جل جلاله أن يكرمك؛ جعل من لا ترجو الخير منه هو سبب أعظم العطايا التي تنالك.

وإذا أراد القادر جل جلاله أن يصرف عنك السوء؛ جعلك لا ترى السوء، أو جعل السوء لا يعرف لك طريقاً.

وإذا أراد جل جلاله أن يعصمك من معصية؛ جعلك تبغضها، أو جعلها صعبة المنال منك، أو أوحشك منها، أو جعلك تقدم عليها فيأتي عارض فيصرفك عنها.

فما أحرانا أن نطرق باب القدير جل جلاله!

إبراهيم الخليل عليه السلام يسلم أهله لربه جل جلاله؛ فيدعو: ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم:٣٧]، فكانت مكة حنين القلوب على مدار العصور.

وهذا سليمان عليه السلام يدعو: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء: ٨٣]، فملكه الله ﷻ رقاب الجن.

ويونس عليه السلام في ظلمة الليل والبحر وفي بطن الحوت يدعو: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء:٨٧]؛ فيصبح بطن الحوت له وعاءً.

وكان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ! إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ؛ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ» [أخرجه البخاري].

وقدرة الله ﷻ يستعاذ بها من كل شر وأذًى؛ ففي الدعاء الذي علمه المصطفى ﷺ للمريض: «أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ، سَبْعَ مَرَّاتٍ» [رواه مسلم].

وقول الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [الممتحنة:٧]، فيه: إشارة إلى أن مغفرته ﷻ ورحمته لعباده عن كمال القدرة، فلا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره، ولا يكبر عليه عيب أن يستره، ولا رحمة أن يوصلها.

فليس كل من له قدرة وقوة يغفر ويرحم من قدر عليه.

وليس كل من يغفر ويرحم له قدرة، فهو سبحانه وتعالى مع كمال قدرته إلا أنه غفور رحيم.

لكل شيء قدرًا:

والله ﷻ قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾[الطلاق:٣]، فمن اتقى ربه وتوكل عليه؛ فلا يتباطأ عون الله له، ولا ييأس من روحه، ولا يقنط من رحمته؛ فالفرج آتيه لا محالة؛ لأن الله ﷻ على شيء قدير.

ولكن الله ﷻ جعل لكل شيء قدرًا؛ له زمن لا يتجاوزه، ووقت لا يتخطاه، فإذا جاء موعد المقدور؛ فلا يستأخر عن دفعه ساعةً ولا يستقدم.

ينام العبد على أمرٍ قد يئس منه ويستيقظ على انفراجه؛ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا ٤٥﴾[الكهف:٤٥].

للكربة وقت ثم تزول، ولها زمن ثم تتحول؛ لأن الله ﷻ قد جعل لكل شيء قدرًا.

لا تثمر الشجرة حتى يحين وقتها، ولا تبزغ الشمس حتى يحل ميقاتها، ولا تضع الحامل حملها إلا بأجل؛ ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾[الطلاق:٣] .

اللهم! اغفر لنا وارحمنا؛ إنك على كل شيء قدير.

(٤٧)

الحَفِيظُ جل جلاله

جاء في «الصحيحين»: أن عامر بن الطفيل وأربد بن قيس كادا لرسول الله ﷺ، وسعيا في قتله؛ فدعا عليهما.

فأما عامر بن الطفيل؛ فأصيب بغدة في نحره، وهو في بيت امرأة من بني سلول، فوثب على فرسه، وأخذ رمحه، وأقبل على فرسه وهو يقول: غدة كغدة البعير، وموت في بيت سلولية! فلم تزل تلك حاله حتى سقط عن فرسه ميتًا.

وأما أربد بن قيس؛ فخرج معه جمل يبيعه، فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقةً فأحرقتهما. فمن حفظ رسول الله؟! إنه الله الحافظ.

القائل في كتابه: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٦٤﴾[يوسف:٦٤].

ربنا سبحانه وتعالى يحفظ السماء والأرض وما فيهما، ويدوم بقاؤهما بقدرته؛ فلا يزولان ولا يحيدان، ولا يعجزه حملهما؛ لكمال قدرته وقوته، ألم تسمع قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا

﴿مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾[فاطر:٤١].

وربنا سبحانه وتعالى يحفظ على خلقه ما يعملون من خير وشر، في سر وعلن، وصغير وكبير، قد أحصى أقوالهم، وعلم نياتهم؛ فلا تغيب عنه غائبة ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾[ق:٤].

وهو سبحانه وتعالى الذي يحفظ عبده من المهالك والمعاطب، ومصارع السوء، جعل له حفظةً من الملائكة هم: المعقبات بأمره، قال سبحانه وتعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[الرعد:١١].

وحفظ الله لخلقه نوعان:

عامٌّ، وهو: حفظه لجميع المخلوقات؛ بأن ييسر لها مصالحها، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾[هود:٥٧].

وحفظٌ خاصٌّ -وهو أشرف النوعين-، وهو: حفظه لأوليائه في مصالح دنياهم، وفي أبدانهم وأولادهم ومالهم، فجعل لهم معقبات تحفظهم، وحفظ لهم دينهم من الشبهات والشهوات، ومن أعدائهم من شياطين الإنس والجن، ثم يتوفاهم على الإيمان.

قال سبحانه وتعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١].

وربنا الذي تكفل بحفظ كتابه العزيز؛ من التحريف والتغيير على

مر العصور والدهور: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾[الحجر: ٩].

وحفظ الكعبة من الزوال؛ مع أنه بيت من حجارة في واد غير ذي زرع؛ لتبقى شاهدةً على جليل حفظه وعظيم قدرته وقوته.

❑ يدافع عنك..

يجتمع كفار قريش حول غار فيه رجلان: محمد ﷺ وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، يريدون قتلهما، فيتسلل الخوف إلى فؤاد أبي بكر، فينظر إليه صاحبه العظيم ويقول له: «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟»[أخرجه البخاري ومسلم]

وَإِذَا العِنَايَةُ لَاحَظَتْكَ عُيُونُهَا
نَمْ فَالمَخَاوِفُ كُلُّهُنَّ أَمَانُ

إنه الحفيظ!...

يكيد الطغاة للأولياء؛ فيحفظ الله أولياءه، فهذا موسى عليه السلام يقول: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾[طه:٤٥-٤٦]؛ فبشره الله، وحفظه، ونصره على عدوه.

فمن الذي ينصر على الأعداء؟ إنه الله الحافظ لأوليائه؛ وإن قل عددهم؛ ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٌ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[الأنفال:٦٦]، ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾[آل عمران:١٣٩].

مكافأة ربانية:

يحفظ الحافظ سبحانه وتعالى ذرية أوليائه؛ سواء في حياتهم أو بعد مماتهم؛ فهذا يعقوب عليه السلام يرد الله إليه حبيبه يوسف بعد سنين طوال، وهو عليه السلام القائل:

﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾[يوسف:٦٤].

وفي خبر موسى والخضر عليهما السلام عندما أتيا أهل قرية فاستطعما أهلها؛ فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض فأقامه الخضر عليه السلام:

﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢﴾[الكهف:٨٢].

يموت الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز عن سبعة من الذكور وسبع من الإناث، ولم يخلف لهم شيئًا إلا الله جل جلاله، فيحفظ الله الأولاد، قال العلماء: وكان أبناؤه من أغنى الأغنياء في الناس.

وصية ثمينة:

يوصي النبي صلى الله عليه وسلم ابن عباس رضي الله عنهما: «يَا غُلامُ! إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ! احفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ!»[حديث صحيح. رواه الترمذي].

ولما قيل لمحب الدين الطبري -وهو إمام شافعي كبير-: "قفزت من

السفينة وأنت شيخ كبير؟ فقال -كلمةً خلدت في التاريخ!-: هذه أعضاء حفظناها في الصغر؛ فحفظها الله لنا في الكبر"؛ ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾[يوسف:٦٤].

قال العلماء: احفظ أوامر الله بالامتثال، ونواهيه بالاجتناب، وحدوده بعدم تعديها؛ يحفظك في نفسك ودينك ومالك وولدك، وفي جميع ما آتاك الله من فضله في الدنيا، قال ﷺ: «احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ! احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ!» [حديث صحيح. رواه الترمذي].

وأما في الآخرة؛ فقد بشرهم الله بالفوز العظيم، قال ﷻ: ﴿وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾[التوبة:١١٢].

وعلى قدر حفظك لحدود الله يكون قدر الولاية، ويدخل في هذا: حفظ التوحيد، وحفظ شعائر الدين؛ ولا سيما الصلاة: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾[البقرة:٢٣٨]

وحفظ السمع والبصر والفؤاد عن الحرام: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ٣٦﴾[الإسراء:٣٦]، ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾[النساء:٣٤].

وحفظ الفرج: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥﴾[المؤمنون:٥].

وحفظ الأيمان: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾[المائدة:٨٩].

صح عن النبي ﷺ أنه كان يدعو: «اللَّهُمَّ! احفَظنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ مِنْ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي»[حديث صحيح. رواه الترمذي]، وإذا أراد النوم طلب ﷺ من الله الحفظ.

❐ بشرى..

إن العبد الصالح إذا استودع الله شيئًا حفظه؛ كما جاء أن النبي ﷺ قال لأبي هريرة: «أَسْتَوْدِعُكَ اللهَ الَّذِي لاَ تَضِيعُ وَدَائِعُهُ»[حديث صحيح. رواه ابن ماجه].

وفي حديث آخر: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ إِذَا اسْتُودِعَ شَيْئًا حَفِظَهُ» [حديث صحيح. رواه البيهقي في «السنن الكبرى»].

وما أجمل أن تعوذ أبناءك كما كان النبي ﷺ يفعل؛ كان يعوذ الحسن والحسين رضي الله عنهما، وإذا استودعتهم الله فقد استودعتهم للحافظ سبحانه وتعالى؛ ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٦٤﴾[يوسف:٦٤].

اللهم! إنا نستودعك أنفسنا ووالدينا وأبناءنا وكل نعمة أنعمت بها علينا.

(٤٨)

الْغَنِيُّ جل جلاله

أخرج الإمام البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «بَيْنَا أَيُّوبُ يَغْتَسِلُ عُرْيَانًا، فَخَرَّ عَلَيْهِ جَرَادٌ مِنْ ذَهَبٍ؛ فَجَعَلَ أَيُّوبُ يَحْتَثِي فِي ثَوْبِهِ.

فَنَادَاهُ رَبُّهُ: يَا أَيُّوبُ! أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ عَمَّا تَرَى؟ قَالَ: بَلَى وَعِزَّتِكَ! وَلَكِنْ لَا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ».

قد يعطى الإنسان أموالاً، أو يمنح عقارًا، أو يرزق عيالاً، أو يوهب جاهًا، أو ينال منصبًا عظيمًا، أو مركزًا كريمًا، أو زعامةً عريضةً، أو رياسةً مكينةً.. قد يحف به الخدم، ويحيط به الجند، وتحرسه الجيوش، وترضخ له الناس، وتذل له الرؤوس، وتدين له الشعوب...

ومع ذلك –كله– فالكل محتاج إلى الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥].

وربنا هو الغني ﷻ؛ الذي لا أغنى منه على الإطلاق، والكل فقير محتاج إليه.

فربنا غني بذاته وصفاته وسلطانه، كمل في غناه فلا يحتاج إلى أحد.

وربنا من كمال غناه: أنه لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين؛ ولو كفر به كل العالمين! قال ﷻ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٧﴾[آل عمران:٩٧].

ومن كمال غناه سبحانه وتعالى: أنه يحسن إلى العباد، ويريد بهم الخير، ويكشف عنهم الضر؛ لا لشيء إنما رحمةً بهم وإحسانًا، ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾[الأنعام: ١٣٣].

ومن كمال غناه سبحانه وتعالى: تنزهه عن النقائص والعيوب، وكل ما ينافي غناه، فلم يتخذ صاحبةً ولم يتخذ ولدًا، ولا شريكًا في الملك، ولا وليًّا من الذل، ولم يكن له كفوًا أحد، قال ربنا ﷻ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ۝١١١﴾[الإسراء: ١١١].

ومن كمال غناه وكرمه سبحانه وتعالى: أنه يأمر عباده بدعائه، ويعدهم بإجابة دعواتهم: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠]، وصح عنه ﷺ أنه قال: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ ﷻ مِنَ الدُّعَاءِ»[حديث حسن. رواه الترمذي].

❐ العالم بأسره فقراء إلى الله ..

العالم أجمع؛ جنهم وإنسهم، وغنيهم وفقيرهم، وكبيرهم وصغيرهم، وأميرهم وحقيرهم، وقويهم وضعيفهم: فقراء إلى الله، محتاجون إليه في

كل ساعة.

ومن كرم الله: أنه قرن اسمه (الغني) بوصف (الرحمة) في قوله ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِ﴾[الأنعام:١٣٣]؛ وذلك لإخبار العباد أنه: غني عن عبادتهم، ومع هذا فهو قد رحمهم في كل شيء؛ حتى في العبادات والتكاليف، بل من رحمته: أنه يقبل القليل فيكثره.

ومن كرمه أنه قرن اسمه (الغني) باسمه (الحميد)، قال الله ﷻ: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ٨﴾ [إبراهيم:٨]، أي: بليغ الاستحقاق للحمد؛ بما له من عظيم النعم.

فالكل محتاج إليه؛ في كل صغيرة وكبيرة، وفي كل ساعة وكل ثانية.

فهذا أكمل الخلق عبوديةً يدعو ربه مظهرًا فقره وحاجته إليه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين، فقد كان من دعائه ﷺ: «أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ» [حديث صحيح. رواه النسائي].

أنت محتاج إلى الغني في كل ساعة، فبقدر إظهار فقرك إليه يكون الجزاء.

وتذكر: أن الله هو الغني، وأن غناه غنًى ذاتي، بل لو سأله أهل السماوات والأرض وأعطى كل واحد مسألته ما نقص من ملكه شيء، جاء في «صحيح مسلم»: «لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ

وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي؛ فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ».

مفتاح الغنى:

كيف أصل إلى الغنى؟

الجواب: كما جاء في الحديث القدسي: «ابْنَ آدَمَ! تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلأْ قَلْبَكَ غِنًى، وَامْلأْ يَدَيْكَ رِزْقًا.

ابْنَ آدَمَ! لاَ تَبَاعَدْ عَنِّي فَأَمْلأْ قَلْبَكَ فَقْرًا، وَأَمْلأْ يَدَيْكَ شُغْلاً»[حديث صحيح. رواه الحاكم في «المستدرك»].

فمتى غني القلب بالله ﷻ، وقنع به، وفرح بما أعطاه الله؛ أصبح أغنى خلقه بخالقه، وأعز مخلوق برازقه، وأقوى ضعيف بمولاه، فهذا الغنى بلا مال، والقوة بلا سلطان، والعزة بلا عشيرة، فيا له من غنًى؛ ما أجل قدره!

صح عنه ﷺ أنه قال: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ» [أخرجه مسلم].

لن يشبع الإنسان لو ملك الدنيا؛ ما لم يكن الغنى في قلبه، وكما جاء في «صحيح ابن حبان»: قال عليه الصلاة والسلام: «يَا أَبَا ذَرٍّ! أَتَرَى كَثْرَةَ المَالِ هِيَ الغِنَى؟ إِنَّمَا الغِنَى غِنَى القَلْبِ وَالفَقْرُ فَقْرُ القَلْبِ»[حديث صحيح].

من كان الغنى في قلبه؛ فلا يضره ما لقي من الدنيا، ومن كان الفقر في قلبه؛ فلا يغنيه أكثر ما في الدنيا، صح أن النبي ﷺ قال: «وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ»[حديث حسن. رواه الترمذي].

وفي الحديث الآخر: «وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللّٰه، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللّٰهُ»

[أخرجه البخاري ومسلم].

النَّفْسُ تَجْزَعُ أَنْ تَكُوْنَ فَقِيرَةً
وَالفَقْرُ خَيْرٌ مِنْ غِنًى يُطْغِيهَا
وغِنَى النَّفْسِ هُوَ الكَافِي فَإِنْ
أَبَتْ فَجَمِيعُ مَا فِي الأَرْضِ لا يَكْفِيهَا

فالغني في الإسلام هو: من استغنى في قلبه عن الناس، وافتقر للّٰه ﷻ، قال ﷺ: «شَرَفُ المُؤْمِنِ صلاتُهُ بِاللَّيْلِ، وَعِزُّهُ: اسْتِغْنَاؤُهُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ»

[حديث حسن. رواه الحاكم].

ولما قيل لأعرابي: لقد أصبح رغيف الخبز بدينار!

فأجاب: واللّٰه! ما همني ذلك؛ ولو أصبحت حبة القمح بدينار! أنا أعبد اللّٰه كما أمرني وهو يرزقني كما وعدني!

قال النسفي رحمه الله: "قال الواسطي: من استغنى باللّٰه لا يفتقر، ومن تعزز باللّٰه لا يذل؛ وقال الحسين: على مقدار افتقار العبد إلى اللّٰه، يكون غنيا باللّٰه".

قال حكيم: "إن الرجل ليجفوني، فإذا ذكرت استغنائي عنه باللّٰه، وجدت بردًا على كبدي".

قال ابن السعدي رحمه الله: "إنما الغنى غنى القلب، فكم من صاحب ثروة

وقلبه فقير متحسِّر؟!".

تَبَرَّأْتُ مِنْ حَوْلِي وَطَوْلِي وَقُوَّتِي
وَإِنِّي إِلَى مَوْلَايَ فِي غَايَةِ الفَقْرِ
غِنَى المَرْءِ بِالرَّحْمَنِ أَغْنَى مِنَ الغِنَى
بِهِ يُكْتَسَى ثَوْبُ المَهَابَةِ وَالقَدْرِ

اللهم! أعطيتنا من قبل أن نسألك؛ فكيف إذا سألناك؟!

اللهم! أغننا بالافتقار إليك، ولا تفقرنا بالاستغناء عنك؛ فإنك أنت الغني، لا إله إلا أنت.

اللهم! أغننا بحلالك عن حرامك، وبفضلك عمن سواك.

(٤٩، ٥٠)

الحَكَمُ الحَكِيمُ جل جلاله

جاء في «سنن النسائي» عن هانئ: أنه لما وفد إلى رسول الله ﷺ سمعه (أي: الوفد)، وهم يكنون هانئًا: أبا الحكم؛ فدعاه الرسول ﷺ فقال: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الحَكَمُ، وَإِلَيْهِ الحُكْمُ، فَلِمَ تُكَنَّى أَبَا الحَكَمِ؟»، فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني، فحكمت بينهم؛ فرضي كلا الفريقين؛ فقال رسول الله ﷺ: «مَا أَحْسَنَ مِنْ هَذَا! فَمَا لَكَ مِنَ الوَلَدِ؟» قال: لي شريح، ومسلم، وعبد الله، قال: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟»، قلت: شريح، قال: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ»[حديث صحيح].

من أسماء ربنا ﷻ: (الحَكَمُ وَالحَكِيمُ)، قال الله ﷻ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾[آل عمران:٦]، وقال ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ۝٦٢﴾[الأنعام:٦٢].

"والحَكيم له معنيان:

الأول: الَّذِي أحكم الأشياء وأتقنها، والله ﷻ حكيم؛ لأنه أحكم أقواله وأفعاله؛ فأقواله وأفعاله صواب كلها، بلغت غاية الإتقان.

ومن الإتقان فيها الذي هو غاية الحكمة: وضعه كل شيء في موضعه؛

فقد دبر خلقه أحسن التدبير، وصنع مخلوقاته أحسن الصنع، فلا يدخل في تدبيره وتقديره خلل، ولا يعتري صنعه نقص أو قصور، ولا يقع في أفعاله زلل ولا خطأ، وصدق الله تبارك وتعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[النمل:٨٨].

وكما أحكم خلقه تبارك وتعالى أحكم آيات كتابه -وهو: القرآن الكريم-؛ فقال جل جلاله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾[الحج:٥٢]، ووصف كتابه بأنه حكيم: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾[لقمان:٢].

والمعنى الثاني للحكيم: أنه تبارك وتعالى الحكم والحاكم بين عباده، فالله عز وجل هو الحكم والحاكم بين عباده، أي: يقضي بينهم، ويفصل بينهم بشرعه.

وقد اختص نفسه بالحكم؛ فلا يجوز لأحد أن يتعدى على ما اختص به نفسه، فالله عز وجل قال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾[الأنعام:٥٧]، وقال عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾[الأنعام:٦٢]".

واتخاذ الله حكمًا وحاكمًا يكون بتحكيم كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم في حال الاختلاف؛ فالله قال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].

والله عز وجل هو المستحق لأن يكون حكما بين عباده؛ لأنه ربهم وخالقهم

ومعبودهم، ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾[الأنعام:١١٤].

وربنا أحكم الحاكمين، فهو تبارك وتعالى العالم بكل شيء، والذي يعطي كل مسألة الحكم الذي يناسبها؛ فالله جل جلاله قد قال: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾[يونس:١٠٩].

والمؤمن لا يكون مؤمنًا حتى يكون مسلمًا لشرع الله، محتكمًا إليه، مستسلمًا لما جاء فيه؛ فالله تبارك وتعالى قد قال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[النساء:٦٥].

ولا فلاح لأمة تدعي الإسلام إلا بتحكيم شرع الله.

مكافأة من الحكيم..

ومن رُزق الحكمة فقد رُزق خيرًا كثيرًا، والله يؤتيها من يشاء من عباده، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾[لقمان:١٢]، وجميع الأنبياء قد أُعطوا الحكمة وتفاضَلَ بعضهم على بعض فيها.

جاء في «الصحيحين»: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا، فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ، وَقَالَتِ الأُخْرَى: إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ.

فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ عليه السلام؛ فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ ابْنِ دَاوُدَ عليهما السلام فَأَخْبَرَتَاهُ؛ فَقَالَ: ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا.

فَقَالَتِ الصُّغْرَى: لَا تَفْعَلْ -يَرْحَمُكَ اللهُ!- هُوَ ابْنُهَا؛ فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى».

اطمئن!

وتذكر: أن لله الحكمة البالغة؛ فلا يعطي إلا لحكمة، ولا يمنع إلا لحكمة، واختيار الله لك خير من اختيارك لنفسك، ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ٤٣﴾[الأحزاب:٤٣].

قال سفيان الثوري: "منعه عطاء؛ وذلك أنه لم يمنع عن بخل ولا عدم؛ وإنما نظر في خير العبد فمنعه اختيارًا وحسن نظر"، فربما تطلب ما لا تحمد عاقبته، وربما كان في حتفك!

قال ابن مسعود رضي الله عنه: "إن العبد ليهم بالأمر من التجارة والإمارة حتى ييسر له، فينظر الله إليه؛ فيقول للملائكة: اصرفوه عنه، فإنه إن يسرته له أدخلته النار؛ فيصرفه الله عنه، فيظل يتطير يقول: سبقني فلان، دهاني فلان، وما هو إلا فضل الله عز وجل".

وروي عن بعض السلف أن رجلاً كان يسأل الله الغزو، فسمع هاتفاً في المنام: "إنك إن غزوت أُسِرت، وإن أُسِرت تنصرت!"، ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا

تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[البقرة:٢١٦] .

تَبَـارَكَ فَهُــوَ اللهُ جَــلَّ جَلالُــهُ   جَـوَادٌ كَـرِيمٌ كَامِـلٌ لاَ يُمَثَّـلُ

حَكِيم فَيَقْضِي مَا يَشَاءُ بِحُكْمِهِ   حَلِيمٌ فَلاَ يَخْشَى فَوَاتًا فَيَعْجَلُ

❐ إيـاك!

ثم إياك أن تسيء الظن بالله إذا خفيت عليك الحكمة، وانسب الجهل إلى نفسك! فإن العقول قاصرة عن مطالعة حكمته، فالملائكة -مع قربهم من الله وعلمهم بجلاله وقدرته- لم يعلموا حكمته في إنزال آدم إلى الأرض؛ فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾[البقرة:٣٠].

فكـن مـع الله صـامتًا عنـد مجيء قـدره وفعلـه؛ حتـى يريـك ألطافًا كثيرةً.

قال عمر رضي الله عنه: "لو كشفت لنا حجب الغيب ما اختار أحدنا لنفسه إلا ما اختاره الله له".

في صلح الحديبية يأتي عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ؛ فقال: يا رسول الله! ألسنا على حق وهم على باطل؟!

قال: «بَلَى».

قال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟!

قال: «بلَى».

قال: ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟!

فقال: «يَا ابْنَ الخَطَّابِ! إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَدًا»؛ فأنزل الله سورة (الفتح)، فعلم الناس أن الصلح: فتح. [أخرجه البخاري ومسلم].

رفعت الأقلام، وجفت الصحف، وقضي الأمر، وكتبت المقادير؛ ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾[التوبة:٥١].

والله أرحم الراحمين، وهو خير الحاكمين؛ فأبشر بفرج عاجل؛ فبعد الدمعة بسمة، وبعد الخوف أمن، وبعد الفزع سكينة، ولكن عليك بتقوى الله.

قال الألوسي: "من اتقى الله سبحانه وتعالى تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه، وانكشفت له دقائق الأسرار حسب تقواه"، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [آل عمران:١٣٠ و٢٠٠].

اللهم يا أحكم الحاكمين! افتح علينا أبواب حكمتك، ورضنا بما قسمت لنا؛ فأنت العليم الحكيم.

(٥١)

اللَّطِيفُ جَلَّ جَلَالُهُ

نعيش مع اسم الله: (اللطيف جَلَّ وَعَلَا)؛ نستقي من أنواره ونتفيأ ظلاله:

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ١٠٠﴾[يوسف: ١٠٠].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ١٠٣﴾[الأنعام:١٠٣].

واللُّطف في اللغة هو: البر، والحفاوة، والإكرام، والترفق، والعلم بدقائق الأمور.

فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك تم معنى اللطيف.

فربنا جَلَّ وَعَلَا اللطيف؛ الذي لا ألطف منه، رفيق بعباده؛ لا يعاجلهم على الذنب، لا تخفى عليه الأشياء؛ وإن دقت ولطفت وتضاءلت.

وربنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي بر بعباده وتفضل عليهم ورفق بهم من حيث لا يعلمون، ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾[الشورى:١٩]، وهو الذي رزقهم من حيث لا يحتسبون.

وربنا ﷻ هو الذي لا تدركه الحواس، ولا تراه الأبصار: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ۖ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)﴾[الأنعام: ١٠٣].

أعطاهم فوق الكفاية، وكلفهم دون الطاقة، وسهل عليهم الوصول إلى السعادة في مدة قصيرة: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾[يوسف:١٠٠] .

وَهُوَ اللَّطِيفُ بِعَبْدِهِ وَلِعَبْدِهِ ... وَاللُّطْفُ فِي أَوصَافِهِ نَوْعَانِ
إدْرَاكُ أَسْرارِ الأُمُورِ بِخِبْرَةٍ ... وَاللُّطْفُ عِنْدَ مَوَاقِعِ الإِحْسَانِ
فَيُرِيكَ عِزَّتَهُ وَيُبْدِي لُطْفَهُ ... وَالعَبْدُ فِي الغَفَلاتِ عَنْ ذَا الشَّانِ

❑ إنه اللطيف:

ربك الكريم اللطيف ﷻ: يوصل إليك إحسانه بلطف وبرفق، وهو أعلم بحالك منك، وألطف بك من نفسك.

فإذا أراد اللطيف ﷻ: أن يرحمك أرسل إلى نفسك نور الإيمان؛ فيبقى صدرك مشرقاً بنوره، كارهاً للفواحش والفتن، مجتنباً للمعاصي، ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[الأنعام:١٠٣].

وإذا أراد اللطيف ﷻ: أن ينصرك أمر ما لا يكون سبباً في العادة؛ فكان أعظم الأسباب لنصرتك؛ إنه: ﴿اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)﴾[الأنعام: ١٠٣].

وإذا أراد اللطيف ﷻ: أن يشفيك؛ أرسل لك أغرب سبب، وربما أضعف سبب؛ إنه: ﴿اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣)﴾[الأنعام:١٠٣].

إذا أراد اللطيف ﷻ: أن يرزقك؛ يسر أمورًا ربما خفيت عليك، لكن الله علمها، فقد يرسل فقيرًا إليك فتبذل له، فيدعو؛ فتفتح لدعوته أبواب السماء، فيساق الرزق إليك، وتتم إرادته على ما شاء، وأنت غير مدرك؛ أنه هو: ﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:١٠٣].

ألا تشتاق إليه؟!

لو علم العبد ما يدبر اللطيف له؛ لذاب قلبه شوقًا إلى لقائه.

فكم من مرض أصابك فأزاله...!

وكم من مصيبة حلت فحولها...!

وكم من دين قضاه...!

وكم من هم فرجه...!

ليس بحول منك ولا قوة، وإنما بلطف منه وكرم!

فإذا طرق الناس أبواب الملوك؛ فاطرق أنت باب الملك الأعظم.

وإذا وقفوا بساحة الأمير؛ فقف أنت بساحة الإله الأكرم.

وإذا ألم بك المرض، وأثقلك الدين، وحزنت على الغائب، وخفت على الولد، وأتعبك الفقر؛ فتذكر أنه هو: ﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:١٠٣].

فهو الذي بيده مفاتيح الفرج، والخزائن ملأى، ويد الله سحاء الليل والنهار؛ ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر:٢١].

فالسعادة عنده، والأمن عنده، والراحة عنده، والرضا عنده، والشفاء

عنده، وبيده ملكوت كل شيء وهو على كل شيء قدير.

فلا تحمل هما وأنت في معية الله ﷻ؛ حتى لو ازدادت عليك أكدار الدنيا، واعلم أنها تقودك إلى الاجتباء؛ كما قادت يوسف عليه السلام.

ومهما اختفى من حياتك أمور ظننت أنها سبب سعادتك تأكد أن الله صرفها عنك قبل أن تكون سبباً في تعاستك.

مفتاح السعادة:

وإذا أردت أن تكون في معية الله اللطيف ﷻ؛ فاسعد بشريعته، واشكر نعمته، وتفكر في ملكوته، واطرب لذكره، وتلذذ بسماع كلامه، وارض به ربا، وبكتابه نهجًا، وبنبيه رسولاً.

فمعية الله ﷻ لا تأتي إلا بسبب، ولا تحصل إلا بتعب، وحينها سيعمر الأنس قلبك، ويزول همك، وتنسى أتعاب الحياة وأوصاب الدنيا.

انكسر للطيف!

ربنا (اللطيف)؛ يحب اللطف، ويحبك أن تعامل الخلق بلطف وشفقة.

صح عنه ﷺ أنه قال: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ –أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ–: عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ» [حديث صحيح. رواه الترمذي].

فإذا احتجت إلى لطف الله بك ليعافيك مما أضر بك؛ فأظهر له ضعفك وانكسارك، والطف بالمسلمين؛ وخاصةً ضعيفهم.

إِلَهِي أَنْتَ لِلإِحْسَانِ أَهْلٌ ... وَمِنْكَ الجُودُ وَالفَضْلُ الجَزِيلُ
إِلَهِي بَاتَ قَلْبِي فِي هُمُومٍ ... وَحَالِي لاَ يُسَرُّ بِهِ خَلِيلُ
إِلَهِي جُدْ بِعَفْوِكَ لِي فَإِنِّي ... عَلَى الأَبْوَابِ مُنْكَسِرٌ ذَلِيلُ

اللهم! الطف بنا، وارزقنا الأنس بقربك، وأعنا على طاعتك، وأحسن لنا الخاتمة.

(٥٢)

الخَبِيرُ جل جلاله

أخرج النسائي بسند صحيح: أن أعرابيًّا جاء إلى النبي ﷺ؛ فآمن به واتبعه، ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه.

فلما كانت غزوة خيبر؛ غنم النبي ﷺ سبيًا، فقسم وقسم له، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم، فلما جاء؛ دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك النبي ﷺ؛ فأخذه، فجاء به إلى النبي ﷺ؛ فقال: ما هذا؟ قال: «قَسَمْتُهُ لَكَ»، قال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى إلى ها هنا -وأشار إلى حلقه بسهم-؛ فأموت، فأدخل الجنة.

فقال ﷺ: «إِنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ»، فلبثوا قليلاً، ثم نهضوا في قتال العدو، فأتي به النبي ﷺ يحمل قد أصابه سهم حيث أشار.

فقال النبي ﷺ: «أَهُوَ هُوَ؟»، قالوا: نعم، قال: «صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ»، ثم كفنه النبي ﷺ في جبة النبي ﷺ، ثم قدمه فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: «اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ فَقُتِلَ شَهِيدًا؛ أَنَا

شَهِيدٌ عَلَى ذَلِكَ».

أعمال الجوارح تتبع أعمال القلوب؛ والنجاة يوم القيامة في سلامة القلب؛ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[الشعراء: ٨٨-٨٩]، ولا يعلم ما في القلوب إلا الله العليم الخبير! قال الله ﷻ عن نفسه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾﴾[البقرة:٢٣٤].

فربنا عالِم بسرائر عباده، وضمائر قلوبهم، لا تعزب عنه الأخبار الباطنة، ولا يجري في الملك والملكوت شيء، ولا تتحرك ذرة ولا تسكن، ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا ويكون عنده خبرها.

أحاط علمه بالظواهر والبواطن والإسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، والماضي والحاضر والمستقبل؛ فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

يخبر بعواقب الأمور ومآلاتها وما تصير إليه، ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾[الفرقان:٥٩].

فالله عليم بظواهر الأمور، خبير ببواطنها.

خَبِيرٌ بِالحَقَائِقِ وَالمَعَانِي ... عَلِيمٌ لا يُمَارَى أَوْ يُجَارَى

مُحِيطٌ لا يَفُوتُ عَلَيْهِ شَيْءٌ ... وَلا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا تَوَارَى

مقام الإحسان:

ومن علم أن الله خبير ببواطن أمره، مطلع عليه؛ استحى أن يراه الله فيما لا يحب، ثم أحسن عمله، وأخلص عبادته؛ حتى يصل به الحال إلى مقام الإحسان؛ الذي ورد في الحديث الصحيح: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» [أخرجه البخاري ومسلم].

قال أبو حاتم: "قطب الطاعات للمرء في الدنيا هو: إصلاح السرائر، وترك إفساد الضمائر".

السر في القلب!

وإنك لترى عملاً صالحاً يعمله الرجلان؛ فيتقبل من أحدهما، ولا يتقبل من الآخر! فهذا يصلي فتقبل صلاته، وبجانبه آخر يصلي فلا يكون له من صلاته إلا ما عقل منها، قال ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لِيُصَلِّي الصَّلاةَ، وَلَعَلَّهُ لا يَكُونُ لَهُ مِنهَا إِلاَّ عُشْرُهَا، أَوْ تُسْعُهَا، أَوْ ثُمُنُهَا، أَوْ سُبُعُهَا، أَوْ سُدُسُهَا»؛ حتى أتى على العدد. [حديث صحيح. رواه ابن حبان].

وهذا يتصدق؛ فيتقبلها الله وينميها له -كما ينمي أحدنا فلوه-، والآخر يتصدق؛ فيردها الله، بل ويعذب بها! ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة:٢٧١].

ذاك الذي يغض بصره أمام الناس ويتصنع! ثم إذا خلا بنفسه مد

بصره إلى الحرام وانتهك المحرمات؛ هل يستطيع أحد أن يطلع على قلبه عدا الخبير البصير؟ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ١٩﴾ [غافر: ١٩].

من خطورة العيش بين الطاعة و المعصية أنك لا تدري في أي فترة منهم ستكون الخاتمة .

فالخلوة إما ترفع وإما تخفض، فمن عظّم اللهَ في خلوته عظّمه الناس في جلوته.

وقال الإمام مالك رحمه الله: "من أحب أن تفتح له فرجة في قلبه، وينجو من غمرات الموت وأهوال القيامة؛ فليكن عمله في السر أكثر منه في العلانية".

قال ابن رجب رحمه الله: "الخاتمة الحسنة لا تقع إلا لمن كانت سريرته حسنة؛ لأن لحظة الموت لا يمكن تصنّعها، فلا يخرج حينئذٍ إلا مكنون القلب".

وَاللهُ سبحانه وتعالى أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ بِأَنَّهُ الخَبِيرُ، بل ربط اسمه جل جلاله (الخبير) بما يفعله ويعلمه ويصنعه الإنسان فوق عشرين مرةً؛ ليحثه على التقوى؛ ﴿ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ٨﴾ [المائدة:٨].

وحثه أن ينظر لأعماله باطنها وظاهرها، فمن زاد إيمانه بهذا الاسم: (الخبير)؛ أصبح خبيراً بما يجري في عالمه، وعالمه هو: قلبه وبدنه،

والخفايا التي يتصف بها القلب؛ من غش وخيانة وإضمار الشر.

والله ﷻ لا ينظر إلى الصور، ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال، ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١﴾[العاديات:٩-١١].

❑ المعية:

والعبد المؤمن إذا أخذ حظه من اسم الله: (الخبير ﷻ)؛ أصبح في معية الله، وإذا أصبح في معيته يرفعه ويطهره، ويجعله مشغولاً بهذه المعية عن غيرها، ويجعله في حذر دائم وخشية دائمة، ويكفيه الله دنياه، ويجعلها تأتيه راغمةً، ويجمع شمله، ويبارك له في كل ما رزقه، ولا يعرف الضيق والهم والشيطان إليه سبيلاً؛ لأن الله ﷻ قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢﴾[الطلاق:٢].

يَا مَن يَرَى مَا فِي الضَّمِيرِ وَيَسْمَعُ ... أَنْتَ المُعِدُّ لِكُلِّ مَا يُتَوَقَّعُ
يَا مَنْ يُرَجَّى لِلشَّدَائِدِ كُلِّهَا ... يَا مَنْ إِلَيْهِ المُشْتَكَى وَالمَفْزَعُ
مَا لِي سِوَى فَقْرِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ ... فَبِالِافْتِقَارِ إِلَيْكَ فَقْرِي أَدْفَعُ
مَا لِي سِوَى قَرْعِي لِبَابِكَ حِيلَةٌ ... فَلَئِنْ رُدِدْتُّ فَأَيَّ بَابٍ أَقْرَعُ
حَاشَا لِمَجْدِكَ أَنْ تُقَنِّطَ عَاصِيًا ... فَالْفَضْلُ أَجْزَلُ وَالمَوَاهِبُ أَوْسَعُ

اللهم! الطف بنا؛ يا خبير.. يا عالماً بالسرائر والضمائر!

(٥٣)

الحَلِيمُ جل جلاله

قال العز بن عبد السلام: "معرفة الله ﷻ، ومعرفة أسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ هي أفضل الأعمال شرفًا وثمارًا وآثارًا".

ونقف مع اسم من أسماء الله ﷻ وهو: (الحليم ﷻ):

قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ۝٢٦٣﴾[البقرة:٢٦٣]، و﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤٤﴾[الإسراء:٤٤].

ربنا ﷻ ذو الصفح والأناة؛ الذي لا يستفزه غضب، ولا يستخفه جهل جاهل، ولا عصيان عاص، لا يعجل على عباده بعقوبتهم على شركهم وكفرهم به، وعلى كثرة ذنوبهم.

فمن أعظم منه حلمًا؟! الخلائق له عاصون؛ وهو لهم مراقب، يكلؤهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوه، ويتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا، يجود بالفضل على العاصي، ويتفضل على المسيء.

❐ إنه الحليم!

يقوم المضطر بين يديه وهو عاص ومذنب؛ فيستجيب له، ويسأله فيعطيه، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾[العنكبوت: ٦٥].

لا إله إلا الله ما أحلمه! فهو ذو الفضل ومنه الفضل، وهو الجواد ومنه الجود، وهو الحليم ومنه الحلم.

وَهُوَ الحَلِيمُ فَلا يُعَاجِلُ عَبْدَهُ ... بِعُقُوبَةٍ لِيَتُوبَ مِنْ عِصْيَانِ

وفي «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ -تَعَالَى-؛ إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ نِدًّا وَيَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ -مَعَ ذَلِكَ- يَرْزُقُهُمْ، وَيُعَافِيهِمْ، وَيُعْطِيهِمْ!».

❐ ما أحلم الله!

فكم من زلة سترها الله علينا؟! وكم من ذنب لم يؤاخذنا به؟! وكم من معصية ارتكبناها؛ وهو ينادينا -وهو الغني عنا-: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾[الحجر:٤٩].

فسبحان الله الحليم! يخلق ويعبد غيره، ويرزق ويشكر سواه، خيره للعباد نازل وشرهم إليه صاعد، يتحبب إليهم بالنعم وهو غني عنهم، ويتبغضون إليه بالمعاصي وهم أفقر شيء إليه، ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم

مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل:٦١].

همسة!

لنحذر من غضبه ﷻ؛ لأن الحليم إذا غضب لم يقف لغضبه شيء، وحلمه ﷻ صادر عن قوة وقدرة، والله الحليم لا يغضب إلا على من لا يستحق الرحمة، ولا يصلح في حقه الحلم؛ وذلك بعد أن يعطي المهلة.

قال ﷻ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف:٥٥].

وقد يحلم الله على الكفار ويرزقهم، ولا يأخذهم بعقوبة في الدنيا؛ لكنه ﷻ لا يتأنى بهم في الآخرة، ولا يصفح عنهم؛ بل تسوقهم الملائكة إلى النار؛ فلا يقبل لهم رجاء، ولا يخفف عنهم العذاب، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾﴾ [مريم:٦٨-٦٩]، ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت:٥٤].

حلاوة الامتثال!

والعبد يجاهد نفسه بالتخلق بهذا الخلق الكريم؛ ألا وهو: صفة (الحلم)، فهو ﷻ: (حليم) يحب من عباده الحلماء، كريم يحب الكرماء.

أَلا إِنَّ حِلْمَ المَرْءِ أَكْبَرُ نِسْبَةٍ يُسَامِي بِهَا عِنْدَ الفَخَارِ كَرِيمُ
فَيَا رَبِّ هَبْ لِي مِنْكَ حِلْمًا فَإِنَّنِي أَرَى الحِلْمَ لَمْ يَنْدَمْ عَلَيْهِ حَلِيمُ

وقد أثنى الله تبارك وتعالى على نبيه إبراهيم الخليل عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾[هود:٧٥]، وهي من صفات إسماعيل عليه السلام: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[الصافات:١٠١].

ولنبينا صلى الله عليه وسلم النصيب الأوفر من هذا الخلق.

جاء في «الصحيحين» عن أنس رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي؛ فجذبه جذبةً شديدةً، فنظرت إلى صفحة عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أثرت بها حاشية الرداء، ثم قال: يا محمد! مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بالعطاء.

ومدح النبي صلى الله عليه وسلم الأشج بن عبد القيس بقوله: «إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الحِلْمُ، وَالأَنَاةُ»[أخرجه مسلم].

وروي عن ميمون بن مهران: "أن جاريته جاءت ذات يوم بصحفة فيها مرقة حارة، وعنده أضياف، فعثرت؛ فصبت المرقة عليه، فأراد ميمون أن يضربها، فقالت الجارية: يا مولاي! استعمل قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾، قال لها: قد فعلت، فقالت: اعمل بما بعده: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ

ٱلنَّاسِ﴾، فقال: قد عفوت عنك، فقالت الجارية: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾[آل عمران:١٣٤]، قال: قد أحسنت إليك، فأنت حرة لوجه الله ﷻ".

قال أبو حاتم رحمه الله: "الواجبُ على العاقل إذا غضب واحتدّ: أن يذكر كثرة حلم الله عنه، مع تواتر انتهاكه محارمه، وتعدّيه حرماته، ثمّ يَحلُم، ولاَ يخرجه غيظه إلى الدّخول في أسباب المعاصي".

وفي الختام..

إذا حلت بك محنة أو بلاء؛ فادع الله وضمن اسم (الحليم) في دعائك؛ فإن النبي ﷺ كان يدعوه عند الكرب بهذا الدعاء: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ، وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ»[أخرجه البخاري ومسلم].

اللهم! كما حلمت على عبادك فاجعل حلمك علينا سعادةً في الدارين.

(٥٤)

الرؤوف جل جلاله

جاء في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «أَسْرَفَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ المَوْتُ أَوْصَى بَنِيهِ؛ فَقَالَ: إِذَا أَنَا مِتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اسْحَقُونِي، ثُمَّ اذْرُونِي فِي الرِّيحِ فِي البَحْرِ، فَوَاللهِ! لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا.

فَفَعَلُوا ذَلِكَ بِهِ، فَقَالَ لِلأَرْضِ: أَدِّي مَا أَخَذْتِ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ فَقَالَ: خَشْيَتُكَ، يَا رَبِّ -أَوْ قَالَ: مَخَافَتُكَ- فَغَفَرَ لَهُ بِذَلِكَ».

وربنا ﷻ أثنى على ذاته وبشر عباده بقوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾[النحل:٧].

والرأفة: أشد الرحمة وأبلغها.

وهي خير من كل وجه، قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٤٣﴾[البقرة:١٤٣].

وربنا ﷻ الذي خلق الإنسان وحفظه ورحمه، وأحسن إليه، وسخر له الكون كله، ودفع السوء عنه، وجلب له الخيرات؛ فهذا من إحسانه وكرمه.

بل من رأفته ﷻ: أنه يقبل طاعة الطائعين مهما صغرت، وأنه يحفظ إيمان من آمن به فلا يضيعه، وهذا من رأفته ﷻ بأوليائه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة:١٤٣].

أكمل الدلالات:

ومن جلال رأفته: أن حذر عباده ورغبهم ورهبهم، ووعدهم وأوعدهم؛ رأفةً بهم، ومراعاةً لصلاحهم ومصالحهم، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران: ٣٠].

ومن دلائل رأفته: أنه أنزل الكتاب على رسوله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذنه، قال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [الحديد:٩].

ومن دلائل رأفته: أن سخر لنا وسائل النقل؛ كالخيل والبغال والحمير قديمًا، والسيارات والطائرات والقطارات وغيرها حديثًا، فالله ﷻ قد قال: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل:٧].

ومن جلال رأفته: أن ما اشتراه من العباد من أنفسهم وأموالهم إنما هو خالص ملكه، ثم إنه ﷻ يشتري منهم ملكه الخالص بما لا يعد ولا يحصى، قال ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾[البقرة:٢٠٧].

ومن جلال رأفته: أنه يجيب دعاء أوليائه، قال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾[الحشر:١٠].

ومن جلال رأفته: أنه نصب الحدود الزاجرة عن الحدود الحاملة على التقوى، فإن الرأفة تقيم المرؤوف به؛ لأنها ألطف الرحمة وأبلغها، قال ﷻ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾[النور:٢٠].

ومن دلائل رأفته: إمهاله للكافرين والعاصين من أن يأخذهم بالعذاب على غرة وهم لا يشعرون، بل يمهلهم، ويعافيهم، ويرزقهم، قال ﷻ: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾[النحل:٤٧].

ومن دلائل رأفته: أنه يمسك ﴿السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾[الحج:٦٥].

❐ رسالة إلى..

إلى كل من أدركه الفقر، وتغشاه الكرب، وتغيرت ملامحه، وانكسر قلبه.

إلى من أثقله الدين، وحار فكره، وتشتت ذهنه، وظن أن الدنيا ضاقت عليه.

إلى من أهلكته الأوجاع، وأتعبته الآلام، وعجز الأطباء عنه، وأغلق الباب دونه.

إلى من حمل الهم، وغشيه الغم، وأدارت الدنيا ظهرها له؛ حتى ضاقت عليه بما رحبت.

إلى من غاب ابنه، وسافر حبيبه، وغادر صديقه؛ فضاقت نفسه، ورجف قلبه؛ فأصبح الورد شوكاً، والعالم الجميل كئيباً..

تَذَكَّرْ هُنَا قَوْلَهُ ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧﴾[النحل:٧]، وردد: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٢٠٧﴾[البقرة:٢٠٧]، وناد: يا رؤوف! ارأف بحالي، وارحم ضعفي، وفرج همي، واكشف السوء عني.

قال ابن القيم: "والله ﷻ يبتلي عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه"، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[يوسف:٨٦].

وهنا؛ انتظر الفرج؛ فالله ﷻ قال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ

﴿٦٢﴾ [النمل:٦٢].

إنه الرؤوف الرحيم سبحانه وتعالى، فما أعظم شأنه! وأعلى مكانه! وأقربه من خلقه! وألطفه بعباده!

فإذا رأيت الحبل يشتد؛ فاعلم أنه سينقطع، وإذا اشتد الظلام؛ فأبشر بصبح قريب.

لا تضق ذرعًا مع الرب الرؤوف الرحيم جل وعلا، فمن المُحال دوامُ الحال، وأفضلُ العبادةِ: انتظارُ الفرج، والأيامُ دُولٌ، والدَّهرُ قُلَّبٌ، والليالي حُبَالَى، والغيبُ مستور، والرؤوف قال: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ [الرحمن: ٢٩]، وقال جل وعلا: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾ [الطلاق:١]، والله سبحانه وتعالى قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ٦﴾ [الشرح:٥-٦].

قلوب سجدت..

وقد وصف الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف فقال: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة:١٢٨]، أي: شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين، أرحم بهم من والديهم.

ولذا؛ كان حقه مقدمًا على سائر حقوق الخلق، وواجبًا على الأمة الإيمان به وتعظيمه وتوقيره وتعزيره.

يقوم النبي ﷺ الليل كله في آية: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾[المائدة:١١٨]، فيخبره ربه ﷻ الرؤوف أننا سنرضيك في أمتك.

والمؤمن يرأف بنفسه فيسلك بها إلى مسالك النجاة، ويقيها موارد المهالك، وكذلك هو مع غيره.

قال ابن رجب رحمه الله: "من جادَ على عباد الله؛ جاد الله عليه بالعطاء والفضل، والجزاء من جنس العمل".

إِلَهِي! تَرَى حَالِي وَفَقْرِي وَفَاقَتِي
وَأَنْتَ مُنَاجَاتِي الخَفِيَّةَ تَسْمَعُ
إِلَهِي! أَذِقْنِي طَعْمَ عَفْوِكَ يَوْمَ لا
بَنُونَ وَلاَ مَالٌ هُنَالِكَ يَنْفَعُ

اللهم إنا نسألك يا رؤوف! أن تدخلنا جنتك، وتعيذنا من نارك.

(٥٥)

الوَدُودُ جل جلاله

وَلَمَّا جَلَسْنَا مَجْلِسًا طَلَّهُ النَّدَى
جَمِيلاً وَبُسْتَانًا مِنَ الرَّوْضِ نَادِيًا
أَثَارَ لَنَا طِيبُ المكَانِ وَحُسْنُهُ
مُنًى فَتَمَنَّيْنَا فَكُنْتَ الأَمَانِيَا

ربنا الودود سبحانه وتعالى؛ حبيب الطائعين، وملاذ الهاربين، وملجأ الملتجئين، وأمان الخائفين.

المحب للتوابين والمتطهرين، أجود الأجودين، وأكرم الأكرمين.

أوسع من أعطى، وأرحم من استرحم، وأكرم من قصد، الملاذ في الشدة، والأنيس في الوحشة، والنصير في القلة سبحانه وتعالى.

حديثنا عن اسم الله: (الودود سبحانه وتعالى):

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾ [هود:٩٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ۝١٤ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۝١٥﴾ [البروج:١٤-١٥].

والود: المحبة.

فربنا ﷻ تودد إلى أوليائه بمعرفته، ونعوته الجميلة..

وهذا الود خاص بالأولياء والأتقياء؛ فجلب لهم أسباب التودد إليه، وجذب قلوبهم وده، فذكر لهم ما له من الأسماء الحسنى والنعوت الواسعة العظيمة الجميلة؛ فجلبت القلوب السليمة والأفئدة المستقيمة إليه.

وَكَانَ فُؤَادِي خَالِيًا قَبْلَ حُبِّكُمُ
وَكَانَ بِذِكْرِ الخَلْقِ يَلْهُوْ وَيَمْرَحُ
فَلَمَّا دَعَا قَلْبِي هَوَاكَ أَجَابَهُ
فَلَسْتُ أَرَاهُ عَنْ فِنَائِكَ يَبْرَحُ

وربنا ﷻ ودود؛ تحبب إلى العصاة من خلقه، وتودد إلى التائبين منهم؛ فشرح لهم الأسباب التي ينالون بها مغفرته، والسبل إلى عفوه، والدلائل على سعة رحمته.

قال ﷻ: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾[الزمر:٥٣]، وقال ﷻ: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾[الأعراف:١٥٦].

وربنا ﷻ تودد إلى عباده بآلائه ونعمه العظيمة الظاهرة والباطنة، فهو الذي أوجدهم وأبقاهم وأحياهم وأصلحهم، وأتم لهم الأمور، وهداهم للإيمان والإسلام؛ الذي هو أكبر النعم.

وَهُوَ الوَدُوْدُ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّهُ
أَحْبَابُهُ وَالفَضْلُ لِلمَنَّانِ

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ المَحَبَّةَ فِي قُلُوْ ... بِهِمُ وَجَازَاهُمْ بِحُبٍّ ثَانِ
هَذَا هُوَ الإِحْسَانُ حَقًّا لا مُعَا ... وَضَةً وَلا لِتَوَقُّعِ الشُّكْرَانِ

إحسان محض:

إذا كُشف معنى اسم الودود لعبدٍ؛ تعلق قلبه بربه؛ فأصبح مشتغلاً به حبًّا وشوقًا ولذةً لا أحلى منها ولا أطيب!

وذلك أعظم ما عبده به العابدون، وتقرب إليه المتقربون: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المائدة:٥٤].

وصفاء الحال بحسب صفاء المعرفة بأسماء الله وصفاته.

والعبد المؤمن يعلم أن هذا الحال ليس بحول العبد ولا قوته، وإنما هو الودود سبحانه وتعالى الذي أحب عبده فجعل المحبة في قلبه، ثم لما أحبه العبد بتوفيقه جازاه الله بحب آخر، وهذا هو الإحسان المحض؛ إذ منه السبب ومنه المسبب.

وإذا أحب العبد ربه حبًّا حقيقيًّا أثمر إخلاص العبودية له وحده، واستلزم محبة من يحبه الله وما يحبه، ويبغض من يبغضه وما يبغضه، وهذه هي حقيقة الولاء والبراء: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ

وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (٢٢)﴾[المجادلة:٢٢].

للمحبين فقط!

والمؤمن الصادق يتودد إلى الله بالأعمال التي تقتضي محبته ﷻ؛ من الأقوال والأفعال، وأعظمها: طاعة الله ﷻ ورسوله ﷺ، قال ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران:٣١].

ولا يزال العبد يمضي على ما يحبه الله ﷻ، ويسارع فيما يريده مولاه، حتى يفوز بالحب، ويظفر بالقرب، «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ العَبْدَ نَادَى جِبرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحْبِبْهُ! فَيُحِبُّهُ جِبرِيلُ، فَيُنَادِي جِبرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ! فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ»[أخرجه البخاري].

قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا (٩٦)﴾[مريم:٩٦].

وإذا أحب الله ﷻ عبداً؛ كان «سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»[أخرجه البخاري].

قال ابن القيم رحمه الله: "فالأسباب الجالبة لمحبة اللهِ ﷻ عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به..

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض..

الثالث: دوام ذكره على كل حال؛ باللسان والقلب، والعمل والحال...

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى...

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه، ونعمه الباطنة والظاهرة...

السابع -وهو من أعجبها-: انكسار القلب بكليته بين يدي الله سبحانه وتعالى...

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي لمناجاته...

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم...

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل.

❒ برهان الود:

فَمَا كُلُّ عَيْنٍ بِالحَبِيبِ قَرِيرَةٌ ... وَلاَ كُلُّ مَنْ نُوْدِي يُجِيبُ المُنَادِيَا

يسمع المحبون منادي الحبيب: (حي على الفلاح!)؛ فيهجرون الفرش، ويطردون الكرى، ويمتطون الأقدام؛ في وهج الشمس أو لوعة البرد، وكأنما يمشون على الحرير، ويطرق أسماعهم: (حي على الكفاح!)؛ فيبذلون المهج، ويقدمون الأرواح، ويزهقون الأنفس، ويهرقون الدماء.

يتلى عليهم: ﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم﴾[البقرة:٢٥٤]؛ فيتسابقون بالغالي والنفيس، ويبذلون من أعز ما يملكون وأفضل ما يحبون، ويعطون عطاء من

لا يخشى الفقر، ويتلى عليهم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾[آل عمران:٩٧]؛ فيقبلون من كل فج عميق، وواد سحيق، شعثًا غبرًا خماص البطون، ظمأى الأفئدة: لبيك اللهم لبيك! لبيك لا شريك لك لبيك!

حالهم وحال غيرهم كقول الشاعر:

مَنْ لَمْ يَبِتْ وَالحبُّ حَشْوُ فُؤَادِهِ
لَمْ يَدْرِ كَيْفَ تُفَتَّتُ الأَكْبَادُ

يقول جلال الدين الرومي: "إن الحب يجعل المر حلوًا، والتراب تبرًا، والكدر صفاءً، والألم شفاءً، والسجن روضةً، والسقم نعمةً، والقهر رحمةً، وهو الذي يلين الحديد، ويذيب الحجر، ويبعث الميت، وينضح فيه الحياة".

فَلَيتَكَ تَحلُو وَالحيَاةُ مَرِيرَةٌ ... وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالأَنَامُ غِضَابُ
وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ ... وَبيْنِي وَبَيْنَ العَالَمِينَ خَرَابُ
إِذَا نِلْتُ مِنْكَ الوُدَّ فَالْكُلُّ هَيِّنٌ ... وَكُلُّ الَّذِي فَوقَ التُّرَابِ تُرَابُ

ويقول ابن القيم رحمه الله عن المحبة: "وهي: سر التأليه، وتوحيدها هو: شهادة أن لا إله إلا الله".

يقوم أعرابي والنبي ﷺ يحدث الناس؛ فيقول: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: «مَا أَعْدَدْتَ لَهَا»، قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة؛ ولكني أحب الله ورسوله، قال: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»[أخرجه البخاري ومسلم].

أُحِبُّ الصَّالحِينَ وَلَسْتُ مِنْهُمْ ... لَعَلِّي أَنْ أَنَالَ بِهِمْ شَفَاعَةْ
وَأَكْرَهُ مَنْ تِجَارَتُهُ المَعَاصِي ... وَلَوْ كُنَّا سَوَاءً فِي البِضَاعَةْ

علامة..

قال هرم بن حيان: " ما أقبل عبدٌ بقلبه إلى الله عز وجل؛ إلا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودتهم ".

فالمؤمن: ودود؛ يُحِب ويُحَب، ويألف ويُؤلَف، جاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «المُؤْمِنُ يَأْلَفُ وَيُؤْلَفُ»[حديث حسن. رواه الطبراني في «المعجم الأوسط»]، وذلك أنه يحب الخير لأقرانه المسلمين، ويكف شره عنهم، وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو: «اللَّهُمَّ! وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ»[حديث صحيح. رواه الترمذي].

اللهم يا ودود! نسألك حبك وحب من يحبك، وحب عمل يقربني إلى حبك.

(٥٦)

البَرُّ جل جلاله

أيها العبد الفقير! لازم باب مولاك الكريم، وتعزز بالمولى العزيز العليم، توسل إليه بطاعته؛ فإنه البر الرحيم.

هنا؛ يتفضل عليك بنعمه؛ إن أطعته أكرمك وفضلك، وإن ضيعت ما مضى سيرحمك ويمهلك، وإن تبت وأنبت شكر، وإن عصيت وأسأت ستر.

فكيف يصبر عن قربه من وجد طعم عبوديته وحبه؟ أم كيف لا ينقطع إليه من وجد لذة التذلل بين يديه؟!

إِذَا كَانَ حُبُّ الهَائِمِينَ مِنَ الوَرَى
بِلَيْلَى وَسَلْمَى يَسْلُبُ اللُّبَّ وَالعَقْلا
فَمَاذَا عَسَى أَنْ يَصْنَعَ الهَائِمُ الَّذِي
سَرَى قَلْبُهُ شَوْقًا إِلَى المَلإِ الأَعْلَى

وصدق من قال: "والله! ما أوحش الطريق لمن لم يكن الله مؤمنه، وما أضل الطريق لمن لم يكن الله دليله".

فسبحان البر الرحيم! الذي عم إحسانه وبره وخيره جميع أهل الأرض والسماوات، في كل اللحظات؛ من أصناف البر الظاهرة والباطنة.

والله قال: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[لقمان:٢٠]، والله أثنى على ذاته العلية بقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾[الطور: ٢٨].

فربنا ﷻ العطوف على عباده، الرحيم الرفيق بهم، المصلح لأحوالهم، وشؤونهم الدنيوية والشرعية.

ومن كمال بره ﷻ: أنه يبر بالمحسن في مضاعفة الثواب، ويبر بالمسيء في الصفح والتجاوز عنه.

وربنا البر اللطيف بعباده؛ يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر.

وهو البر بأوليائه؛ إذ خصهم بولايته، واصطفاهم لعبادته، ويدفع عنهم جميع أنواع الشرور والسيئات والملمات.

وتتجلى سعة بره فيما أعده لأوليائه في دار خلده: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾[الطور:٢٨] .

وَالبِـــرُّ فِـــي أَوْصَـــافِهِ سُـــبْحَانَهُ
هُـوَ كَثْـرَةُ الخَيْـرَاتِ وَالإِحْسَانِ

صَدَرَتْ عَنِ البِرِّ الَّذِي هُوَ وَصْفُهُ
فَـــالبِرُّ حِينَئِـــذٍ لَـــهُ نَوْعَـــانِ

وَصْـفٌ وَفِعْـلٌ، فَهُـوَ بَـرٌّ مُحْـسِنٌ

مُـوْلِي الجَمِيـلِ وَدَائِـمُ الإِحْـسَانِ

فـالله ﷻ هـو: الـبر بعبـاده، العطـوف علـيهم، المحـسن إلـيهم، يوسـعهم خـيرًا وكـرمًـا وفـضلاً وشـكرًا وإجابـةً: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾ [لقمان:٢٠].

❑ الكل قد أقيم في خدمتك..

فالملائكة الذين هم حملة عرش الرحمن ومن حوله؛ يستغفرون لك! والملائكـة الموكلـون بـك يحفظونـك، والموكلـون بـالقطر والنبـات يسعون في رزقك ويعملون فيه.

الأفلاك سخرت منقادةً دائرةً بما فيه مصالحك، والشمس والقمر والنجـوم مـسخرات جاريـات بحـساب أزمنتـك وأوقاتـك، وإصـلاح رواتـب أقواتك.

والعالم السفلي كله مسخر لك؛ الأرض والجبال والبحار والشجر والثمر والنبات والدواب.. كل ما فيه لك: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾ [الجاثية:١٣].

❑ نسيم البـر..

ومن إحسانه ﷻ: أن يسر لنا الطريق إليه؛ فيسر شريعته علينا، وجعلها سمحةً، ونفى عنها الحرج، ولم يكلفنا ما لا نطيق: ﴿وَمَا جَعَلَ

عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج:٧٨]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦]، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ [القمر: ١٧].

ومن بره بنا: أنه تبارك وتعالى يتقبل القليل منا، ويثيب عليه الكثير، ويعفو عن كثير من السيئات، ويكفينا هذا الحديث العظيم؛ الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه:

«إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ:

فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ عز وجل عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ.

وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا؛ كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً» [أخرجه البخاري ومسلم].

ومن بره بنا: أنه يفرح بتوبة عبده، وأننا إذا أذنبنا لم يفضحنا؛ بل وفتح لنا أبواب التوبة: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر:٥٣].

وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «قَالَ اللهُ سبحانه وتعالى: يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ

بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً» [حديث صحيح. رواه الترمذي].

لَكَ الحَمْدُ حَمْدًا نَسْتَلِذُ بِهِ ذِكْرًا ... وَإِنْ كُنْتُ لَا أُحْصِي ثَنَاءً وَلَا شُكْرَا

لَكَ الحَمْدُ حَمْدًا طَيِّبًا يَمْلَأُ السَّمَا ... وَأَقْطَارَهَا وَالأَرْضَ وَالبَرَّ وَالبَحْرَا

إِلَهِي تَغَمَّدْنِي بِرَحْمَتِكَ الَّتِي ... وَسِعْتَ وَأَوْسَعْتَ البَرَايَا بِهَا بِرَّا

❑ حظك منه..

وربنا بر، يحب البر، ويأمر به، ويحب التخلق به من عباده.

وأجمع الآيات: قوله ﷻ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة:١٧٧].

ولن ينال العبد بر الله ﷻ به في الآخرة إلا باتباع ما يفضي إلى بره ومرضاته، قال ﷻ: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾ [آل عمران:٩٢]، قال الرازي ؒ: "كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة؛ وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة".

اللهم! من علينا، وقنا عذاب السموم؛ إنك أنت البر الرحيم!

(٥٧)

الْقَرِيبُ جل جلاله

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾[البقرة: ١٨٦].

سؤال تولى الله جل وعلا الرد عنه بنفسه، في آية تسكب في كل قلب مؤمن النداوة الحلوة، والود المؤنس، والرضا المطمئن، والثقة الكافية، واليقين الشافي.

وفي ظل هذا الأنس والقرب المودود؛ نتعرف على اسم الله: (القريب جل وعلا):

قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾[سبإ: ٥٠].

اسم حبيب إلى النفوس، غني بالمعاني الرائعة والدلالات الكثيرة..

لفظه يشف عن معناه كما يشف الكأس الصافي عما فيه من الماء الزلال.

فربنا جل وعلا قريب من عباده، مستو على عرشه؛ الذي هو فوق خلقه، عليم

بالسرائر وما تكنه الضمائر، ومعيته لكل أحد.

❐ وقربه من خلقه نوعان:

أولاً: قرب عام، وهو: قربه ﷻ من كل أحد بعلمه ومراقبته ومشاهدته وإحاطته بجميع الأشياء، وهو فوق كل المخلوقات، وهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد.

وهذه المعية العامة: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾[ق:١٦].

ثانيًا: قرب خاص، وهو: قربه ﷻ من عابديه وسائليه ومحبيه، وهو قرب يقتضي: المحبة والنصرة، والتأييد في الحركات والسكنات، والإجابة للداعين، والقبول والإثابة للعابدين.

وهو قرب لا تدرك له حقيقة، وإنما تعلم آثاره؛ من لطفه بعبده، وعنايته به، وتوفيقه وتسديده: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[البقرة: ١٨٦].

وَهُوَ القَرِيبُ وَقُرْبُهُ المُخْتَصُّ بِـ ... الدَّاعِي وَعِبادِهِ عَلَى الإِيمَانِ

صح عنه ﷺ أنه قال: «وَالَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَةِ أَحَدِكُمْ»[أخرجه مسلم].

يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

❐ في كنف الله..

والله ﷻ قريب من أوليائه، حافظ عباده، يكلؤهم برعايته، يحوطهم

بعنايته، ينزل عليهم غيث الرحمة، لا يدعهم طرفة عين، لا يكلهم إلى أنفسهم، ولا يسلط عليهم أعداءهم، ولا يجعل للشيطان عليهم سبيلاً.

أتوا بثمن المعية الخاصة؛ فكان: القرب، والنصر، والتأييد، والحفظ، ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[المائدة:١٢].

اطمأنوا إلى ربهم، وحسن ظنهم به سبحانه وتعالى؛ فكان لهم في كل حين..

فهذا نوح عليه السلام بعد الألف إلا خمسين عامًا من الدعوة والبلاء والعناء دعا ربه؛ فلباه، ونجاه، وأهلك خصومه.

وهذا إبراهيم عليه السلام استجار بربه؛ فأنجاه من النار.

ونجى يونس بن متى عليه السلام من الكرب العظيم، ورد يوسف إلى يعقوب وجمع شملهم، وألف بينه وبين إخوته، ورد بصر يعقوب إليه.

ورسولنا صلى الله عليه وسلم تعصف به مواقف تشيب منها الرؤوس، وتبلغ فيها القلوب الحناجر، وظُن بالله الظنون من بعض أصحابه، فيتضرع إلى مولاه؛ فينجز الله عز وجل الوعد، ويحقق المراد، ويعلي كلمة الحق..

فالله عز وجل قريب من جميع خلقه المؤمنين، يراهم ويحميهم.

تأتي امرأة تجادل في زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعائشة رضي الله عنها في طرف البيت تقول أنها تسمع كلمةً وتغيب عنها كلمة، وبعد ذلك الجدل ينزل جبريل على الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي

زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ [المجادلة: ١]،

فسبحان الذي وسع سمعه الأصوات كلها!

إنه قريب:

لا ترفع صوتك بالدعاء! فهو قريب يسمعك..

سمع ﷺ الصحابة رضي الله عنهم وهم يدعون ربهم بأصوات جهيرة مرتفعة؛ فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ! ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، وَلَكِنْ تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا» [أخرجه البخاري ومسلم].

والله مطلع على ما في نفسك وعلى خواطرك، تدعوه في قلبك فيستجيب.. إِنَّهُ القَرِيبُ سبحانه وتعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم: ٣].

تذكره في نفسك فيسمعك ويذكرك؛ فإنه القريب سبحانه وتعالى.

وفي الحديث القدسي المتفق عليه: «إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٌ مِنْهُمْ».

وما من إنسان إلا وله منحة من الله القريب جل وعلا؛ في تفريج هم أو تنفيس كرب، أو دفع ضرر، أو منع خطر، أو نيل محبوب، أو حصول مطلوب...

فباب الله القريب مفتوح، وعطاؤه ممنوح، وكرمه عظيم، وجوده كبير؛ فكم من حاجة قضيت، ومن دعوة قبلت، ومن بركة نزلت، ورحمة غشيت؟!

ثوب الافتقار..

فإذا علمت بقرب الله ﷻ منك، وأنه مطلع على سريرتك؛ يسمع دعاءك ويرى مكانك ويعلم ما في قلبك؛ فكن من المحسنين: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف:٥٦].

وتقرب إليه؛ فإن تقربت منه شبراً تقرب إليك ذراعًا، ففي الحديث القدسي: «وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ» [أخرجه البخاري ومسلم -واللفظ له-].

والتقرب إليه يكون بالفرائض قبل النوافل؛ «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ» [أخرجه البخاري].

وكلما كمل العبد في مراتب العبودية كان أقرب إلى الله ﷻ، وكلما تذلل لله وانطرح بين يديه ومرغ أنفه وعفر وجهه لربه ومحبوبه؛ زاد قربه من ربه، وارتفع شأنه، صح عنه ﷺ أنه قال: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ؛ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ» [أخرجه مسلم].

فالسجود فيه: أعظم دلائل الإجلال، وأقصى درجات العبودية، وأجل مظاهر التذلل، وأجمل رسائل الحب، وأعذب مناظر الخشوع، وأفضل أثواب الافتقار..

وبقدر سجودك لله ﷻ، تكون رفعتك عند الله، جاء عنه ﷺ أنه قال: «عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلهِ، فَإِنَّكَ لاَ تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً إِلاَّ رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً»[أخرجه مسلم].

وهنا تحصل على النعيم الدائم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١﴾[الواقعة: ١١]، ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾[المطففين:٢٨].

فهنيئًا لك بربك وبإقبالك عليه!

حَتَّى وَإِنْ بَدَتِ السَّمَاءُ بَعِيدَةً ... إِنَّ الَّذِي فَوْقَ السَّمَاءِ قَرِيبُ
فَارْفَعْ يَدَيْكَ إِلَى الإِلَهِ مُنَاجِيًا ... إِنَّ الجُرُوحَ مَعَ الدُّعَاءِ تَطِيبُ
مَا ضَرَّنَا بُعْدَ السَّمَاءِ وَإِنْ عَلَتْ ... مَا دُمْتَ يَا رَبَّ السَّمَاءِ قَرِيبُ

اللهم قلت وقولك الحق: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾[البقرة:١٨٦].

اللهم يا قريب يا مجيب!! أجب دعواتنا، وارحم ضعفنا، وفرج همنا، وأحسن خاتمتنا في الأمور كلها، وآجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين؛ يا سميع الدعاء!

(٥٨)
المُجِيبُ جَلَّ جَلَالُهُ

سَمِعْنَا حَدِيثًا كَقَطْرِ النَّدَى — فَجَدَّدَ فِي النَّفْسِ مَا جَدَّدَا
فَأَضْحَى لِآمَالِنَا مُنْعِشًا — وَأَمْسَى لِآلامِنَا مُرقِدًا

قال عطاء: "جاءني طاووس رحمه الله فقال لي: يا عطاء! إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق دونك بابه، وعليك بطلب حوائجك إلى من بابه مفتوح لك إلى يوم القيامة، طلبك أن تدعوه ووعدك الإجابة".

﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾[هود:٦١].

فربنا سبحانه وتعالى المجيب؛ الذي ينيل سائله ما يريد، ويجيب دعاء السائلين، ويغيث الملهوفين، ويؤمن فزع الخائفين، حتى إنه يستجيب للذين كفروا به وما عرفوه ساعةً من نهار! فهو يجيب نداءهم، ويكشف ضرهم كرمًا منه، ولعلهم يؤمنون.

ولكن أكثر الناس يتناسون الفضل، وينكرون الجميل، ويكفرون المعروف، قال عز وجل: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ

إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾[العنكبوت:٦٥].

❑ على عتبة الباب..

والناس إذا أغلقت في وجوههم الأبواب، وضاقت بهم الأرض، واشتد بهم الكرب، وعظم عليهم الخطب، ولم يجدوا في المخلوقين ملجأً ولا ملاذًا؛ فإنهم بدافع الفطرة في نفوسهم يلجؤون إلى الله ﷻ، ويلوذون بجنابه، وينطرحون على أعتابه: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾[النحل:٥٣].

والله من كرمه وجوده وإحسانه: يحب أن يسأل في الرخاء وفي الشدة، ومن عرف الله في الرخاء عرفه في الشدة، صح عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللّٰهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالكَرْبِ؛ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ»[حديث حسن. رواه الترمذي].

سُئل الإمام أحمد بن حنبل: كم بيننا وبين عرش الرحمن؟ فقال: "دعوة صادقة من قلب صادق".

❑ ذكرى..

والعبد المؤمن يحذر موانع الإجابة حال الدعاء، ومنها:

١- عدم الإقبال على الله بصدق.

٢- عدم الجزم في المسألة وعدم الإلحاح في الدعاء.

٣- عدم الصلاة على النبي ﷺ.

٤- استعجال الإجابة.

٥- أكل الحرام أو شرب الحرام أو لبس الحرام.

٦- ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وجاء في السنة أوقات وأحوال يُرجى فيها قبول الدعاء، ومنها:

١) الدعاء بين الأذان والإقامة.

٢) في جوف الليل الآخر.

٣) حال السجود.

٤) ساعة الجمعة.

٥) وحال السفر.

٦) ودعوة المظلوم.

٧) ودعوة الوالد على ولده.

والباب في هذا واسع، ولكن تذكر وأنت ترفع يديك بأن هذا فضل من ربك عليك، يريد أن يهب لك؛ فأحسن الظن، واعزم المسألة؛ فإن الله جل وعلا قال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾[غافر: ٦٠].

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "ارفعوا أفواج البلاء بالدعاء".

وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: "لا تعجزوا عن الدعاء؛ فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد".

قال ابن حجر رحمه الله: "كل داعٍ يستجاب له لكن تتنوع الإجابة؛ فتارةً تقع بعين ما دعا به، وتارةً بعوضه".

بِكَ أَسْتَجِيرُ وَمَنْ يُجِيرُ سِوَاكَا فَأَجِرْ ضَعِيفًا يَحْتَمِي بِحِمَاكَا

إِنِّي ضَعِيفٌ أَسْتَعِينُ عَلَى قُوَى ذَنْبِي وَمَعْصِيَتِي بِبَعْضِ قُوَاكَا

أَذْنَبْتُ يَا رَبِّي وَآذَتْنِي ذُنُوبٌ مَا لَهَا مِنْ غَافِرٍ إِلَّاكَا

أَدْعُوكَ يَا رَبِّي لِتَغْفِرَ حَوْبَتِي وَتُعِينَنِي وَتُمِدَّنِي بِهُدَاكَا

فَاقْبَلْ دُعَائِي وَاسْتَجِبْ لِرَجَاوَتِي مَا خَابَ يَوْمًا مَنْ دَعَا وَرَجَاكَا

قال ابن القيم رحمه الله: "وقبيحٌ بالعبد أن يتعرّضَ لِسُؤَالِ العبيد؛ وهو يَجِدُ عندَ مولاه سبحانه كُلّ مَا يُريده!".

اللهم يا مجيب! أجب دعاءنا، وارحم ضعفنا، وأجرنا ووالدينا من النار.

(٥٩)

المَجِيدُ جل جلاله

❑ ربك يحب المدح..

صح عنه ﷺ أنه قال: «وَلا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المِدْحَةُ مِنَ اللهِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ: وَعَدَ اللهُ الجَنَّةَ» [رواه مسلم]، وفي رواية: «وَلا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ المِدْحَةُ مِنَ اللهِ؛ فَلِذَلِكَ مَدَحَ نَفْسَهُ» [رواه البخاري].

وفي «الأدب المفرد» للبخاري: أن الأسود بن سريع قال: كنت شاعرًا، فأتيت النبي عليه الصلاة والسلام؛ فقلت: ألا أنشدك محامد حمدت بها ربي؟

قال: «إِنَّ رَبَّكَ يُحِبُّ المَحَامِدَ»، ولم يزدني عليه. [حديث حسن].

وَمَا بَلَغَ المُهْدُوْنَ نَحْوَكَ مِدْحَةً

وَإِنْ أَطْنَبُوْا، إِنَّ الَّذِي فِيكَ أَعْظَمُ

تمجيدنا لا يعود على الله عائده، وتقصيرنا لا يرجع على الله أثره؛ فالله تبارك وتعالى غني بذاته، محمود بصفاته لا بحمد الناس ولا بتمجيدهم له ولا بشكرهم على عطاياه.

ولكن من كرم الله سبحانه وتعالى علينا: أن جعل صلاح حياتنا بالشكر والثناء

عليه؛ لتزكو النفس، وتستقيم وتطمئن إلى ربها.

إن هذه الأحرف التي أضعها بين يديك، وهذا الكتاب هو: من تمجيد الله ﷻ الذي تفضل به علينا؛ الذي أسأله أن يتقبله منا جميعًا، ويجعلها لنا ذخرًا عنده يوم نلقاه.

لَكَ الحَمْدُ وَالنَّعَمَاءُ وَالمُلْكُ رَبَّنَا
فَلاَ شَيْءَ أَعْلَى مِنْكَ مَجداً وَأَمْجَدُ

قال ﷻ: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ٧٣﴾ [هود:٧٣].

والمجيد: من المجد، وهو: الشرف التام الكامل، والسعة والكثرة.

فربنا ﷻ وَاسِعُ الكَرَمِ، صَاحِبُ المَجِدْ، وأي مجد أعلى وأتم من مجده ﷻ؟!

فهو الموصوف بصفات: المجد والكبرياء والعظمة والجلال، وهو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل وأعلى من كل شيء.

وربنا ﷻ كل وصف من أوصافه عظيم شأنه؛ فهو العليم الكامل في علمه، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، القدير الذي لا يعجزه شيء، الحليم الكامل في حلمه، الحكيم الكامل في حكمته..

وجميع أسمائه وصفاته كمال؛ لا نحصي ثناءً عليه هو كما أثنى على نفسه.

❑ لك الثناء..

وقد مجد الله ﷻ نفسه؛ لكماله وعظمته وجلاله، صح في الحديث

القدسي: «أَنَا الجبَّارُ، أَنَا المُتَكبِّرُ، أَنَا المَلِكُ، أَنَا المُتَعَالِي؛ يُمَجِّدُ نَفْسَهُ»[حديث صحيح. رواه أحمد في «المسند»].

وربنا محمود على عظمته ومجده: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ٧٣﴾[هود:٧٣].

وهو تبارك وتعالى كثير الإحسان إلى عباده بما يفيضه من الخيرات، وما يرزق أولياءه من تمجيده في عبوديتهم له وحده تبارك وتعالى.

جاء في الحديث القدسي: «وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة:٤]، قال: مَجَّدَنِي عَبْدِي»[أخرجه مسلم]، وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا رفع رأسه من ركوعه قال: «رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ، مِلْءَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمِلْءَ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ»[أخرجه مسلم].

كن معه!

ومن مجده يستمد الرسل والأنبياء مجدهم؛ لذا سأل الصحابة رضي الله عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد عرفنا كيف نسلم عليك؛ فكيف نصلي عليك؟

قال: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ؛ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»[أخرجه البخاري ومسلم بنحوه].

وادي الفلاح:

والقرآن: كلام الله سبحانه وتعالى، وهو: ﴿قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١﴾[البروج:٢١]، شريف كريم عظيم، واسع الخير والفضل والكرم.

وقد مجد الله عز وجل نفسه في قرآنه المجيد، فكانت أعظم آياته: تلك التي

احتوت على الثناء عليه وذكر صفاته؛ كآية الكرسي في سورة البقرة، وهي أعظم آية في كتاب الله ﷻ، وسورة الإخلاص، وهي أفضل سورة، حتى صح عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ»[أخرجه مسلم].

ومن أعظم ما يعظم به العبد ربه ويمجده هو: تلاوة كتابه في آناء الليل وأطراف النهار، والاستمساك به، وتدبره والعمل به؛ علمًا وخشوعًا وفهمًا.

ومن كان من أهل القرآن كان من أهل الله الذين هم أهله وخاصته، صح عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ» [أخرجه مسلم].

لقي عمر بن الخطاب نافع بن الحارث بعسفان، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: من استعملت على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولًى من موالينا، قال: فاستخلفت عليهم مولًى؟! قال: إنه قارئ لكتاب الله ﷻ، وإنه عالم بالفرائض.

قال عمر: أما إن نبينا ﷺ قد قال: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»[أخرجه مسلم].

فالمجد لمن أخذ به وعمل به، والذل لمن أعرض عنه.

ومما يُمجد به الرب تبارك وتعالى: حسن الثناء عليه؛ تحميدًا وتكبيرًا وتسبيحًا وتهليلاً، ومن لازم ذلك فاز بخيري الدنيا والآخرة.

أخرج البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول

اللّه ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ؛ فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ؛ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ! فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا.

فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ -وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ-: مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ.

فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ فَيَقُولُونَ: لا -وَاللهِ!- مَا رَأَوْكَ؟

فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا.

يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟ يَقُولُونَ: يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ.

يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ يَقُولُونَ: لا -وَاللهِ!- يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا.

يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؛ كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً.

قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ.

يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ يَقُولُونَ: لا -وَاللهِ!- يَا رَبِّ! مَا رَأَوْهَا.

يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً.

فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ!

يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ المَلائِكَةِ: فِيهِمْ فُلانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ!

قَالَ: هُمُ الجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ».

وإذا كان جليسهم لا يشقى؛ فكيف الشأن بهم؟!

❐ العرش:

ووصف ربنا عرشه الذي استوى عليه بـ (المجيد)، فالله ﷻ لا يختار لنفسه إلا الأفضل والأتم والأكمل؛ ولذلك حق أن يكون مجيداً.

لَكَ الحَمْدُ وَالنَّعْمَاءُ وَالمُلْكُ رَبَّنَا
فَلاَ شَيْءَ أَعْلَى مِنْكَ مَجْدًا وَأَمْجَدُ
مَلِيكٌ عَلَى عَرشِ السَّمَاءِ مُهَيمِنٌ
لِعِزَّتِـهِ تَعنُـوْ الوُجُـوْهُ وَتَـسْجُدُ
فَسُبْحَانَ مَنْ لاَ يَعْرِفُ الخَلْقُ قَدْرَهُ
وَمَنْ هُوَ فَوْقَ العَرْشِ فَرْدٌ مُوَحَّدُ

اللهم! باسمك المجيد نسأل: أن تغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين.

(٦٠)

الحَمِيدُ جل جلاله

جاء في «صحيح البخاري»: أن النبي ﷺ صلى بأصحابه مرةً، فرفع رأسه من الركوع؛ فقال: «سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ!»، قال رجل وراءه: ربنا ولك الحمد؛ حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، فلما انصرف، قال: «مَنِ المُتَكَلِّمُ؟» قال: أنا، قال: «رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ!»، كيف لا يبتدرونها والله يحب الحمد؟!

لَكَ الحَمْدُ حَمْدًا نَسْتَلِذُ بِهِ ذِكْرًا
وَإِنْ كُنْتُ لا أُحْصِي ثَنَاءً وَلا شُكْرًا

أثنى الله ﷻ على ذاته العلية بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ [الشورى: ٢٨].

فربنا ﷻ المحمود في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ فله من الأسماء: أحسنها، ومن الصفات: أكملها، ومن الأفعال: أتمها وأحسنها.

وربنا ﷻ المحمود في شرعه؛ فإنه أكمل الشرائع وأنفعها لكل الخلائق.

وربنا ﷻ المحمود على وحدانيته، وتعاليه عن الشريك والنظير والولي

من الذل، قال ﷻ: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ١١١﴾[الإسراء:١١١].

وربنا ﷻ محمود بكل لسان، وعلى كل حال، فجميع المخلوقات ناطقة بحمده؛ من الجمادات والناطقات، في جميع الأوقات على آلائه وإنعامه، وعلى كماله وجلاله، قال ﷻ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤﴾[الإسراء: ٤٤].

فربنا ﷻ المستحق للحمد؛ بجميع صيغه وصوره، ولو لم يحمدوه فهو أهل الحمد؛ بفضله وجوده وعطائه ورحمته.

ولا يحمد على الأحوال كلها سواه.

❏ تذلل لمولاك!

وجعل ﷻ الحمد لنفسه دون غيره، ونهى أن يمدح المرء نفسه؛ فقال: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾[النجم:٣٢].

فربنا ﷻ يحمد نفسه ليعرفنا عليه، ولكي نصل بالحمد إليه، ونقبل عليه، ونطمع في مغفرته، ونطمع في عطائه، ونطمع كذلك في جنته.

فأي كرم هذا؟! يوفقك لفعل الخيرات ويحمدك عليها؟! ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣﴾[الأعراف:٤٣]، فإذا أراد ربك

إظهار فضله عليك؛ خلق الفضل ونسبه إليك، أعطاك مالاً، وأعطيت من هذا المال، وبعد هذا.. يحمدك الله جل وعلا على إنفاقك؛ والمال منه!

وربنا سبحانه وتعالى من لطفه بنا: نوع حمده؛ ليعرف العبد كيف يحمد الله ويثني عليه؛ فقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾[الفاتحة:٢]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾[الأنعام:١].

لك الحمد..

وأعظم صفة في المؤمنين: أنهم يحمدون الله سبحانه وتعالى في كل حين؛ في السراء والضراء؛ لأنهم يعلمون أن فعل الله جل وعلا كله حكمة وخير لهم.

صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إِذَا مَاتَ وَلَدُ العَبْدِ قَالَ اللهُ لِمَلائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ.

فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ.

فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ.

فَيَقُولُ اللهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الجَنَّةِ وَسَمُّوهُ: بَيْتَ الحَمْدِ»[رواه الترمذي].

ولذا؛ من أفضل الذكر: قول العبد: (الحمد لله)، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩﴾[ق:٣٩].

صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ؛ حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ»[أخرجه البخاري ومسلم].

ولما سئل رسول الله ﷺ: أي الكلام أفضل؟

قال: «مَا اصْطَفَى اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ»[أخرجه مسلم]. والحمد يكون باللسان والقلب والأعضاء.

روى الطبراني في «المعجم الكبير» عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ: الحَمَّادُونَ»[صحيح].

لَكَ الحَمْدُ حَمْدًا طَيِّبًا يَمْلأُ السَّمَا
وَأَقْطَارَهَـا وَالأَرْضَ وَالبَـرَّ وَالبَحْـرَا

لَكَ الحَمْدُ حَمْدًا سَرْمَدِيًّا مُبَارَكًا
يَقِلُّ مِدَادُ البَحْرِ عَنْ كُنْهِهِ حَصْرَا

لَكَ الحَمْدُ يَا ذَا الكِبْرِيَاءِ وَمَنْ يَكُنْ
بِحَمْدِكَ ذَا شُكْرٍ فَقَدْ أَحْرَزَ الشُّكْرَا

اللهم! لك الحمد؛ كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك.

(٦١، ٦٢)

الشَّاكِرُ الشَّكُورُ جل جلاله

أخرج البخاري في «صحيحه»: أن النبي ﷺ قال: «أَنَّ رَجُلًا رَأَى كَلْبًا يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ؛ فَأَخَذَ الرَّجُلُ خُفَّهُ، فَجَعَلَ يَغْرِفُ لَهُ بِهِ حَتَّى أَرْوَاهُ؛ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَأَدْخَلَهُ الجَنَّةَ».

قال سبحانه وتعالى مُثنيًا على ذاته: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ١٤٧﴾[النساء:١٤٧]،

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧﴾[التغابن:١٧].

فربنا سبحانه وتعالى يشكر اليسير من الطاعة؛ فيجازي عليه بالكثير، بل يضاعفه أضعافًا مضاعفةً من الثواب؛ بغير عد ولا حساب، ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١٦٠﴾ [الأنعام: ٦٠].

وربنا سبحانه وتعالى يشكر العباد على شكرهم له؛ فيزيدهم من الخير والفضل، وهو الذي أعطاهم إياه، وجعله لهم، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[النحل: ٥٣].

وربنا ﷻ يشكر عبده بأن يثني عليه بين ملائكته وفي ملئه الأعلى، ويلقي له الشكر بين عباده، ويشكر بفعله منهم، ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣﴾ [الإسراء:٣].

وربنا ﷻ يغفر الكثير من الزلل، ويقبل اليسير من صالح العمل ويثيب عليه؛ ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤﴾ [فاطر:٣٤].

ربنا ﷻ يعطي الجزيل من النعمة، فيرضى باليسير من الشكر.

في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا» .

وجاء في «سنن أبي داود»: أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ: اللَّهُمَّ! مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْكَ وَحْدَكَ، لاَ شَرِيكَ لَكَ، فَلَكَ الحَمْدُ، وَلَكَ الشُّكْرُ؛ فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ يَوْمِهِ، وَمَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي؛ فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ لَيْلَتِهِ»[حديث حسن].

❐ أعطى فأثنى!

ومن كمال شكره ﷻ: أنه يعطي العبد، ويوفقه لما يشكره عليه؛ فهو الذي أعطى فأثنى، فمنه السبب، ومنه المسبب، قال ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ٢٢﴾ [الإنسان: ٢٢].

فسبحان من يمن علينا بالسعي، ثم يوفقنا إليه، ثم يشكرنا عليه!

أليس هذا غاية الفضل والإحسان؟ فله الحمد والشكر.

وَهُوَ الشَّكُورُ فَلَنْ يُضَيِّعَ سَعْيَهُم　　لَكِنْ يُضَاعِفُهُ بِلا حُسْبَانِ

❑ أعظم الجزاء..

لما عقر نبي الله ﷺ سليمان الخيل غضبًا له -إذ أشغلته عن ذكره، فأراد ألا تشغله مرةً أخرى-؛ أعاضه عنها: الريح.

لما احتمل يوسف الصديق ﷺ ضيق السجن؛ شكر له ذلك بأن مكن له: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾[يوسف:٥٦].

ولما بذل رسله ﷺ أعراضهم فيه لأعدائهم؛ فنالوا منهم وسبوهم؛ أعاضهم عن ذلك بأن صلى الله عليهم وملائكته، وجعل لهم أطيب الثناء في سماواته وبين خلقه فأخلصهم ﴿بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦﴾[ص:٤٦].

ولما ترك الصحابة ﷺ ديارهم، وخرجوا منها في مرضاته؛ أعاضهم عنها رضوانه: وملكهم الدنيا وفتحها عليهم.

إنه الشكور ﷻ؛ يخرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرة من خير، ولا يضيع عليه هذا القدر، جاء في الحديث المتفق عليه: أن النبي ﷺ قال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ؛ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ».

فكيف بمن يزيل العوائق المعنوية عن طريق الناس؟ كيف بمن ييسر أمور الناس ويفرج همهم، ويكشف غمهم، ويعينهم على قضاء حوائجهم، ويدخل السرور على أنفسهم؟! وهذا -كله- منه ﷻ أن وفقك في الأولى والآخرة.

لما كان ﷻ هو الشكور على الحقيقة؛ كان أحب خلقه إليه: من اتصف بصفة الشكر، كما أن أبغض خلقه إليه: من عطلها واتصف بضدها.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "فالنعم ابتلاءٌ من الله وامتحان؛ يظهر بها شكرُ الشكور، وكفرُ الكفور".

والشكر شكران:

الأول: أن يكون باللسان، وهو: الثناء على المنعم.

والآخر: الشكر بجميع الجوارح، واستخدامها في طاعة الله ﷻ.

وهو دأب الأنبياء والصالحين جميعًا.

أخرج البخاري: أن النبي ﷺ كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه، فتقول عائشة رضي الله عنها: لم تصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فيقول: «أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟!».

وامتدح الله ﷻ آل داود عليه السلام على شكرهم: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾ [سبأ:١٣].

ولما كان القليل من عباد الله ﷻ من حقق عبادة الشكر؛ فقد أوجب على العبد أن يطلب الإعانة منه على الشكر والقبول.

فهذا النبي ﷺ يوصي معاذاً أن يقول دبر كل صلاة: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ!» [حديث صحيح. رواه أبو داود].

وفي الحديث الآخر قال ﷺ: «رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا» [حديث صحيح. رواه أبو داود].

ثم تأمل هذا الضمان لك من رب العالمين -إن كنت شاكراً-؛ فالله ﷻ قد قال: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء:١٤٧].

والشكر لك، قال ﷻ: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان:١٢]، ومن أراد الزيادة فعليه الشكر ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].. فما أرحم الله!

واحذر أن تُقارن نفسك بالآخرين في النِعم والمواهب؛ فإن هذا يوصلك إلى الحزن والكدر، واعمل بقوله ﷻ: ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [الأعراف:١٤٤].

❑ مفتاح القلوب:

ومن شكر الله ﷻ: شكر من أجرى الله النعمة على يديه، وأولهم:

الوالدان: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤﴾[لقمان:١٤].

جاء في «مسند الإمام أحمد»: «مَنْ لاَ يَشْكُرِ النَّاسَ لاَ يَشْكُرُ اللهَ»

[حديث صحيح].

تَبَارَكَ مَنْ شُكْرُ الورَى عَنْهُ يَقْصُرُ
لِكَوْنِ أيَادِي جُودِهِ لَيْسَ تُحْصَرُ
وَشَاكِرُهَا يَحْتَاجُ شُكْرًا لِشُكْرِهَا
كَذَلِكَ شُكْرُ الشُّكْرِ يَحْتَاجُ يُشْكَرُ
فَفِي كُلِّ شُكْرٍ نِعْمَةٌ بَعْدَ نِعْمَةٍ
بِغَيْرِ تَنَاءٍ دُونَهَا الشُّكْرُ يَصْغُرُ
فَمَنْ رَامَ يَقْضِي حَقَّ وَاجِبِ شُكْرِهَا
تَحَمَّلَ ضِمْنَ الشُّكْرِ مَا هُوَ أَكْبَرُ

اللهم! اجعلنا من الشاكرين؛ يا رب العالمين!

(٦٤،٦٣)

الأكرم الكريم جل جلاله

صح عنه ﷺ أنه قال: «إنِّي لأَعْلَمُ آخرَ أَهْلِ الجنَّةِ دُخُولاً الجَنَّةَ، وآخرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا: رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا! فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا؟

فَيَقُولُ: نَعَمْ، لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ؛ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ.

فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ! قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لا أَرَاهَا هَا هُنَا».

قال أبو ذر -راوي الحديث-: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه. [أخرجه مسلم].

ما أكرم الله! وما أحلم الله! وما أعظم الله!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار:٦]، ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ۝٤٠﴾ [النمل:٤٠].

والكرم: لفظ جامع للمحاسن والمحامد، لا يراد به: مجرد عطاء، بل الإعطاء من تمام معناه، ولذا؛ ورد عن أهل العلم في معنى الاسم أقوال عديدة، وكل الذي أوردوه حق.

فربنا الكريم جل وعلا كثير الخير والعطاء، دائم الخير، له قدر عظيم وشأن كبير، منزه عن النقائص والآفات، المكرم المنعم المتفضل؛ الذي يعطي لا لعوض ولغير سبب، يعطي المحتاج ومن لا يحتاج، إذا وعد وفى، ترفع إليه الحاجات صغيرها وكبيرها، لا يضيع من التجأ إليه، يتجاوز عن الذنوب، ويغفر السيئات، بل ويبدل السيئات حسنات، يعطي قبل أن نسأله.

رزقنا السمع والبصر، والأفئدة والجوارح، والقوة، والملكات الظاهرة والخفية؛ التي لا نستطيع عدها: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ٣٤﴾ [إبراهيم:٣٤]، جاد بها علينا دون أن نسأله، وقبل أن نسأله؛ كرماً منه وفضلاً، فهو يعطي ويثني.

ربنا الكريم جل وعلا؛ الذي قدر فعفا، وإذا وعد وفى، وعد المؤمنين في الدنيا والآخرة بألوان الفضل والخير والنعم والعطاء.

بل من كرمه سبحانه وتعالى: أنه علق عذاب عباده العاصين بمشيئته؛ إن شاء عاقبهم، وإن شاء عفا عنهم.

ربنا الذي لا يرد سائلاً.. «حَيِيٌّ كَرِيمٌ».

أعطى وأثنى:

فهو يعطي الإيمان، ثم يثني عليه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٢﴾[البقرة:٢٧٢].

سمع الجنيد رجلاً يقرأ: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ٤٤﴾[ص: ٤٤]؛ فقال: "سبحان الله! أعطى وأثنى"، أي: وهب له الصبر وأعطاه، ثم يمدحه ويثني عليه.

إِلَى اللهِ أُهْدِي الحَمْدَ وَالشُّكْرَ وَالثَّنَا
لَهُ الحَمْدُ مَوْلاَنَا عَلَيْهِ المُعَوَّلُ
وَأَشْهَدُ أَنَّ اللهَ لاَ رَبَّ غَيْرَهُ
كَرِيمٌ رَحِيمٌ يُرْتَجَى وَيُؤَمَّلُ

فسبحانه من كريم جواد!!

الكرم من صفاته، والجود من أعظم سماته، والعطاء من أجل هباته؛ فمن أعظم منه جودًا وكرمًا؟!

إنه الكريم:

الخلائق له عاصون، وهو لهم مراقب، يكلؤهم في مضاجعهم كأنهم لم يعصوه، ويتولى حفظهم كأنهم لم يذنبوا، ويجود بالفضل على

العاصي، ويتفضل على المسيء.. من ذا الذي دعاه فلم يستجب له؟ أم من ذا الذي سأله فلم يعطه؟ أم من الذي أناخ ببابه فنحاه؟! فهو ذو الفضل ومنه الفضل، وهو الجواد ومنه الجود، وهو الكَرِيمُ وَمِنْهُ الكَرَمُ.

غني عن الشكر..

ربنا ﷻ غني عن شكرنا، لا تعود منفعة الشكر إليه، ولا يضره كفران من كفره، وهو مع ذلك (كريم) في ترك المعاجلة بالعقوبة: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[النمل:٤٠].

ومن كمال غناه وكرمه ﷻ: أنه خلق العباد ليعبدوه؛ وتكفل برزقهم جميعًا مؤمنهم وكافرهم إنسهم وجنهم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾[الذاريات:٥٦-٥٨].

زاد على المنى..

ومن جلاله: أنه لا تتعاظم عليه المسائل والدعوات؛ مهما كثرت وكبرت، صح عنه ﷺ أنه قال: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ؛ فَلا يَقُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ! وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ المسألةَ، وَلْيُعْظِمْ رَغْبَتَهُ؛ فَإِنَّ اللهَ ﷻ لا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»[رواه مسلم].

بل من كرمه ﷻ: أنه جعل دعاءه أكرم عبادة عنده ﷻ، صح عنه ﷺ

أنه قال: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ -سُبْحَانَهُ- مِنَ الدُّعَاءِ»[حديث حسن. رواه ابن ماجه].

بل انظر إلى عظيم كرمه ﷻ: قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ»[حديث صحيح. رواه الترمذي].

وكرمه دائم؛ لا ينقطع إلى أن تلقاه، فانظر إلى أكبر وأعظم هدية تقدم لك يوم القيامة -إن كنت مؤمنًا-، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ٤﴾[الأنفال:٤].

بل زاد على المنى، جاء في الحديث القدسي المتفق عليه: «قَالَ اللهُ ﷻ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ: مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»، والأعظم من ذلك كله: النظر إلى وجهه الكريم؛ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ٢٣﴾[القيامة:٢٢-٢٣].

اللهم! اجعلنا منهم؛ يا أكرم الأكرمين!

❐ الميزان:

وميزان الإكرام والإهانة يوم القيامة: التقوى؛ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[الحجرات:١٣]، لا كرامة لأهل الكفر بل الإهانة: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ

الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾[الحج:١٨]، ولا عبرة بموازين الناس في الدنيا؛ التي ذكرها الله ﷻ بقوله: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾﴾[الفجر:١٥-١٦].

قال ابن الجوزي رحمه الله: "ومن تلبيس إبليس على عوام الناس: أنهم يفعلون المعاصي، فإذا أنكرت عليهم قالوا: الرب كريم، والعفو واسع!".

❑ ذكرى..

ومن تعلق بالقرآن؛ بشره بالكرامة في الدارين، فالله ﷻ قال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾[الواقعة:٧٧] كثير الخير، غزير العلم، يكرم حافظه، ويعظم قارئه.

والكريم ﷻ ينجي الغريق، ويرد الغائب، ويعافي المبتلى، وينصر المظلوم، ويهدي الضال، ويغني الفقير، ويشفي المريض، ويفرج عن المكروب، ويحب أن تدعوه بأسمائه، كان النبي ﷺ يقول عند الكرب: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَرَبُّ الْأَرْضِ، وَرَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»[أخرجه البخاري ومسلم].

والله يحب الكرماء، قال ابن رجب رحمه الله: "من جادَ على عباد الله؛ جاد الله عليه بالعطاء والفضل، والجزاء من جنس العمل".

أَغيبُ وَذُوْ اللَّطائِفِ لا يَغيبُ ... وَأَرْجُوهُ رَجاءً لا يَخيبُ

وَأَسْأَلُهُ السَّلامَةَ مِنْ زَمانٍ ... بُلِيتُ بِهِ نَوائِبُهُ تُشيبُ

وَأُنْزِلُ حاجَتِي فِي كُلِّ حالٍ ... إِلى مَن تَطْمَئِنُّ بِهِ القُلُوْبُ

ومَنْ لِي غَيْرَ بابِ اللهِ بابٌ ... وَلا مَوْلى سِواهُ وَلا حَبيبُ

كَريمٌ مُنْعِمٌ بَرٌّ لَطيفٌ ... جَميلُ السَّتْرِ لِلدَّاعِي مُجيبُ

فَيا مَلِكَ المُلُوْكِ أَقِلْ عِثارِي ... فَإِنِّي عَنْكَ أَنْأَتْنِي الذُّنُوْبُ

وَأَمْرَضَنِي الهَوى لِهَوانِ حَظِّي ... وَلَكِنْ لَيْسَ غَيْرَكَ لِي طَبيبُ

اللهم يا كريم! أكرمنا بجنتك وبعفوك ورضاك.

(٦٥)

ٱلْمُقِيتُ جل جلاله

صح عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ -تَعَالَى- يَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ! تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِنْ لاَ تَفْعَلْ؛ مَلأْتُ يَدَكَ شُغْلاً، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ»[حديث صحيح. رواه الترمذي].

وفي الحديث الصحيح: «يَدُ اللهِ مَلأَى لاَ يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ»[أخرجه البخاري -وهذا لفظه-، ومسلم].

قامت به سبحانه وتعالى السماوات والأرض، وصلح به أمر الدنيا والآخرة، وأذعن له الرطب واليابس.

مقاليد الملك بيده، ومقادير الأشياء عنده، ومفاتيح الأمور لديه، ومصير العباد إليه، والعزة له جميعًا، والملك له كله، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع.

فهل يعجز الكريم القوي الرحيم المقيت أن يسوق إليك رغيفًا أو قوتًا أو شرابًا فتحيا به نفسك؟

وما أسعدنا عندما نعيش مع اسم من أسماء الله الحسنى، وهو (المقيت ﷻ):

يقول الله ﷻ: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ ﴾[النساء:٨٥].

فالمقيت: المقتدر؛ الذي خلق الأقوات.

والمقيت: الحفيظ؛ الذي يعطي الشيء على قدر الحاجة من الحفظ.

فربنا ﷻ الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقتات، وأوصل إليه أرزاقه وصرفها كيف يشاء بحكمته وحمده.

فلكل مخلوق قوت: فالأبدان قوتها: المأكول والمشروب، والأرواح قوتها: العلوم، وقوت الملائكة: التسبيح.

فالله ﷻ هو المقيت لعباده، الحافظ لهم، الشاهد لأحوالهم، المطلع عليهم.

فالرب ﷻ قائم على مصالح العباد؛ يقوتهم ويرزقهم.

وأفضل الرزق: العقل، ومن رزق العقل فقد أكرمه الله ﷻ!

إِلَهِي لَكَ الفَضْلُ الَّذِي عَمَّمَ الوَرَى
وَجُودًا عَلَى كُلِّ الخَلِيقَةِ مُسْبَلُ
وَغَيْرُكَ لَوْ يَمْلِكُ خَزَائِنَكَ الَّتِي
تَزِيدُ مَعَ الإِنْفَاقِ لاَ بُدَّ يَبْخَلُ

أَعُوذُ بِكَ اللَّهُمَّ مِنْ سُوءِ صُنْعِنَا

ومِنْ أَنْ تَكُنْ نُعْمَاكَ عَنَّا تُحَوَّلُ

❑ اطمئن!

فلا تنشغل بما ضمن لك؛ فالله قد قال عن نفسه: (المقيت)، وقال عن نفسه: (الرزاق).

والمقيت: أخص من الرزاق؛ فالقوت: ما به من قوام البنية مما يتغذى به، والرزق: كل ما يدخل تحت ملك العبد مما يؤكل ومما لا يؤكل.

وما دام الأجل باقيًا؛ فالقوت والرزق آتيان، وإذا سد عليك بحكمته طريقًا فتح لك برحمته طريقًا آخر.

وتأمل حال الجنين: يأتيه غذاؤه وهو: الدم، من طريق واحد وهو: السرة، وعندما يخرج من بطن أمه ينقطع ذلك الطريق، ويفتح له طريقان اثنان، يجري له فيهما رزقًا أطيب وألذ من الأول؛ لبنًا خالصًا سائغًا، ثم إذا تمت الرضاعة فتح له أربعة طرق يحصل منها على طعامين وشرابين؛ أما الطعامان: فمن الحيوان والنبات، وأما الشرابان: فمن المياه والألبان.

فإذا مات انقطعت تلك الطرق الأربعة، وفتح للمؤمنين أبواب الجنة الثمانية؛ يدخلون من أيها شاؤوا!

❑ كن شاكرا!

فنعم الله ﷻ تفوق العد، ولا يأتي عليها الحصر، ولا يقيدها حساب:

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾
[إبراهيم:٣٤].

نِعم يهبها المنعم الجليل دون حاجة لهذا المخلوق، ودون خوف منه أو رجاء فيه، بل تفضل وكرم وبر وإحسان وجود وامتنان، ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾[الذاريات:٥٦-٥٨]، ولكن كثيراً من الناس لا يشكرون: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٣﴾[النحل:٨٣].

أعطاك بلا حق لك عنده، ثم أنكرت حقوقه! حباك بلا معروف لك لديه ثم جحدت معروفه! ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧﴾[عبس:١٧].

نِعم الله تبارك وتعالى عليك تترى؛ إذا سألت أعطاك، وإن دعوت أجابك، وإن استعنت أعانك، لا غنًى لك إلا به، ولذا؛ إن شكرت فاشكر نعمةً أخرى أن وفقك إليها؛ ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾[إبراهيم:٧].

أركان الغنى:

وبنو آدم لو كان عندهم واد من ذهب لأحبوا أن يكون لهم واديان.

وليست السعادة: في أن تحوز الدنيا، ولكن سعادة المرء: في أن يتوفر له قوت يومه وسلامة بدنه وأمنه، صح عنه ﷺ أنه قال: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا

فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ؛ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»[حديث حسن. رواه الترمذي].

دأب الصالحين..

والمؤمن مطمئن النفس؛ لأنه يعلم أن الله هو المقيت وهو الرازق، وأن رزقه قد كتب، ولن يموت حتى يستوفي رزقه، فهو يسعى وقد توكل على الله وتبرأ من حوله ومن قوته، وتعلق قلبه بالله المقيت الرزاق ﷻ، فهو يعلم أنه لا طول إلا به، ولا قوة إلا به، ولا حول إلا به سبحانه وتعالى.

كما جاء في «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ عن ربه ﷻ أنه قال: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ؛ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ».

قال ابن رجب رحمه الله: "كان بعض السلف يسأل الله في صلاته كل حوائجه؛ حتى ملح عجينه، وعلف شاته".

فمن استحضر اسم الله: المقيت، واستشعر معية الله المقيت، ووثق بما عنده.. حصَّل له السعادة الأبدية، وهي: الرضا في الدنيا والآخرة.

ثم إن رسول الله ﷺ حذر من يتصدق بقوت الأهل بغية طلب الأجر، فينقلب ذلك الأمر إثمًا إذا ضيع من يعولهم وتلزمه نفقتهم من أهله وعياله وعبيده؛ لأن النفقة متعلقة بحقوق الآدميين، وهم أحوج، وحقهم آكد، صح عنه ﷺ أنه قال: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا: أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ»[حديث حسن. رواه أبو داود].

وكان رسول الله ﷺ من حرصه على أهله يدخر لهم قوت سنة كاملة، جاء عند البخاري: أن النبي ﷺ "كان يبيع نخل بني النضير، ويحبس لأهله قوت سنتهم".

وكان من دعائه ﷺ: «اللَّهُمَّ! اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا»[أخرجه مسلم]، أي: ما يقوتهم ويكفيهم؛ حتى لا ترهقهم الفاقة، ولا تذلهم المسألة، وكذلك لا تفتح لهم الدنيا فيركنوا إليها؛ فإن الدنيا راحلة والآخرة هي الباقية، فآثر الباقي على الفاني -صلوات ربي عليه وعلى آله، ومن سار على هديه إلى يوم الدين-.

اللهم! إنا نسألك باسمك المقيت: أن ترزقنا من واسع فضلك، وأن تعيننا على طاعتك وذكرك وشكرك.

(٦٦)

الوَاسِعُ جل جلاله

لما سمع أهل الإيمان عن اسم الله (الواسع سبحانه وتعالى) تعلقت قلوبهم بذكره، واشتاقت أرواحهم لرؤيته، فقلوبهم لا يشبعها إلا الانحناء له، والطواف ببيته، والوقوف بين يديه، والقيام من النوم لأجله، وبذل المهج في سبيله.

قال جل وعلا: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[الأعراف:١٥٦]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٤٧﴾[البقرة:٢٤٧].

فربنا هو الواسع الغني عز وجل؛ الذي وسع غناه جميع عباده، ووسع خلقه كلهم بالكفاية والأفضال والجود والتدبير.

وهو الواسع المطلق عز وجل، والكامل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله وملكه وسلطانه، فلا يحصي أحد ثناءً عليه هو كما أثنى على نفسه، فمهما وصفه الواصفون من خلقه فلن يبلغوا كنهه، ولن يحيطوا به علماً.

وربنا وسع علمه كل شيء: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا﴾[الأعراف: ٨٩]، لا تخفى عليه خافية، فالله سبحانه وتعالى يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة

السماء في الليلة الظلماء، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وعلمه يشمل أسرار القلوب، وما تضمره الصدور من خير وشر؛ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ ١٩﴾[غافر:١٩]، ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ٢٣٥﴾[البقرة: ٢٣٥].

وربنا سبحانه وتعالى واسع المغفرة؛ يغفر لكل من تاب وأناب؛ مهما بلغت ذنوبه وخطاياه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[النجم:٣٢].

وربنا الواسع سبحانه وتعالى؛ الذي يوسع على عباده في دينهم، ولا يكلفهم ما ليس في وسعهم، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ١١٥﴾[البقرة:١١٥] .

وَأَشْهَـــــدُ أَنَّ اللهَ لا رَبَّ غَـــــيرُهُ
كَــرِيمٌ رَحِــيمٌ يُرْتَجَـــى وَيُؤَمَّـــلُ

إِذَا سُـئِلَ الخَيْـرَاتِ أَعْطَـى جَزِيلَهَـا
وَيَرفَـــعُ مَكْـــرُوهَ الـــبَلاَ وَيُـــزَوِّلُ

يَـسِحُّ مِـنَ الخَيـرَاتِ سَحًّا عَلَـى الوَرَى
فَيُغْنِــي وَيُقْنِــي دَائِمًــا وَيُحَــوِّلُ

إِذَا أَكْثَــرَ المُثْنِــي عَلَيْــهِ مِــنَ الثَّنَــا
فَذُوْ العَرْشِ أَعْلَـى فِـي الجَلاَلِ وَأَجْمَلُ

الواسع يكفيك همك!

ومن فهم اسم الله: (الوَاسِعِ)؛ذهب خوفه، وحلت الطمأنينة في قلبه، وفتح له باب الأمل.

فذاك المزارع الذي تأخر عليه وقت الحصاد، وشح الماء، وتعاظمت حاجته للثمر؛ لما علم أن الله واسع عليم؛ نظر إلى السماء، وتعلق قلبه بربه، ونادى: يا واسع العطاء.. يا الله.. يا واسع الرحمة.. يا واسع الجود! جد علي من بركاتك وخيراتك.

وذاك العقيم رضته الأيام، وأتعبته الآلام، واشتاق إلى طفل يلاعبه ويملأ حياته، وتأخر الحمل أو فجع بقول البشر: عقيماً! وبينما يحدث ذلك والحزن يعم؛ تستيقظ في داخله حياة أخرى بتذكره بأن الله الواسع الكريم الجواد، لا يرد سائلاً موقناً بالإجابة؛ فينادي: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾[آل عمران:٣٨]، ﴿رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾[الأنبياء:٨٩-٩٠].

وكذا المريض؛ آهاته يسمعها الله، وآلامه يعلمها الله، فإذا تذكر واسع العطاء، وهو الشافي والكافي لعباده؛ نادى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ

﴿ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾[الأنبياء:٨٣].

فيكشف الله ﷻ الهم، ويزيل الغم، ويدب الشفاء.. إِنَّهُ اللهُ الوَاسِعُ ﷻ.

تتزاحم الهموم في قلب المدين؛ حتى ما يظن أن لها كاشفةً، ثم يفتح الله ﷻ على قلبه، ويلجئه إليه، فيلوذ بجناب واسع العطاء والجود والكرم؛ فينادي: يا قاضي الحاجات.. يا واسع العطاء! ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[النمل:٦٢].

فيقضي الله الدين، ويرزقه من حيث لا يحتسب، وتظهر الابتسامة، ويهدأ القلب، وتسكن النفس؛ ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام:٦٤].

تحل المعضلة بالعالم، وتشكل عليه المسألة؛ فيتيه عن الصواب، ويعز عليه الجواب، فيمرغ أنفه في التراب منادياً ومستجدياً: يا واسع العطاء.. يا واسع العلم.. يا معلم إبراهيم علمني.. يا مفهم سليمان فهمني!

فيأتي التوفيق، وتحل المغاليق من الواسع ﷻ.

يختلف الزوجان، وينقطع الحبل، وتنقطع أواصر المحبة، وتضيق بهما الحال بعد الطلاق؛ فيلجآن إلى الله الواسع.

فيبدل كل واحد منهما خيراً من الآخر: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ١٣٠﴾[النساء:١٣٠].

ربح البيع..

يخشى المرء من الإنفاق، ويخاف من الفقر؛ وما ذاك إلا لأن الشيطان وسوس في صدره بالشر والفقر، ودعاه إلى البخل وعدم الإنفاق، ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٢٦٨﴾[البقرة:٢٦٨].

فيتذكر المؤمن بأن الله الواسع الكريم قد وعد ﷻ بقوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٤٥﴾ [البقرة:٢٤٥]، ويتذكر قوله ﷻ: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ٧٣﴾[آل عمران:٧٣]؛ فينفق من ماله، مقرضًا ربه، متيقنًا بالخلف من الله ﷻ في الدارين، فإذا بالبركات والرحمات تتنزل، وتعظم المنة من الله الواسع صاحب الكرم والجود.

دموع الخائفين..

يتذكر المؤمن عظيم ذنبه، وكثرة خطئه؛ فتهيج عليه أحزانه، ويشتعل فؤاده، وتسيل عيناه من الدمع خوفًا من الجبار؛ فيتذكر قول الله ﷻ: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[الأعراف:١٥٦]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾[النجم: ٣٢].

فيعلن التوبة والإنابة إلى الله ﷻ، راجياً الدخول في قوله ﷻ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٧٠﴾[الفرقان:٧٠]، مستشعراً دعاء الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمًا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾[غافر:٧]، فتغسل التوبة حرقة فؤاده، ولوعة نفسه، ويجعله الله ﷻ من التوابين ومن المتطهرين، ثم يمن عليه باستقامة إلى الممات، ثم المآل إلى جنات النعيم، ثم يسمع: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ٥٤﴾[ص:٥٤].

رسائل..

وربنا الواسع ﷻ؛ الذي وسعت رحمته جميع الخلائق: ﴿رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ﴾[الأنعام:١٤٧].

وقد وسع الله على عباده في دينهم، ورفع الضيق والحرج عنهم؛ فخفف عن المريض والمسافر والمسن وغيرهم من أصحاب الأعذار، فلم يكلفهم ما لا يطيقون ﷻ؛ ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَا﴾[البقرة: ٢٣٣]، ومن ضاقت عليه الأرض؛ فالله ﷻ قد وسع على عباده فيها؛ ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾[الزمر: ١٠].

وأوسع عطاء يعطيه الله ﷻ خلقه هو: الصبر، صح عنه ﷺ أنه قال: «وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»

[أخرجه البخاري –وهذا لفظه–، ومسلم].

والصبر داخل في جميع أمور العبادات؛ فصبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على أقدار الله ﷻ، فالحياة كلها صبر إلى أن نلقى الله ﷻ.

قال الحسن البصري رحمه الله: "الصبر: كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده".

يَا مَنْ يُغِيثُ الوَرَى مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوْا
اِرْحَمْ عِبَادًا أَكُفَّ الفَقْرِ قَدْ بَسَطُوْا
عَوَّدْتَهُمَ بَسْطَ أَرْزَاقٍ بِلاَ سَبَبٍ
سِوَى جَمِيلِ رَجَاءٍ نَحْوَهُ انْبَسَطُوْا

يا الله.. يا واسع العطاء! هب لكل واحد منا فوق مسألته؛ فأنت على كل شيء قدير.

(٦٧)

الرَّقِيبُ جل جلاله

قال ابن الجوزي رحمه الله: "فمن أصلح سريرته؛ فاح عبير فضله، وعبقت القلوب بنشر طيبه؛ فالله الله في السرائر فإنه لا ينفع مع فسادها صلاح ظاهر".

وقال أبو حفص النيسابوري رحمه الله: "إذا جلست للناس فكن واعظًا لقلبك ونفسك، ولا يغرنك اجتماعهم عليك؛ فإنهم يراقبون ظاهرك، والله يراقب باطنك".

من أعلى المقامات عند الله: استشعار المؤمن رقابة ربه جل وعلا، وأن الله مراقبه، قال الله مثنيًا على ذاته العليَّة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا ١﴾ [النساء: ١].

فربنا سبحانه وتعالى الرقيب المطلع على ما أكنته الصدور، وهو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء.

وربنا العالِم بما في الضمائر، الشاهد على أكنة السرائر ولحظات العيون، القائم على كل نفس بما كسبت.

وربنا رقيب راصد لأعمال العباد وكسبهم.

وهو رقيب حافظ، لا يغيب عما يحفظ، حفظ المخلوقات، وأجراها على أحسن نظام وأكمل تدبير.

وَهُوَ الرَّقِيبُ عَلَى الخَوَاطِرِ وَاللَّوَا حِظِ كَيْفَ بِالأَفْعَالِ وَالأَرْكَانِ

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾[يونس:٦١]؛ وهو ﷻ عالم بحالات العبد وتقلباته في ليله ونهاره، وسره وجهره، وحضره وسفره.

فالرقيب ﷻ يسمع ويرى، بل يعلم المكنون في الصدور قبل أن تنطق الشفاه وتكتب الأقلام في السطور.

أحاط علمه المطلق بكل موجود، واطلاعه التام على كل مخلوق؛ فلا يند عن علمه شيء، ولا يعزب عن اطلاعه شيء، ولا يفوت عن إحاطته شيء، لا الغائب تستره غيبته عن الرقيب ﷻ، ولا الخافي يحجبه خفاؤه عن العظيم، النجوى عنده جهر، والسر عنده علانية، والخفاء عنده مكشوف.

❐ أفلح..

جاء في «المستدرك»: أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ؛ فقال: يا رسول الله! أقرئني سورةً جامعةً؟ فأقرأه رسول الله ﷺ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ [الزلزلة:١]؛ حتى فرغ منها، فقال الرجل: والذي بعثك بالحق! لا أزيد عليه أبدًا.

ثم أدبر الرجل، فقال رسول الله ﷺ: «أَفْلَحَ الرُّوَيْجِلُ»[صححه الحاكم

والذهبي].

وفي «مسند الإمام أحمد» من حديث صعصعة بن معاوية أنه: أتى النبي ﷺ؛ فقرأ عليه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾[الزلزلة:٧-٨]، فقال: "حسبي! لا أبالي أن لا أسمع غيرها"[حسن. الأرناؤوط].

آية واحدة تجعل الإنسان فقيهًا قريبًا من ربه كلما تلا هذه الآية وطبقها: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾[النساء:١].

فالمؤمن يعلم أن الله تبارك وتعالى رقيبه وشاهده في كل شيء؛ فنجده يراقب حتى أنفاسه، ويجعل عمله خالصًا لربه، ويراقب الله في كل شيء.. استشعر رقابة ربه؛ فبلغ مقام الإحسان، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢﴾[الأنعام:١٦٢].

قال العلماء: من أفضل الطاعات: مراقبة الله على الدوام، وفي كل وقت.

❑ معية الله:

وبقدر مراقبة الله تبارك وتعالى في حياتك؛ تكون معية الله لك.

فراقب مولاك قبل الطاعة، وفي الطاعة، وعند المباحات، وعند المعصية:

أما قبل الطاعة؛ فتكون بمراقبة النية وإصلاحها؛ لقوله ﷺ: «وإنما

لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»[أخرجه البخاري].

وفي الطاعات؛ بأن تستمر المراقبة لله، وتكون خالصةً لوجهه.

وأما عند المباحات؛ فتكون بمراعاة الأدب، والشكر على النعم.

وعند المعصية؛ بألا تتجرأ على الله وتتعدى حدوده، فالمؤمن سريع العودة إلى مولاه بالتوبة والإنابة والإقلاع؛ ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾[آل عمران:١٣٣].

فإذا راقبت الله سبحانه وتعالى عند هذه الأحوال؛ كانت الثمرة: انشراحًا للصدر، وقرةً للعين.

همسة..

لما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ١﴾[النساء:١]، وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ٥٢﴾[الأحزاب:٥٢]؛ فإنه يخاطبنا خطابًا خاصًّا، ويقول لنا: يا عبدي! أتظن أنك إذا أفلحت في ستر معاصيك عن الناس أنك تفلح في النجاة مني؟!

ويعظم هذا الخطاب خاصةً في هذا الزمن؛ الذي كثرت فيه الفتن، وسهل الوصول إليها.

قيل: أقوى عامل لبناء الذات هو : "مراقبة الله"، وأقوى عامل لهدم الذات هو: "مراقبة الناس".

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلاَ تَقُلْ خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيْبُ
وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفَلُ سَاعَةً وَلاَ أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

اللهم! إنا نسألك باسمك الرقيب: أن تجعلنا من أوليائك، ونسألك خشيتك في الغيب والشهادة، والقصد في الفقر والغنى، والعدل في الغضب والرضا.

(٦٨)

الحسيب جل جلاله

قال جعفر الصادق رحمه الله: "عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قوله: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾[آل عمران:١٧٣]؛ فإني سمعت الله يقول بعقبها: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾[آل عمران:١٧٤]".

وعجبت لمن اغتم كيف لا يفزع إلى قوله عز وجل: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[الأنبياء:٨٧]؛ فإني سمعت الله يقول بعقبها: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾[الأنبياء:٨٨].

وعجبت لمن مكر به كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾[غافر:٤٤]؛ فإني سمعت الله يقول: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ [غافر:٤٥]".

إذا بارت عليك الحيل، وضاقت السبل، وانتهت الآمال، وتقطعت

الحبال؛ فقل: حسبي الله ونعم الوكيل!

إذا ضاقت عليك الأرض بما رحبت، وضاقت عليك نفسك بما حملت؛ فاهتف بـ: حسبي الله ونعم الوكيل! حينها يأتي مدده، ويصل عونه، ويسرع فرجه؛ ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾[آل عمران:١٧٤].

والله ﷻ عرف نفسه للعباد بأنه: حسيبهم؛ فقال ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ٦﴾[النساء:٦]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا ٨٦﴾[النساء:٨٦].

فالله ﷻ هو: الحسيب.

فربنا ﷻ الكافي لجميع خلقه في كل شيء يحتاجونه؛ في المنافع، ودفع المضار.

☐ وكفايته:

١- كفاية عامة للخلائق كلها؛ بإيجادها، ورزقها، وإمدادها بكل ما خلقت له، ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾[طه:٥٠].

٢- كفاية خاصة لعباده الموحدين؛ بالنصر والتمكين، والدفع عنهم في

كل ما يكرهون، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٦٤﴾

[الأنفال:٦٤].

وربنا ﷻ المحاسب لكل الخلائق على أعمالهم يوم يردون إليه،

ومجازيهم عليها، لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ﴿وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾ [الأنبياء:٤٧].

يرعاك في الملمات..

فمن خوف بغير الله وقال: حسبي الله! نجاه ونصره.

ألقي إبراهيم عليه السلام في النار؛ فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل! فجعلها الله عليه بردًا وسلامًا.

رسولنا ﷺ وأصحابه؛ لما هددوا بجيوش الكفار وكتائب الوثنية؛ قالوا: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٤].

فالله الحسيب: الذي تمد إليه الأكف في الأسحار، والأيادي في الحاجات، والأعين في الملمات، والأسئلة في الحوادث.

الأقوياء بيده، والضعفاء بيده، صحتك بيده، زوجتك بيده، ومن تحتك بيده، ورزقك بيده، الملوك بيده، الظالم بيده، عدوك بيده.

ما عليك إلا أن تلوذ وتهتف: حسبنا الله ونعم الوكيل!

شعارك ودثارك..

"حسبنا الله ونعم الوكيل!" هي: مفتاح الفرج، وباب إلى السعادة،

﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾[آل عمران:١٧٤] .

إذا خفت من مرض، أو خسارة في تجارة، أو من فقر أو على ولدك أو من ظالم أو عدو فقل: "حسبي الله ونعم الوكيل".

إذا ضاقت المرأة عند الولادة أو على طفلها أو على نفسها فلتقل: "حسبي الله ونعم الوكيل"، جاء عند ابن السني مرفوعًا وأبي داود موقوفًا، وصحح سنده شعيب الأرنؤوط: «مَنْ قَالَ: حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي: حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ، وَهُوَ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ سَبْعَ مَرَّاتٍ؛ كَفَاهُ اللهُ مَا أَهَمَّهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ».

❐ شعارك معناه:

يا رب! التجأت إليك، واحتميت بك، واستعنت بك على ما أخاف منه، وتوكلت عليك؛ فأنت حسبي ورجائي وذخري وملاذي! ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[النمل:٦٢].

فإذا علمت أن الله: هو الكافي، وهو الحسيب؛ فلا ترفع حوائجك إلا إليه.

وَهُوَ الحَسِيبُ كِفَايَةً وَحِمَايَةً
وَالحَسْبُ كَافِي العَبْدِ كلَّ أَوَانِ

كي يسلم الطريق:

إذا علم المؤمن: أن الله سيحاسبه غداً على الكبير والصغير، ويطالبه بالنقير والقطمير، وأنه لا تخفى عليه خافية، وأن حساب الخلق لا مشقة فيه على الخالق الحسيب؛ كان في استعداد دائم، وكان مراقباً لله ﷻ في كل أحواله، ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ٦٢﴾[الأنعام:٦٢].

جاء في «مسند الإمام أحمد»: أن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في بعض صلاته: «اللَّهُمَّ! حَاسِبْنِي حِسَابًا يَسِيرًا»، قلت: يا نبي الله! ما الحساب اليسير؟ قال: «أَنْ يَنْظُرَ فِي كِتَابِهِ فيتجاوز عَنْهُ؛ إِنَّهُ مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ يَوْمَئِذٍ -يَا عَائِشَةُ!- هَلَكَ»[حديث صحيح].

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، وتزينوا للعرض الأكبر؛ يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية".

قال القرطبي: "قال بعض الصُّلحاء: هذا كتاب، لسانُك قلمه، وريقك مِداده، وأعضاؤك قرطاسُه، أنت كنت المملي على حفظتِك، ما زيد فيه ولا نقُص منه، ومتى أنكرت منه شيئًا يكون فيه الشَّاهد منك عليك؛ ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾[الإسراء:١٤]".

ذكرى..

في الآخرة محكمة ترد فيها الحقوق؛ حيث لا درهم ولا دينار، إنما الحساب بالحسنات والأعمال، وقتها أنت أحوج ما تكون إلى الحسنة.

وعلى حسب قيمة السِّلعة يكون مكيالها ! فالحديد.. بالطنّ، والفاكهة.. بالكيلو، والذَّهب.. بالغرام، والألماس.. بالقيراط، أمّا أعمال الآخرة... فهي بالذَّرَّة؛ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة:٧-٨].

وإياك وحقوق الآخرين! فإنها لا تحل؛ ولو قضى بها النبي ﷺ لمن كان ألحن بحجته من أخيه، فقد صح عنه ﷺ أنه قال «إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ.

فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا؛ فَلا يَأْخُذْ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ» [أخرجه البخاري ومسلم].

اللهم! أنت حسبنا وكفى.. فكن لنا ولا تكن علينا، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين.

(٦٩)

الشَّهِيدُ جل جلاله

أثنى الله تبارك وتعالى على ذاته العلية باسمه الشهيد؛ في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾[الحج:١٧].

وورد اسم الله: (الشهيد) في كتاب الله -العزيز-: ثماني عشرة مرة.

فربنا تبارك وتعالى الذي لا يغيب عنه شيء، وهو الحفيظ على كل شيء، فعلمه أحاط بالأشياء.

ربنا تبارك وتعالى يشهد بالحق، وينصف المظلوم، ويقتص من الظالم، سمع جميع الأصوات خفيها وجليها، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليلها، صغيرها وكبيرها، أحاط علمه بكل شيء.

وربنا تبارك وتعالى هو الذي شهد لعباده وعلى عباده بما عملوه، فشهادته أصل الشهادات، ومبعثها، وأعظمها؛ لأنه تبارك وتعالى لما كانت الأشياء لا تخفى عليه؛ كان شهيدًا لها، أي: عالمًا بحقائقها، عالم المشاهدة لها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية عز وجل.

فمن جلاله تبارك وتعالى: أنه شهد لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط:

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[آل عمران:١٨].

وشهادته ﷻ بصدق المؤمنين إذا وحدوه، وشهادته لرسله وملائكته: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ٧٩﴾[النساء:٧٩].

وشهادته ﷻ للمظلوم الذي لا شاهد له ولا ناصر على الظالم المعتدي، وهذه الشهادة تقتضي: العون والنصرة، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ١٧﴾[الحج:١٧].

والعباد يشهدون له بالوحدانية، ويقرون له بالعبودية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾[الأعراف:١٧٢].

❑ حقيقة:

وشهادة العباد ورقابتهم محدودة بأوقات، ولا بد أن تتوقف؛ فالعبد ينام ويغفل ويضعف ثم يموت، أما الله ﷻ فرقابته دائمة تامة، وهو حي لا يموت، ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ١١٧﴾[المائدة:١١٧].

وشهادة الله ﷻ أعظم شهادة، فشهادته شهادة حضور ومعاينة، ولا يخفى عليه شيء من جوانب الحقيقة؛ كما يحدث للبشر، فمن شهد الله

له فهو حسبه، ولا يحتاج إلى شهادة غيره؛ ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ١٩﴾[الأنعام:١٩].

وهذه الشهادة من أعظم ما نواجه به باطل الخصوم: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ٤٣﴾[الرعد:٤٣].

يوم العرض..

وعندما يقدم العباد على الله ﷻ يوم القيامة يحاسبهم حساب العالم بهم، المطلع على خفاياهم، المحصي لأقوالهم وأعمالهم؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ١٧﴾[الحج:١٧].

والمؤمن يعلم أن عمله لا يضيع عند الله، ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ٤٧﴾[سبأ:٤٧].

وأما الكافر؛ فلا يضيع من عمله شيء؛ وإن نسيه فالله قد أحصاه: ﴿أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٦﴾[المجادلة:٦].

شأنك..

من علم أن ربه ﷻ شهيد عليه ظاهرًا وباطنًا؛ استحى أن يراه على

معصيته، أو فيما لا يحب، ومن علم أن الله يراه أحسن عمله وعبادته وأخلص فيها حتى يصل لمقام الإحسان، وهو أعلى مقامات الطاعة؛ الذي قال عنه الحبيب ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[أخرجه البخاري ومسلم].

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلا تَقُلْ
خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ
وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفَلُ سَاعَةً
وَلا أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

وشأن المؤمنين: أن يستحضروا مشاهدة الله سبحانه وتعالى لهم في كل عمل يعملونه؛ دق أو جل، والله جل وعلا يقول: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾[يونس:٦١].

بعث النبي ﷺ معاذاً إلى اليمن، فقال: يا رسول الله أوصني! فقال: «عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ مَا اسْتَطَعْتَ، وَاذْكُرِ اللهَ جل وعلا عِنْدَ كُلِّ حَجَرٍ وَشَجَرٍ..»[حديث صحيح. رواه أحمد].

قال ابن القيم رحمه الله: "إن في دوام الذكر في الطريق والبيت والحضر والسفر والبقاع تكثيراً لشهود العبد يوم القيامة"؛ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾﴾[الزلزلة:٤]، ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾[النساء:٧٩].

وقيل: من راقب الله في خواطره؛ عصمه في حركات جوارحه.

ثم إذا نظرت إلى السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة؛ وجدت أن المشترك بينهم أنهم: آمنوا بأن الله شهيد عليهم، ونظروا إلى حالهم فعبدوه كأنه يراهم، فنالوا المنزلة.

اللهم يا شهيد! نسألك أن تغفر لنا وترحمنا وتتجاوز عنا؛ يا أرحم الراحمين!

(٧٠)
الحق جل جلاله

أوضح دلالته للمتفكرين، وأبدى شواهده للناظرين، وبين آياته للعالمين، وقطع أعذار المعاندين، ودحض حجج الجاحدين؛ فاستنارت آيات الربوبية، وسطعت دلائل الألوهية، واضمحلت غمرات الشك، وزالت ظلمات الريب، ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾[يونس:٣٢]، ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾[طه: ١١٤]، ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾[الأنعام:٦٢].

فربنا سبحانه وتعالى الحق؛ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، لا شك فيه ولا ريب، فهو المعبود بحق، ولا معبود بحق سواه.

فهو الحق عز وجل، وما سوى الحق إلا الباطل والضلال، ومن ادعى إلهًا غير الله سبحانه وتعالى ادعى باطلاً وكذبًا وزورًا؛ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾.

فربنا سبحانه وتعالى الحق، وقوله الحق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه حق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق، وكل شيء

ينسب إليه بحق فهو الحق؛ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾[طه:١١٤].

وجاء في «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في دعاء النبي ﷺ: أنه إذا قام إلى الصلاة في جوف الليل قال: «اللهُمَّ! أَنْتَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ».

الصراع..

وهذا صراع أبدي بين الحق والباطل؛ فمن كان مع الله فهو على الحق المبين، وله النصر في الدنيا والآخرة، ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾[التوبة:٣٣].

فالمؤمنون متبعون للحق، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾[محمد:٣]، وهم يتواصون فيما بينهم على التمسك بالحق: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[سورة العصر].

ومن رد الحق بعد بيانه فهو: المتكبر الظالم لنفسه؛ فقد صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»[أخرجه مسلم].

أين الطريق؟

وما زال كثير من الناس يبحثون عن الحقيقة ليستدلوا بها إلى الحق:

فمنهم: من استند إلى صوت الفطرة في أعماقه، ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[الروم:٣٠].

ومنهم: من اعتمد مبدأ "السببية"؛ الذي يقرر: أن كل صنعة لا بد لها من صانع، وكل حادث لا بد له من محدث، وكل نظام لا بد وأن يكون وراءه منظم.

ومنهم: من جعلها مسألة (حسابيةً)، وهم أهل الريب والشك، فانتهى بهم إلى أن الأضمن لحياتهم وما بعد حياتهم: الإيمان بالله والآخرة والبعث والجزاء؛ كما قال شاعرهم:

قَالَ المُنَجِّمُ وَالطَّبِيبُ كِلاَهُمَا ... لاَ تُبْعَثُ الأَمْوَاتُ، قُلْتُ: إِلَيْكُمَا
إِنْ جَاءَ قَوْلُكُمَا فَلَسْتُ بِخَاسِرٍ ... أَوْ جَاءَ قَوْلِي فَالخَسَارُ عَلَيْكُمَا

ولا نجاة مع الشك، قال ﷻ: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[إبراهيم:١٠].

ومنهم: الذين ما زالوا محتارين مشركين -نعوذ بالله من الحور بعد الكور، ومن الضلال بعد الهداية-، ﴿۞أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ

أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾[الرعد:١٩].

والحقيقة: أن كل شيء دلَّ الدليل على أنه يقربك من الله ﷻ فهو: حق، وكل شيء يبعدك عنه فهو: باطل، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[آل عمران:٣١].

قال ابن تيمية: "ليس صلاح الإنسان في مجرد أن يعلم الحق دون ألا يحبه ويريده ويتبعه".

وليست المصيبة: أن يصاب الإنسان بنفسه أو ماله أو ولده، وإنما المصيبة العظيمة، والكسر الذي لا ينجبر: أن يصاب الإنسان بدينه! فيحل الشك محل اليقين؛ فيرى الباطل حقًّا، والحق باطلاً، والمعروف منكرًا، والمنكر معروفًا.

❑ اهبط بوادي النجاة!

ما الأمر الكبير، والكرب الشديد، والهم العظيم الذي يستعصي على رب العزة؟ فالله هو الحق، وقوله الحق، ووعده الحق.

فحق على العبد أن يظن بربه خيرًا، ويتوكل عليه، وأن ينتظر منه فضلاً، وأن يرجو من مولاه لطفًا، وأن يتعلق بعهوده. فلا يجلب النفع إلا هو، ولا يدفع الضر إلا هو، وله في كل نفس لطف، وفي كل حركة حكمة، وفي كل ساعة فرج، جعل بعد الليل صباحًا وبعد القحط غيثًا.

والله لا يرد دعوة مؤمن صادق؛ لأن الله ﷻ هو الحق، ووعده حق؛

فالله ﷻ قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾[غافر:٦٠].

إذن؛ فمشكلاتك جميعها إلى حلول، وكل آلامك إلى عافية، وكل أحلامك إلى واقع، وكل دموعك إلى ابتسامة.. اطمئن!

فإن بعد الفقر غنًى، وبعد الظمإ ريًّا، وبعد الفراق اجتماعًا، وبعد الهجر وصلاً، وبعد الانقطاع اتصالاً، قال ﷻ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ٧٩﴾[النمل:٧٩].

اللهم! أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.

(٧١)

المُبِين جل جلاله

لازم باب مولاك المبين، وتعزز بالمولى العزيز العليم، وتوسل إليه بطاعته؛ يتفضل عليك بنعمته.

إن أطعته أكرمك وفضلك، وإن ضيعت ما مضى رحمك وأمهلك، وإن تبت وأنبت قبلك، وإن عصيت وأسأت سترك.

القلوب لا تحيا إلا بنسيم إقباله، ولا تنهمر الدموع إلا من خوف هجره أو طمع في وصاله.

وصدق من قال: "والله! ما أوحش الطريق لمن لم يكن الله مؤمنه، وما أضل الطريق لمن لم يكن الله دليله".

فما أحوجنا إلى طريق باب الله المبين؛ ليتضح لنا السير إليه.

ندلف هنا إلى أنوار اسم من أسماء الله جل جلاله، وهو: (المبين سبحانه وتعالى):

فالله تبارك وتعالى قد قال عن نفسه مثنيًا: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ٢٥﴾[النور:٢٥].

وبيان الشيء: ظهوره ووضوحه.

فربنا ﷻ المبين لكل العالمين، البيِّن أمره في وجوده ووحدانيته، وأنه لا شريك له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

وربنا ﷻ الذي بيّن لعباده سبيل الرشاد، وأوضح لهم الأعمال التي يستحقون الثواب على فعلها، والأعمال التي يستحقون العقاب عليها، ويوم القيامة يزول الشك فيه عن أهل النفاق؛ الذين كانوا فيما يعدهم في الدنيا يمترون.

وصفة البيان: من أعظم صفات الله ﷻ.

وقد جاء البيان عن طريقين:

الأول: بما أنزله ﷻ في كتبه المنزلة على رسله، وما أوحاه إلى رسله وأنبيائه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: ١٥].

والثاني: بآياته التي خلقها دالةً عليه، ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠].

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الوَاحِدُ

وكما كان القرآن مبينًا؛ كذلك رسل الله ﷺ كانوا مُبِينين، فالله ﷻ قد قال على لسان نوح: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾﴾ [الشعراء: ١١٥]، وأمر نبيه أن يقول: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص: ٧٠].

وقد أخبر الله ﷻ العباد في كتبه وعلى ألسنة رسله في الدنيا بأن الذي اختلفوا فيه في الدنيا سيبينه لهم يوم القيامة؛ فقال ﷻ: ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٩٢﴾[النحل: ٩٢].

ومن تبين له الحق فصد عنه؛ كان جزاءه العذاب الأليم، قال ﷻ: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٠٩﴾[البقرة:٢٠٩].

وكذا من كتم الحق؛ عرض نفسه للعنة؛ فالله ﷻ قد قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾ [البقرة:١٥٩].

❑ أولوا الألباب:

فالله المبين ﷻ أوضح دلالته للمتفكرين(١)، وأبدى شواهده للناظرين.

---

(١) يقول صاحب كتاب «الله أهل الثناء والمجد»: "المؤمن ليس بحاجة إلى من يؤكد له وجود الله ﷻ، أو يشرح له ضرورة الإيمان، ولكن أورد هنا مقاطع وكلمات وشهادات واعترافات لبعض رجال العلم وأهل الفكر وأرباب الفلسفة:

هذا الطبيب النفسي الأمريكي الشهير الدكتور (هنري لنك)؛ الذي كفر بالدين، وحارب الإيمان، وأنكر وجود الإله، عاد بعد رحلة طويلة وفريدة! وقال: "الدين هو: الإيمان بوجود قوة ما كمصدر للحياة، هذه القوة هي: قوة الله، مدبر الكون، خالق السماوات". =

ومن آياته للعالمين، وقطع أعذار المعاندين، قال ﷻ: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

= ويقول الأستاذ (هوش): "كلما اتسع نطاق العلم زادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أذكى، لا حد لقدرته ولا نهاية، فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا على تشييد صرح العلم، وهو: صرح عظمة الله وحده".

وأفاض (هربرت سبنسر) في رسالة «التربية»؛ فقال: "العلم يناقض الخرافات، ولكنه لا يناقض الدين نفسه"، وأخذ يضرب الأمثلة؛ فقال: "إن العالم الذي يرى قطرة الماء فيعلم أنها تتركب من الأوكسجين والهيدروجين بنسبة خاصة؛ بحيث لو أخذ نصف هذه النسبة لكانت شيئًا آخر غير الماء؛ يعتقد عظمة الخالق وقدرته وحكمته أقوى من غير العالم الطبيعي؛ الذي لا يرى فيها إلا أنها: قطرة ماء فحسب!".

ويقول العالم الطبيعي (سير آرثر طومسون) -المؤلف الأسكتلندي الشهير- في مجموعة «العلم والدين»: "فنحن نقرر عن روية: أن أعظم خدمة قام بها العلم أنه: قاد الإنسان إلى فكرة عن الله أنبل وأسمى".

أما (وليم جيمس) -العالم النفسي الشهير-؛ فقال: "إن بيننا وبين الله رابطةً لا تنفصم، فإذا نحن أخضعنا أنفسنا لإشرافه؛ تحققت كل أمنياتنا وآمالنا".

أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾[النمل:٦١-٦٤]، فسبحان من بهرت عظمته عقول العارفين!

وسبحان من بهرت أنواره بصائر السالكين!

تَأَمَّلْ فِي نَبَاتِ الأَرْضِ وَانْظُرْ ... إِلَى آثَارِ مَا صَنَعَ المَلِيكُ
عُيُونٌ مِنْ لُجَيْنٍ شَاخِصَاتٌ ... بِأَحْدَاقٍ هِيَ الذَّهَبُ السَّبِيكُ
عَلَى كُثُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهِدَاتٌ ... بِأَنَّ اللهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكُ

في أواخر سورة آل عمران امتدح الله ﷻ أولي الألباب عندما فتحوا بصائرهم لاستقبال آياته الكونية؛ فاتجهوا إلى الله بقلوبهم قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، وامتلأت أفئدتهم إيمانًا، ورفعوا أياديهم إلى الله بالدعاء الصادق وطلب الهداية؛ فكان الجواب عليهم: ﴿أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾[آل عمران:١٩٥].

اللهم! باسمك المبين نسألك: أن تدخلنا جنة النعيم، وأن تجيرنا من النار؛ يا رب العالمين!

(٧٢)

المحيط جل جلاله

قال ابن حجر رحمه الله: "من كان بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه أعلم؛ كان له أخشى وأتقى، وإنما تنقص الخشية بحسب نقص المعرفة بالله.

والعبد لما علم بأن الله هو المحيط؛ اطمأنت نفسه، وزال همه، وتعلق قلبه بربه المحيط".

أخبر الله عباده أنه المحيط؛ فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾[النساء:١٢٦].

فربنا جل وعلا لا يغيب عن علمه شيء صغير أو كبير، ظاهر أو باطن؛ فإنه كما وصف نفسه: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾﴾[فصلت:٥٤].

وإحاطته تشتمل على: العلم والاطلاع على الأحوال كلها، كما تشتمل على: القدرة وعدم الفوت، كما تشتمل على: السلطان والحكم.

جاء في «شرح الطحاوية»: "أما كونه محيطاً بكل شيء؛ فقال سبحانه وتعالى:

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾﴾[البروج:٢٠]، ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ مُّحِيطُۢ ﴿٥٤﴾﴾[فصلت:٥٤]، وليس المراد من إحاطته بخلقه: أنه كالفلك، وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا- .

وإنما المراد: إحاطة عظمته، وسعة علمه وقدرته، وأنها بالنسبة إلى عظمته كالخردلة؛ كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم".

إنه المحيط:

فإحاطة الله سبحانه وتعالى بخلقه: إحاطة تامة؛ لا يهرب منهم أحد، ولا يند منهم أحد، أحاطت بهم قدرته، وأحاط بهم علمه، أحاط بذواتهم وأقوالهم وأعمالهم؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ﴿١٢﴾﴾[الطلاق:١٢].

وهذه الإحاطة العامة، لأهل السماوات والأرض وهي إحاطة رحمة.

وأما الإحاطة الخاصة، فهي إحاطة قهر وفيها: تهديد للعصاة والمعاندين.

وأكثر ما جاء الاسم في مواضع التهديد والوعيد للكفار والمنافقين، فهو سبحانه وتعالى عالم بما يمكرون وما يكذبون، وهو سبحانه وتعالى من ورائهم محيط، ولهم بالمرصاد، مردهم إليه، وطريقهم إليه، ولا يفوتونه جل وعلا؛ فإلى أين المهرب والمصير؟

فقال ﷻ عن الكافرين: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾[البقرة:١٩].

وكذلك قال ﷻ عن أهل الرياء والبطر: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧﴾[الأنفال:٤٧].

وقال عن أهل الشماتة والكيد من الكفار والمنافقين: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ١٢٠﴾[آل عمران: ١٢٠].

وإذا نزل عذاب الله ﷻ بقوم؛ فإنه يحيط بهم: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾[هود:٨٤].

والنار يوم القيامة محيطة بالكافرين: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾[الكهف:٢٩].

❐ اطمئن!

والمؤمن إذا علم أن الله هو: المحيط ﷻ؛ اطمأنت نفسه، وتوكل على ربه واتقاه؛ فهو لا يتباطأ عون الله، ولا يقنط من رحمته، ولا يقطع أمله من الفرج؛ فإن الفرج آتيه لا محالة.

فهو يعلم أن خَرْقَ السفينة هي: قمة المعروف، وقتل الغلام هي: قمة

الرحمة، وحَبس كنز اليتيمين هي: قمة الوفاء؛ ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾[الكهف:٦٨].

لكن للأمور أوقاتًا وللمقدور عمرًا؛ لا بد أن يقضيه حتى يصل، وكل شيء عند الله بأجل مسمى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾[آل عمران: ١٢٠].

فالله ﷻ جعل لكل شيء قدرًا، وله زمنًا لا يتجاوزه، ووقتًا لا يتخطاه، فإذا جاء موعد المقدور فلا يستأخر عن وقته ساعةً ولا يستقدم.

وللكربة وقت ثم تزول، ولها زمن ثم تحول؛ فلا يستعجل لحصول المرغوب وإزاحة المرهوب، فالأمر ليس للعبد، فإن العبد عليه بذل السبب والصبر، فنصر الله ﷻ وفرجه لا يعز على طالب في أي مكان.

إبراهيم عليه السلام يحاط به، ويلقى في النار؛ فتكون بردًا وسلامًا.

ويوسف عليه السلام يحيط به إخوانه، ويلقونه في الجب، ثم يحاط به مرةً أخرى من امرأة العزيز ومن معها، ثم يسجن؛ لكن الله المحيط سبحانه وتعالى رد كيد الأعداء؛ فكانت إحاطتهم نصرًا وفتحًا ليوسف عليه السلام؛ ليكون عزيزًا على خزائن الأرض.

يحاط ببيت أم موسى عليه السلام، فيلقى موسى في اليم، فكانت إحاطتهم فرجًا لها وله؛ فيرجع إليها وهي مطمئنة.

يحيط فرعون بموسى عليه السلام ومن معه؛ فكانت إحاطتهم هلاك فرعون،

وانتصار موسى عليه السلام.

يحيط الكافرون ببيت رسول الله ﷺ؛ فيخرج من مكة طريدًا حزينًا، ثم يحيط الله بأعدائه؛ فيرجع إليها فاتحًا منتصرًا ﷺ.

فالمؤمن كلما استشعر إحاطة الله ﷻ: زاد إيمانه، وفرح بربه، وفر إليه خاضعًا لعظمته مستسلمًا لأمره، ممتثلاً لقوله ﷻ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾[الذاريات:٥٠].

بِـكَ أَسْـتَجِيرُ وَمَـنْ يُجِيـرُ سِـوَاكَا
فَـأَجِرْ ضَـعِيفًا يَحْتَمِـي بِحِمَاكَـا
إِنِّـي أَوَيْـتُ لِكُـلِّ مَـأْوًى فِـي الحَيَـاةِ
فَمَــا رَأَيْــتُ أَعَــزَّ مِــنْ مَأْوَاكَــا
فَاقْبَـلْ دُعَـائِي وَاسْـتَجِبْ لِرَجَـاوَتِي
مَـا خَـابَ يَوْمًـا مَـنْ دَعَـا وَرَجَاكَـا

اللهم! باسمك المحيط نسألك: أن تحيط أعداءنا بالعذاب من عندك، وأن تجعل لنا من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا.

(٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦)

الأَوَّلُ الآخِرُ

الظَّاهِرُ البَاطِنُ جل جلاله

أثنى الله سبحانه وتعالى على ذاته العلية بقوله: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣﴾[الحديد:٣].

وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان يقول: «اللَّهُمَّ! رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الأَرْضِ وَرَبَّ العَرْشِ العَظِيم، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالفُرْقَانِ؛ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ.

اللَّهُمَّ! أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ؛ اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الفَقْرِ»[أخرجه مسلم].

فهو الأول؛ الذي ليس قبله شيء.

وهو الآخر؛ الذي ليس بعده شيء.

وهو الظاهر؛ الذي ليس فوقه شيء.

وهو الباطن؛ الذي ليس دونه شيء.

ومدار هذه الأسماء على بيان إحاطة الرب سبحانه وتعالى بخلقه، إحاطة زمانية

ومكانية:

الإحاطة الزمانية: في (الأول) و(الآخر): (فما من أول إلا والله قبله)؛ فالأشياء كلها وجدت بعده، وقد سبقها كلها.

(وما من آخر إلا والله بعده)؛ فهو ﷻ الباقي بعد فناء خلقه كله صامتة وناطقة.

والإحاطة المكانية: في (الظاهر) و(الباطن)، وهو فوق كل شيء فلا شيء أعلى منه: (فما من ظاهر إلا والله فوقه) عالٍ على العرش، والعرش أعلى المخلوقات، فله علو الذات، وعلو القدر والصفات، وعلو القهار.

(وما من باطن إلا والله دونه): فبطونه سبحانه وتعالى إحاطته بكل شيء بحيث يكون أقرب إليه من نفسه، مطلع على السرائر والضمائر.

ومع علوه سبحانه وتعالى وفوقيته، وكونه على العرش فوق السماوات؛ فإنه قريب من عباده، مطلع على بواطنهم، عالم بظواهرهم، ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾[ق:١٦]، ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾[آل عمران:٢٩].

❑ قريب منك..

يسمع كلماتك، ويرى أفعالك، لا تخفى عليه منك خافية.

سمع النبي ﷺ أصحابه يدعون ربهم بأصوات جهورة مرتفعة؛ فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ! ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، وَلَكِنْ

تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا» [أخرجه البخاري ومسلم].

تهمس في سجودك: "سبحان ربي الأعلى"؛ فإذا السماوات تتفتح لدعوتك وإذا بالمولى يسمعك؛ فلا تتوهم أنه بعيد، أو أنه تخفى عليه منك خافية.

يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام:٥٩].

فمن حكمته ونعمته: أن يذكرك بأنه ابتدأت منه المخلوقات، وانتهت إليه عبوديتها، فكما كان واحداً في إيجادك فاجعله واحداً في تألهك إليه، وكما ابتدأ وجودك وخلقك منه فاجعله نهاية حبك وإرادتك وتألهك.

❑ لا تسأم من الوقوف!

فإذا ضاقت بك الحيل، وألجأتك المخاوف؛ فتذكر أنه الأول والآخر، وأنه قريب منك، وأنه على كل شيء قدير، وأنه قاهر فوق عباده، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه، وأنه مطلع على سرائرك وما يخالج ضميرك.

هنا صار لقلبك رب يقصده، وإله يعبده، وصمد يصمد إليه في حوائجه، وملجأ يلجأ إليه، فإذا استقر ذلك سَعِدَ قَلبُك، وهدأت نفسُك، وارتاح ضميرك، وقرب الفرج، وقد علمت أنه الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو على كل شيء قدير.

النار لم تحرق إبراهيم الخليل؛ لأن الرعاية الربانية فتحت نافذةً، ﴿قُلۡنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾[الأنبياء:٦٩].

البحر لم يغرق كليم الرحمن؛ لأن الصوت القوي المؤمن بجلال الله نطق: ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢﴾[الشعراء:٦٢].

يونس في بطن الحوت في البحر ينادي: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾[الأنبياء:٨٧]، صوت ضعيف منطلق من ظلمات ثلاث: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة بطن الحوت؛ يخترقها إلى السماء فيأتي الفرج.

وَفِي الغَيبِ للعَبدِ الضَّعيفِ لَطَائِفٌ
بِهَا جَفَّتِ الأَقلامُ وانطَوَتِ الصحُّفُ

▢ نقطة تحول..

فالإنسان وحده لا يستطيع أن يصارع الأحداث، ولا يقاوم الملمات، ولا ينازل الخطوب؛ لأنه خلق ضعيفاً عاجزًا إلا حينما يتوكل على ربه؛ لأنه يعلم أن أَوَليَّتَهُ سبقت كل شيء، وبقي بعد كل شيء بآخريته، وعلا على كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه.

فلا تواري منه سماءٌ سماءً، ولا أرض أرضًا، ولا يحجب عنه ظاهر باطنًا، بل الباطن له ظاهر، والغيب عنده شهادة، والبعيد منه قريب، والسر عنده علانية.

فيا سعادة من تعلق بالله، وتعلم أسماء الله، وأصلح سريرته، وأخلص عمله، وأحسن نيته، وتترس بالصبر، وتدرع بالثقة بمولاه! فهذا التعبد بخالص المحبة وصفو الوداد.

ونازعني شوق إليك وهزني　　　من الغيب ما يهفو إليه رجائيا

قال ابن القيم رحمه الله: "فمعرفة هذه الأسماء الأربعة وهي: الأول، والآخر، والظاهر، والباطن هي أركان العلم والمعرفة، فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلى حيث ينتهي به قواه وفهمه".

هُوَ أَوَّلٌ هُوَ آخِرٌ هُوَ ظَاهِرٌ　　　هُوَ بَاطِنٌ، هِيَ أَرْبَعٌ بِوِزَانِ

مَا قَبْلَهُ شَيْءٌ كَذَا مَا بَعْدَهُ　　　شَيْءٌ تَعَالَى اللهُ ذُو السُّلْطَانِ

والعلم بهذه الأسماء الأربعة ومعانيها له أثر عظيم في دفع الوسوسة.

جاء رجل -يقال له: أبو زميل- إلى حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ فسأله، "قال: يا ابن عباس! ما شيء أجده في صدري،

قال: ما هو؟

قلت: والله ما أتكلم به!

قال: فقال لي: أشيء من شك؟

قال: وضحك، قال: ما نجا من ذلك أحد.

قال: حتى أنزل الله قوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ

﴿٩٤﴾ [يونس:٩٤].

ثم قال لي: إذا وجدت في نفسك شيئًا؛ فقل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد:٣]" .

اللهم يا من هو الأول والآخر والظاهر والباطن! أصلح سرائرنا، وأحسن خاتمتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا والآخرة.

(٧٧)

الوَكِيلُ جل جلاله

هل تأملنا ووقفنا قليلاً عند قوله عز وجل: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨﴾[الفرقان:٥٨]؟

نداء من الملك الجبار.. نداء إلى كل مؤمن ومؤمنة.. نداء إلى كل مريض وكل مهموم ومدين.. نداء إلى كل خائف أو متردد..

يخبرنا بأنه هو الوكيل عز وجل، وأنه على كل شيء قدير؛ يحول جميع مشكلاتك إلى حلول، ويحول آلامك إلى عافية، وأحلامك إلى واقع، وخوفك إلى أمن، ودموعك إلى ابتسامة.

تَبَرَّأْتُ مِنْ حَوْلِي وَطَوْلِي وَقُوَّتِي
وَإِنِّي إِلَى مَوْلَايَ فِي غَايَةِ الفَقْرِ

أرح نفسك من ضعفها، وقلقها، ونفورها! واجعلها تتفيأ ظلال الوكيل في هذه السطور، وادلف معنا إلى أنوار اسم الله: (الوكيل عز وجل):

فالله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢﴾[الأنعام:١٠٢].

قال العلماء: الوكيل هو: المتولي تدبير خلقه بعلمه، وكمال قدرته، وشمول حكمته.

وهو: الذي تكفل بأرزاق العباد ومصالحهم وتدبير شؤونهم، وإرشادهم إلى ما ينفعهم وما يضرهم في الدنيا والآخرة.

وهذه هي: الوكالة العامة لجميع الخلق، ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ٦٢﴾[الزمر:٦٢].

لكن هناك وكالة خاصة؛ خصها الله سبحانه وتعالى لأوليائه وأهل طاعته ومحبته؛ فييسرهم لليسرى، ويجنبهم العسرى، ويكفل أمورهم..

ولذلك أمر الله نبيه ﷺ وجميع الأمة أن يتوكلوا عليه بقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾[الفرقان:٥٨]، وخصهم بحبه في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾[آل عمران: ١٥٩].

فالتوكل: آية المؤمن، وسمة الموحد، وعلامة التقوى، وهو من أعظم المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنى.

❐ للصادقين..

يقول ابن القيم رحمه الله: "التوكل: نصف الدين، والنصف الثاني: الإنابة، فإن الدين: استعانة وعبادة.

فالتوكل هو: الاستعانة، والإنابة هي: العبادة".

والتوكل: يزيد بزيادة الإيمان، وينقص بنقصانه، ومن لا توكل له لا

إيمان له؛ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٢٣﴾[المائدة:٢٣].

فكفاية الله ﷻ لك مقرونة بتوكلك عليه؛ ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[الطلاق:٣].

فكن صادقًا في توكلك تنل ما تريد؛ ولو كان كبيراً، جاء عند الترمذي عنه ﷺ أنه قال: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ؛ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ: تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا»[حديث صحيح].

والكل يتمنى أن ينال المكانة العالية عند الله ﷻ في الدنيا والآخرة، وهذه لا تحصل إلا للصادقين في توكلهم، فهؤلاء توكلت قلوبهم على الله ﷻ، ولهجت ألسنتهم عند الشدائد بقولهم: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾[آل عمران:١٧٣]، فظهرت العظمة، وظهرت المعجزة، وظهر الحفظ من الله ﷻ لأوليائه.

﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾[آل عمران:١٧٣]، قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار؛ فماذا كانت النتيجة؟ ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ٦٩﴾[الأنبياء:٦٩].

قالها نبينا محمد ﷺ وأصحابه ﭫ حين قيل لهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾[آل

عمران:١٧٣]؛ فماذا كانت النتيجة؟ ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾[آل عمران:١٧٤]

فإذا بلغت تلك المكانة؛ فقد بلغت محبته ﷻ: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾[آل عمران:١٥٩].

ويزيدك على تلك المحبة: الأجر العظيم: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦﴾[الشورى:٣٦].

☐ للمتوكلين..

اصْدُقْ في توكلك يحمِك الله من الشيطان؛ ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٩٩﴾[النحل:٩٩].

وإذا نصبت الأعداء حبالات المكر؛ فانصب لهم جدار التوكل: ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾[يونس:٧١].

من أراد النصر على الأعداء والفرج من المصيبة؛ فعليه بالتوكل على الله: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠﴾[آل عمران:١٦٠].

وإذا أعرض عنك الخلق؛ فاعتمد على الوكيل: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ١٢٩﴾ [التوبة:١٢٩].

وإذا طلبت للصلح والإصلاح؛ فادخل لها من باب التوكل: ﴿۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١﴾ [الأنفال:٦١].

وإذا وقر الإيمان في القلب، وعلمت بأن أمرك بين يديه سبحانه وتعالى؛ فلا يكن اتكالك إلا عليه عز وجل؛ ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾ [الرعد:٣٠]، فمن تمسك بالتوكل في كل أحواله؛ كفاه الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٣﴾ [الأحزاب:٣].

قبل الخروج:

ذاك الرجل الذي خرج من بيته وقد توكل على الله؛ فكان الله عز وجل وكيله، صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ، يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ.

فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟» [حديث صحيح. رواه أبو داود].

حزن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وثقل عليهم عندما سمعوا رسول

الله ﷺ يقول: «كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدْ الْتَقَمَ القَرْنَ، وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ؟!»، ولما رأى رسول الله ﷺ أنه ثقل عليهم ذلك قال لهم: «قُولُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ! عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا» [حديث صحيح. رواه الترمذي].

❑ ذكرى!

لقد ضاع مفهوم التوكل لدى كثير من الناس! نسوا الله فنسيهم جل وعلا، تركوا التوكل على الله فوكلهم إلى أنفسهم..

يمرض المريض فيعلق قلبه بالطبيب؛ تعلق بالدواء والطبيب وهما أسباب، ونسي رب الأرض والسماء، ومن بيده الشفاء!!

تنزل ببعضهم المحن، وتشتد عليهم الفتن، وتضيق عليهم الأمور، ويتحملون الهموم والغموم، وينطرحون على أعتاب الأصحاب، وينسون العزيز الوهاب جل وعلا.

يحدق به الأعداء، ويمكر به الألداء، يحيط به الخصوم؛ فيظل في هم شديد وكرب أكيد، ويغفل عن الذي هو أقرب إليه من حبل الوريد سبحانه وتعالى.

قال ابن الجوزي: "ينبغي للمتقي أن يعلم أن الله عز وجل كافيه؛ فلا يعلق قلبه بالأسباب، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]".

ومن الناس من فهم التوكل بمعنى: التواكل؛ كجماعة من اليمن أرادوا الخروج إلى الحج؛ فلم يأخذوا زادًا معهم، وقالوا: "نحن المتوكلون"،

وأخذوا يتسولون طعامهم من الناس! فأنزل الله ﷻ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[البقرة:١٩٧]، أي: تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس، ويقيكم ذل المسألة.

ومنهم من قال: رزقي كتب؛ فلماذا أسعى في الأرض؟!

صح عنه ﷺ أن رجلاً سأله؛ فقال: يا رسول الله! أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ فقال ﷺ: «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ»[حديث حسن. رواه الترمذي].

والله ﷻ قد قال: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾[الملك:١٥]، فاتخاذ الأسباب لا ينافي التوكل، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بالسبب، وإلا فهو: بطالة وتوكل فاسد! ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾[الممتحنة:٤].

❐ الطريق من هنا..

كيف أتوكل على الله في حياتي؟

أولاً: معرفة أسمائه وصفاته الحسنى، وكلما عظم قدر الله ﷻ في قلبك؛ تقربت منه سبحانه وتعالى.

ثانيًا: إحسان الظن بالله ﷻ، «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي...»[حديث صحيح. رواه ابن ماجه]، فذاك المنفق لم ينفق إلا وهو محسن الظن بالله، وأنه يخلف عليه بخير، وذاك الذي قام من فراشه ووقف بين يدي ربه، ما قام إلا وهو

يحسن الظن بربه، وذلك المعتمر والحاج والمصلي...

ثالثًا: التخلي عن قوتك، والاعتراف بضعفك بين يدي الله ﷻ، وإظهار الفاقة إليه، ودعاؤه: أن لا يكلك إلى نفسك أو إلى أحد من خلقه، وفي الحديث الصحيح: «اللَّهُمَّ! رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلاَ تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ»[حديث صحيح. رواه أحمد في «المسند»].

رابعًا: الإتيان بالمسبب؛ كالدعاء الذي جعله الله سببًا في حصول المدعو به.

خامسًا: تذكر قوة الله في تحويل الأحوال، وأن بيده مقاليد السماوات والأرض وهو على كل شيء قدير، والتذكر دائمًا: أن بيده خزائن كل شيء، فلا تملك إلا التفويض كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب إلى أبيه، ولله المثل الأعلى، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾[غافر:٤٤].

سادسًا: الرضا بما قسم الله لك، ولتعلم أن الخير فيما قسم الله لك، فإذا لم ترض فهو كما قال بشر الحافي: "يقول أحدهم: (توكلت على الله)، يكذب على الله! لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به".

ذكر ابن حمدون: "أن البرد أتى على زرع عجوز في البادية؛ فأخرجت رأسها من الخباء، ونظرت إلى الزرع وقد احترق، فرفعت رأسها إلى السماء وقالت: اصنع ما شئت؛ فإن رزقي عليك!".

فإذا حقَّق العبد التوكل على الحيِّ الذي لا يموت؛ أحيا الله له أموره كلها، وكمَّلها وأتمَّها، ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨].

اللهم يا وكيل! لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، وارحم ضعفنا، واجبر كسرنا؛ فأنت على كل شيء قدير.

(٧٨)

النُّورُ جل جلاله

قال الله ﷻ مُثنيًا على نفسه:

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النور: ٣٥].

جاء في «الصحيحين»: أن النبي ﷺ كان يدعو بهؤلاء: «اللَّهُمَّ! اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَاجْعَلْ لِي نُورًا».

وأيم الله! إن هذا من أثمن عطاءات الله للعبد؛ أن يرزقه نوره وهداه.

وحديثنا عن غذاء القلوب، ونعيم الأرواح، وبهجة النفوس، وهو أعظم غذاء وأنفعه وأجوده، وكما قيل:

لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا
عَنِ الشَّرَابِ وَتُلهِيهَا عَنِ الزَّادِ
لَهَا بِوَجْهِكَ نُورٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ
وَمِنْ حَدِيثِكَ فِي أَعْقَابِهَا حَادِي
إِذَا اشْتَكَتْ مِنْ كَلَالِ السَّيْرِ أَوْعَدَهَا
رَوْحَ اللِّقَاءِ فَتَقْوَى عِنْدَ مِيعَادِ

❐ في ظلال نوره:

قال ﷻ: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[النور:٣٥].

ونصوص الكتاب والسنة -كما ذكر ابن تيمية رحمه الله- التي سمى الله فيها نفسه (نورًا)، جاءت بثلاثة:

الأول: اتصافه بصفة النور، في قوله ﷻ: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾[الزمر:٦٩]، وفي الحديث: «وَأَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُوْرِهِ»[حديث صحيح. رواه ابن حبان].

الثاني: كونه ﷻ نورًا، ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[النور: ٣٥]، وفي الحديث: «أَنْتَ نُوْرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ»[أخرجه البخاري ومسلم].

الثالث: حجابه النور، كما في الحديث الصحيح: «حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[أخرجه

مسلم].

سبحات وجهه: بهاؤه ونوره.

ونور الله ﷻ الذي يتصف به لا يشبه الأنوار المخلوقة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١].

وَالنُّورُ مِنْ أَسْمَائِهِ أَيْضًا وَمِنْ
أَوْصَافِهِ سُبْحَانَ ذِي الْبُرْهَانِ

أهديك كلمات..

قال العلامة عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "من أسمائه جل جلاله ومن أوصافه: (النور)؛ الذي هو وصفه العظيم، فإنه ذو الجلال والإكرام، وذو البهاء والسبحات، الذي لو كشف الحجاب عن وجهه الكريم لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه.

وهو الذي استنارت به العوالم كلها؛ فبنور وجهه أشرقت الظلمات، واستنار به العرش والكرسي والسبع الطباق وجميع الأكوان، وهذا نور حسي.

وأما النور المعنوي؛ فهو: النور الذي نور قلوب أنبيائه وأصفيائه وأوليائه وملائكته؛ من أنوار معرفته وأنوار محبته، فإن لمعرفته في قلوب أوليائه أنوارًا بحسب ما عرفوه من نعوت جلاله، وما اعتقدوه من صفات جماله.

حلاوة هدايته!

فإذا عرفت الله ﷻ أصبت أعظم المعارف كلها؛ فالعلم به أجل العلوم، والعلم النافع كله أنوار في القلوب، فكيف بهذا العلم الذي هو: أفضل العلوم وأجلها وأصلها وأساسها؟

وهنا؛ يصدق على قلبك قوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾[النور:٣٥].

وهذا النور المضروب هو: نور الإيمان بالله ﷻ وبصفاته وآياته، مثله في قلوب المؤمنين مثل: هذا النور الذي جمع جميع الأوصاف.

ولذلك كان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ! اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَاجْعَلْ لِي نُورًا»[أخرجه البخاري ومسلم].

ومتى امتلأ القلب من هذا النور فاض على الوجه؛ فاستنار الوجه، وانقادت الجوارح بالطاعة مذعنةً مطيعةً؛ كما جاء في الكتاب والسنة، والله ﷻ يقول: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[النور:٣٥].

قال ابن سعدي رحمه الله: "لما استنارت بالصلاة بواطنهم؛ استنارت بالجلال

ظواهرهم، ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[الفتح:٢٩]".

وهذا النور يمنع العبد من ارتكاب الفواحش؛ كما صح عن النبي ﷺ أنه قال: «لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَشْرَبُ الخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلاَ يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ..»[أخرجه البخاري ومسلم].

كتابه نور:

أخبرنا الله ﷻ أن الكتب المنزلة من عنده: نور يضيء الله به قلوب العباد، قال ﷻ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾[المائدة:٤٤]، وقال: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾[المائدة:٤٦].

وأعظم الأنوار المنزلة: الكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ، قال ﷻ: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾[المائدة:١٥].

به أخرج الله ﷻ الذين آمنوا من الظلمات إلى النور: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾[إبراهيم:١]، ولذا؛ لما علم الكفار مدى قوة تأثير هذا النور في هذه الأمة؛ جاهدوا أن يطفئوه، ولكن الله ﷻ حافظ كتابه، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾[الصف: ٨]، والله حافظ هذه الأمة مادامت متمسكة بكتابه ﷻ.

خلاصة القول..

لما كان النور من أسمائه وصفاته؛ كان: دينه نورًا، ورسوله نورًا، وكلامه نورًا، ودار كرامته لعباده نورًا يتلألأ، والنور يتوقد في قلوب عباده المؤمنين، ويجري على ألسنتهم، ويظهر على جوارحهم، ويتم تبارك وتعالى عليهم هذا النور يوم القيامة؛ فالله قد قال: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التحريم: ٨].

اللهم يا نور السماوات والأرض! أتمم لنا نورنا، واغفر لنا؛ إنك على كل شيء قدير.

(٧٩)

الْكَافِي جل جلاله

جاء في «الصحيحين» عن جابر رضي الله عنه قال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة نجد، فلما أدركته القائلة وهو في واد كثير العضاه؛ فنزل تحت شجرة واستظل بها، وعلق سيفه، فتفرق الناس في الشجر يستظلون، وبينا نحن كذلك؛ إذ دعانا رسول الله ﷺ؛ فجئنا، فإذا أعرابي قاعد بين يديه، فقال: «إِنَّ هذَا أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ؛ فَاخْتَرَطَ سَيْفِي، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي مُخْتَرِطٌ صَلْتًا، قَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللهُ، فَشَامَهُ ثُمَّ قَعَدَ، فَهُوَ هَذَا»، قال: ولم يعاقبه رسول الله ﷺ.

قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[الزمر:٣٦].

فربنا سبحانه وتعالى كافٍ عباده؛ لأنه رازقهم وحافظهم ومصلح شؤونهم؛ فقد كفاهم الله عز وجل، وهذه كفاية عامة لجميع الخلق.

وأما كفايته الخاصة؛ فهي: كفايته للمتوكلين عليه، والمنيبين إليه.

وهي كفاية واسعة، فالله سبحانه وتعالى قد قال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾

وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ [الزمر:٣٦]، وقال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، أي: كافيه كل أموره الدينية والدنيوية.

ومن كفايته ﷻ لرسوله وللمؤمنين: أن ينزل عليهم نصره، ويمدهم بملائكته: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح:٤].

ويقول ﷻ: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران:١٢٥].

إنه الكافي:

والعبد لا غنًى له عن ربه طرفة عين في جميع شؤون حياته؛ فهو محتاج إلى حفظ الله وكفايته وتسديده؛ فهذا النبي ﷺ يعلمنا حديثًا هو من أعظم أحاديث كفاية الله ﷻ للعبد: صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ، وَكُفِيتَ، وَوُقِيتَ.

فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟» [حديث صحيح. رواه أبو داود].

والعبد المؤمن يكثر التضرع والتوسل بأسمائه الحسنى في طلب الحفظ والثبات، فإنه لا كافي إلا هو، ولا حافظ سواه، جاء في «صحيح

مسلم»: أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا، وَكَفَانَا وَآوَانَا؛ فَكَمْ مِمَّنْ لَا كَافِيَ لَهُ وَلَا مُؤْوِيَ».

لا تبرح عن بابه!

فالعبد المؤمن إذا أحسن الظن بالله سبحانه وتعالى، وصدق في توكله، وعظم رجاؤه؛ فإن الله لا يخيب ظنه؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

وهي من ربط الأسباب بمسبباتها، وصح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «يَقُولُ اللهُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي؛ إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ»[حديث صحيح. رواه أحمد في «المسند»].

تولى الله أمر يوسف عليه السلام، فأحوج القافلة في الصحراء للماء ليخرجه من البئر، ثم أحوج عزيز مصر للأولاد ليتبناه، ثم أحوج الملك لتفسير الرؤيا ليخرجه من السجن، ثم أحوج مصر كلها للطعام ليصبح عزيز مصر..

إذا تولى الله أمرك هيأ لك كل أسباب السعادة وأنت لا تشعر، فقط توكل على الله؛ فهو حسبك، وقل بصدق: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[غافر: ٤٤].

امتحان..

يقول ابن القيم رحمه الله: "فلما ذكر كفايته للمتوكل عليه؛ فربما أوهم

ذلك: تعجيل الكفاية وقت التوكل؛ فعقبه بقوله: ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾[الطلاق:٣]، أي: وقتًا لا يتعداه، فهو يسوقه إلى وقته الذي قدره له.

فلا يستعجل المتوكل ويقول: قد توكلت، ودعوت فلم أر شيئًا، ولم تحصل لي الكفاية؟! فالله بالغ أمره في وقته الذي قدره له".

ولذا؛ يمتحن الله ﷻ بعض عباده في صدق توكلهم؛ فيؤخر الإجابة، فإذا طال المقام ببعضهم ترك التوكل على الله، وذهب وانكسر وذل للمخلوق؛ ولو على حساب دينه ورضا ربه ﷻ.

صح في الحديث: أن النبي ﷺ قال: «مَنِ التَمَسَ رِضَاءَ اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ؛ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنَ التَمَسَ رِضَاءَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ؛ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ»[حديث صحيح. رواه الترمذي].

❐ الجواب الكافي..

ولا يحصل المقصود للعبد إلا بجعل الآخرة هي همه، صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «مَنْ جَعَلَ الهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا: هَمَّ آخِرَتِهِ؛ كَفَاهُ اللهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ!»[حديث صحيح. رواه ابن ماجه].

يقول ابن القيم رحمه الله: "من اشتغل بالله عن نفسه؛ كفاه الله مؤونة نفسه، ومن اشتغل بالله عن الناس؛ كفاه الله مؤونة الناس، ومن اشتغل

بنفسه عن الله؛ وكله الله إلى نفسه، ومن اشتغل بالناس عن الله؛ وكله الله إليهم".

يَكْفِيكَ مَنْ وَسِعَ الخَلائِقَ رَحْمَةً ... وَكِفَايَةً ذُو الفَضْلِ وَالإِحْسَانِ
يَكْفِيكَ رَبٌّ لَمْ تَزَلْ أَلْطَافُهُ ... تَأْتِي إِلَيْكَ بِرَحْمَةٍ وَحَنَانِ
يَكْفِيكَ رَبٌّ لَمْ تَزَلْ فِي سِتْرِهِ ... وَيَرَاكَ حِينَ تَجِيءُ بِالعِصْيَانِ
يَكْفِيكَ رَبٌّ لَمْ تَزَلْ فِي حِفْظِهِ ... وَوِقَايَةً مِنْهُ مَدَى الأَزْمَانِ
يَكْفِيكَ رَبٌّ لَمْ تَزَلْ فِي فَضْلِهِ ... مُتَقَلِّبًا فِي السِّرِّ وَالإِعْلانِ

اللهم يا كافٍ! اكفنا بحلالك عن حرامك، وبفضلك عمن سواك.

(٨٠، ٨١)

ٱلْمَوْلَىٰ ٱلْوَلِيُّ جَلَّ جَلَالُهُ

أنت بحاجة إلى سند، بحاجة إلى مرب، بحاجة إلى مرجع، بحاجة إلى من تتوكل عليه، بحاجة إلى مولًى، بحاجة إلى من يطمئنك بأن هذه الحياة جبلت على كدر، أنت بحاجة إلى قوي يحميك من شرور أعدائك، أنت بحاجة إلى مولاك.

أَتَيتُكَ رَاجِيًا يَا ذَا الجَلالِ فَفَرِّجْ مَا تَرَى مِنْ سُوْءِ حَالِيَ
إِلَى مَنْ يَشْتَكِي المَمْلُوكُ إِلاَّ إِلَى مَوْلاهُ يَا مَوْلَى المَوَالِيَ

قال الله ﷻ في كتابه: ﴿وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٢٨﴾[الشورى:٢٨]، وقال: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[البقرة: ٢٥٧].

فربنا ﷻ هو الولي المولى لكل الخلق أجمعين؛ بالخلق والتدبير، وتصريف الأمور والمقادير في السماوات والأرضين، في كل وقت وحين، فليس لنا ولي سواه يجلب لنا المنافع، ويدفع عنا الضر والشرور والمساوئ، نواصينا كلها بيده ﷻ.

وهذه الولاية العامة، وهي: ولاية الخلق والتدبير الشاملة للخلق

كافةً، للبر والفاجر، والمؤمن والكافر.

وأما الولاية الخاصة؛ فهي لأوليائه المتقين؛ يخرجهم من ظلمات الجهل والكفر والمعاصي إلى نور العلم والإيمان والطاعة، وينصرهم على عدوهم، ويصلح لهم أمورهم الدنيوية والدينية.

فهي ولاية تقتضي: الرأفة والرحمة والإصلاح والحفظ والمحبة، أما قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[البقرة:٢٥٧]؟

▢ الولاية بقدر الامتثال:

وولاية الله ﷻ للعبد المؤمن بحسب محبته له، يقول ابن القيم رحمه الله: "الولاية أصلها: الحب، فلا موالاة إلا بحب، كما أن العداوة أصلها: البغض.

والله ولي الذين آمنوا وهم أولياؤه، فهم يوالونه بمحبتهم له، وهو يواليهم بمحبته لهم، فالله يوالي عبده المؤمن بحسب محبته له".

وولاية الله ﷻ ليست كغيرها؛ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾[الشورى:١١].

والله ﷻ يوالي عبده إحسانًا إليه وجبرًا له ورحمةً، ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[البقرة:٢٥٧] بخلاف المخلوق؛ فإنه يوالي المخلوق لتعززه به وتكثره بموالاته، لذل العبد وحاجته.

وأما العزيز الغني ﷻ فلا يوالي أحدًا من ذل وحاجة، فالله ﷻ قد قال:

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١].

هم القوم..

وصفة الولي من عباد الله: أنه يحب الله ﷻ ورسوله ﷺ، ويحب من يحب الله ورسوله، ويبغض من يبغض الله ورسوله، ويوالي من يوالي الله ورسوله، ويعادي من يعادي الله ورسوله، ويعمل بطاعة الله، وينتهي عن معصيته، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة:٥٦]، ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [المجادلة:٢٢].

الطريق:

والولاية: لا تنال إلا بشرطين: بالتقوى، والإيمان، فالله ﷻ قد قال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

وَوِلَايَةُ اللهِ ﷻ كسبية لها أسبابها وأعمالها القلبية والبدنية، فالله ﷻ قد قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

[العنكبوت: ٦٩]، ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾[الأنعام:١٢٧].

والناس متفاضلون في ولاية الله ﷻ بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى.

مفاتيح القبول:

وكلما ازداد العبد تقربًا إلى الله ﷻ بفعل الفرائض ورغائب الدين؛ ازداد محبةً وقربًا من الله ﷻ.

صح عنه ﷺ أنه قال: «يقولُ اللهُ ﷻ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ.

وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[أخرجه البخاري].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الوليُّ لا يكون وليًّا لله إلا بمتابعة الرسول ﷺ؛ باطنًا وظاهرًا، فعلى قدر المتابعة للرسول يكون قدر الولاية لله".

إذا تولاك أدهشك!!

وهذا التولي الخاص يقتضي: لطفه بعباده وتوفيقهم، ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[البقرة:٢٥٧].

ويقتضي: غفران الذنوب والرحمة، ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾[الأعراف:١٥٥].

ويقتضي: النصر والتأييد على الأعداء، ﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾[البقرة:٢٨٦].

والله ﷻ قد قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾[آل عمران:١٥٠].

والولاية تقتضي: دخول الجنان والنجاة من النيران، قال ﷻ: ﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾[الأنعام: ١٢٧].

ومن نِعم الله الكبرى: أن يكون الله وليك، قال ﷻ: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾[الأنفال:٤٠]، فَإِذَا كَانَ ﷻ وَلِيَّكَ؛ فقد حزت الأمن في الدارين: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢].

فأنت مطمئن؛ لأن الله ﷻ معك، لسانك يقول دائمًا: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾[التوبة:٥١]. يشدد عليك، ويضيق عليك ليصطفيك؛ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ

﴿٥﴾ [القصص: ٥].

فإذا تولاك مولاك؛ فأنت في عناية مشددة، وفي نعمة كبرى، تخطئ فيعاقبك، تسرف فيقتر عليك، تستعلي فيؤدبك؛ وما ذاك إلا لأن الله ﷻ مولاك؛ نعم المولى ونعم النصير.

وأنت تعلم علم يقين: أن هذا عقاب محب وليس عذابًا؛ لأن الله لا يعذب أحبابه؛ ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَ﴾ [المائدة:١٨].

إِلَهِـي أَنْـتَ لِلإِحْـسَانِ أَهْـلُ وَمِنْـكَ الجُـوْدُ وَالفَـضْلُ الجَزِيـلُ
إِلَهِـي جُـدْ بِعَفْـوِكَ لِـي فَـإِنِّي عَلَــى الأَبْــوَابِ مُنْكَــسِرٌ ذَلِيــلُ

اللهم! إنا نسألك باسمك المولى: أن تمن علينا بدخول الجنة، وأن تجعلنا من أوليائك في السر والعلانية.

(٨٢)

الْهَادِي جل جلاله

ضَلَلْتُ زَمَانًا لَسْتُ أَعْرِفُ الهُدَى
وَقَدْ كَانَ ذَاكُمْ ظُلْمَةٌ فِي فُؤَادِيَا
فَلَمَّا أَرَادَ اللهُ دَفْعِي لِلهُدَى
أَبَانَ سَبِيلَ الحَقِّ لِي وَهَدَانِيَا
فَأَلْقَيْتُ عَنِّي ظُلْمَةَ الغَيِّ وَالرَّدَى
وَيَمَّمْتُ نُورًا لِلْهِدَايَةِ بَادِيَا
وَصِرْتُ إِلَى دِينِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ
رَشِيدًا وَمِنْ بَعْدِ الضَّلَالَةِ دَاعِيَا

من رحمة الله جل جلاله بالعباد: أن جعل الهداية بيده، وقد سمى الله نفسه بـ (الهادي عز وجل).

ونقف مع هذا الاسم، ونحن نسأله: أن يهدينا إلى الحق بإذنه وإلى صراط مستقيم:

يقول ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾[الحج: ٥٤]، وقال ﷻ: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ٣١﴾[الفرقان:٣١].

فربنا ﷻ الَّذِي يَهْدِي وَيُرْشِدُ عباده إلى جلب المنافع وإلى دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوى، ويجعل قلوبهم منيبةً إليه، منقادةً لأمره ﷻ.

❏ وهداية الله للإنسان..

على أربعة أوجهٍ:

أولاً: الهداية العامة، وهي: هداية كل نفس إلى مصالح معاشها وما يقيمها، وهي هداية شاملة للحيوان كله؛ ناطقه وبهيمه، طيره ودوابه، فصيحه وأعجمه.

ثانيًا: هداية الإرشاد والبيان للمكلفين، وهي: حجة الله ﷻ على خلقه؛ التي لا يعذب أحداً منهم إلا بعد إقامتها عليه.

قال ﷻ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾[فصلت:١٧].

ثالثًا: هداية التوفيق والإلهام وشرح الصدر لقبول الحق والرضا به، فالله ﷻ قال: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِ﴾[الإسراء:٩٧]، ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾[التغابن:١١]، ولذا؛ أمر ﷻ عباده أن يسألوه الهداية؛ بل أرشدهم إلى أن يسألوه الهداية في كل ركعة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾[الفاتحة:٦].

رابعًا: الهداية إلى الجنة والنار يوم القيامة؛ فالله ﷻ قال: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥﴾ [محمد:٥]، ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣].

وأما الهداية إلى النار؛ فالله ﷻ قال: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصافات:٢٢-٢٣].

كلما زدت هداية زدت ارتقاء..

والهداية: أكبر نعمة ينعم بها (الهادي) على عبده، وكل نعمة دونها زائلة.

فالراسخون في العلم أكثر الناس حرصًا على هذه النعمة، وهم يدعون الله بعدم زوالها: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران:٨].

وإن الهداية لا نهاية لها؛ ولو بلغ العبد فيها ما بلغ! ففوق هدايته هداية أخرى، وفوق تلك الهداية هداية أخرى، إلى غير غاية، فكلما اتقى العبد ربه ارتقى إلى هداية أخرى؛ فهو في مزيد هداية ما دام في مزيد من التقوى، قال ﷻ: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم:٧٦].

وكلما فوت حظًّا من التقوى فاته حظ من الهداية بحسبه، ومن حصل له الهدى؛ حصل له النعيم الأبدي، فالله ﷻ قد قال: ﴿ٱهْدِنَا

﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة:٧].

وعلامة الهداية: انشراح الصدر؛ قال ﷻ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الأنعام:١٢٥]، ومن هداه الله ﷻ فلا أحد يستطيع أن يضله، والعكس صحيح؛ قال ﷻ: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٦ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٦-٣٧].

ولذا؛ كان من أكثر دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ! إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَى وَالتُّقَى، وَالعَفَافَ وَالغِنَى» [أخرجه مسلم]، وعلم عليًّا رضي الله عنه بقوله: «قُلْ: اللَّهُمَّ! اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي» [أخرجه مسلم].

وعلم ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنهما أن يقول في قنوت الوتر: «اللَّهُمَّ! اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ» [حديث صحيح. رواه أبو داود].

من خطورة العيش بين الطاعة و المعصية أنك لا تدري في أي فترة منهم ستكون الخاتمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الذنوب من لوازم نفس الإنسان، وهو محتاجٌ إلى الهدى في كل لحظة، وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الأكل والشرب".

اقرع باب السماء!

قال ﷻ على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩﴾

[الصافات:٩٩].

اذهب إلى الله بضعفك يأتيك بقوته.. اذهب إلى الله بذلك يأتيك بعزه.. اذهب إلى الله بوحشتك يأتيك بأنسه.. اذهب إلى الله بفقرك يأتيك بغناه.. اذهب إلى الله بهمك يأتيك بفرجه.. اذهب إلى الله بحزنك يأتيك بفرحه.

إِلَهِي أَجِرْنِي مِنْ عَذَابِكَ إِنَّنِي ... أَسِيرٌ ذَلِيلٌ خَائِفٌ لَكَ أَخْضَعُ
إِلَهِي أَذِقْنِي طَعْمَ عَفْوِكَ يَوْمَ لَا ... بَنُونَ وَلَا مَالٌ هُنَالِكَ يَنْفَعُ

أخيرًا..

يقول الشيرازي رحمه الله: "سهرت ليلة مع أبي وحولنا نِيام، فقلت: لم يقم من هؤلاء من يصلي ركعتين! فقال: يا بني! لو نمتَ لكان خيراً لك من وقوعك في الخلق".

استقامتك لا تُعطيك الحق في السخرية من ضلال غيرك؛ فالقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، فلا تغتر بعملك ولا بعبادتك، فهي مِنَّة من الله عليك؛ فسلِ الله الثبات لك والهداية لغيرك؛ فالله قال لنبيه -خير البشر-: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء:٧٤]، فكيف بك؟!!".

اللهم يا هادي! اهدنا لما اختلف فيه من الحق بإذنك؛ إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم.

(٨٣)

النَّصِيرُ جل جلاله

جاء في «الصحيحين»: أن شروط الحديبية ثقلت على أصحاب رسول الله ﷺ...

قال عمر بن الخطاب: فأتيت النبي ﷺ، فقلت: ألست نبي الله؟ قال: «بَلَى»، قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: «بَلَى»، قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذًا؟!

فقال ﷺ: «إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي»[هذا لفظ البخاري].

تَعَالَيْتَ يَا مَنْ تَجْعَلُ الحَقَّ يَغْلِبُ ... وَيَهْزِمُ شَرًّا قَدْ تَمَادَى يُخَرِّبُ
فَأَنْتَ الَّذِي تُعْطِي الحُقُوقَ لِأَهْلِهَا ... فَنَصْرُكَ أَقْوَى مَا يَكُونُ وَأَقْرَبُ

قال الله عن ذاته العلية بقوله: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾[الأنفال:٤٠].

فربنا سبحانه وتعالى هو الذي ينصر رسله وأنبياءه وأولياءه على أعدائهم في الدنيا،

ويوم يقوم الأشهاد، قال ﷻ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾[غافر:٥١].

وربنا ﷻ ينصر المستضعفين، ويرفع الظلم عن المظلومين؛ ولو كانوا كافرين؛ فلا ناصر لهم إلا الله.

وربنا ﷻ ينصر المؤمنين على عدوهم؛ سواءً كان خارجيًّا؛ كالكافرين والظالمين، أو داخليًّا؛ كالنفس والشيطان، وهما أضر على المؤمن من عدوه الخارجي؛ ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت:٦٩].

وإذا نزل نصر الله؛ فلا غالب لمن نصره، ولا ناصر لمن خذله؛ ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ﴾[آل عمران:١٦٠].

صور النصر:

وأنواع نصرة الله لعباده المؤمنين يأتي بها الله ﷻ من حيث لا يحتسب العبد، فلا تعد ولا تحد ولا ترد:

فتارةً تكون: بتأييد الملائكة؛ كما في نصره لنبيه وصحبه في بدر، أو بالريح؛ كما في عاد والأحزاب، أو بإرسال الطير الأبابيل؛ كما في أصحاب الفيل، أو بالصيحة؛ كما في ثمود، أو بالخسف؛ كما فعل بقارون، أو القذف؛ كما في قوم لوط، أو الطوفان؛ كما في قوم نوح.

وجند الله ﷻ لا حصر لهم، والله غالب على أمره، وهو ﷻ على كل شيء قدير.

وصور النصر تكون: تارةً بالظفر بالأعداء وقهرهم؛ كانتصار داود وسليمان عليهما السلام، والنبي محمد ﷺ.

وتارةً بالانتقام من المكذبين في حياة الرسل؛ كقوم نوح، وقوم لوط، وهلاك فرعون وغيرهم، أو بعد مماتهم؛ كتسليط بختنصر على قتلة يحيى عليه السلام، وتسليط الروم على مريدي قتل عيسى عليه السلام.

فالله ﷻ قال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾[غافر:٥١].

الجواب الكافي..

قال السدي: "قد كان الأنبياء والمؤمنون يقتلون في الدنيا وهم منصورون، وذلك: أن تلك الأمة التي تفعل ذلك بالأنبياء والمؤمنين لا تذهب حتى يبعث الله قومًا فينتصر بهم لأولئك الذين قتلوا منهم، فيكون الإشكال قد زال عند هذه الآية".

وأما الإشكال الآخر الذي يورده بعض الناس عند قوله ﷻ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾[النساء:١٤١]:

ففي الآخرة لا إشكال فيه.

وأما في الدنيا؛ فجوابه -كما قال ابن القيم رحمه الله-: "فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبل بحسب ما نقص من إيمانهم.

فالمؤمن عزيز غالب مؤيد ومنصور: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر:٥١].

وما يراه المسلم في هذا الزمان من تسلط الكفار إنما هو بسبب: ما أحدثه المسلمون في دينهم من نقص أو زيادة، فإن تابوا اكتمل إيمانهم، وحل نصرهم من الله جل جلاله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾[الروم:٦].

وثمن النصر: الإيمان والإعداد والصبر؛ لأن الله جل جلاله قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾[الروم:٤٧]، وقال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[الأنفال:٦٠]، وقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾[آل عمران:١٢٠]، وجاء عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «..وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ»

[حديث صحيح. رواه أحمد في «المسند»].

وهنا ينزل النصر من المولى النصير؛ لأن الله جل جلاله قال: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[آل عمران:١٢٦]، وقال: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ [آل عمران:١٦٠].

وإذا كان الله جل جلاله معك فمن عليك؟

وإذا كان عليك فمن معك؟

ومن لاذ بالله كفاه وعلا شأنه: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾[الحج:٧٨].

ثم إن المؤمن يحب المؤمن، وينصره بظهر الغيب، وإن تناءت بهم الديار وتباعد الزمان.

اللهم يا نصير! انصرنا على القوم الكافرين.

(٨٤)

الوَارِثُ جل جلاله

قيل لأحد الحكماء: ما لك تدمن إمساك العصا ولست بكبير ولا مريض؟ فقال: لأذكر أني مسافر.

حَمَلْتُ العَصَا لا الضَّعْفُ أَوْجَبَ حَمْلَهَا
عَلَيَّ ولا أنِّي تَحَنَّيْتُ مِنْ كِبَرْ
وَلَكِنَّنِي أَلْزَمْتُ نَفْسِيَ حَمْلَهَا
لِأُعْلِمَهَا أَنَّ المُقِيمَ عَلَى سَفَرْ

أعلن للمسافر أنه: ليس لك إقامة في هذه الدنيا؛ فلا تركن إليها، والإعلان في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٤٠﴾[مريم: ٤٠].

فالله هو: (الوارث ﷻ).

نقف مع اسمه ﷻ: (الوراث ﷻ) نذكر أنفسنا؛ لعل الله يرحمنا:

قال ﷻ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝٢٣﴾[الحجر:٢٣].

فربنا ﷻ البَاقِي بعد فناء كل الخلائق، الوَارِثُ لجميع الأشياء بعد زوال كل من في الأرض والسماوات الطوابق.

وربنا الوارث ﷻ بلا توريث أحد، الباقي ليس لملكه مد، قال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ۝٤٠﴾[مريم:٤٠].

وربنا ﷻ لم يزل مالكًا لأصول الأشياء كلها، يورثها من يشاء، ويستخلف فيها من أحب، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٢٨﴾[الأعراف:١٢٨].

وربنا ﷻ الذي يورِّث المؤمنين ديار الكافرين في الدنيا ومساكنهم في الآخرة.

أما الدنيا؛ فالله ﷻ قال: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾[الأحزاب: ٢٧]، وأما الآخرة؛ فالله ﷻ قال: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ۝٦٣﴾[مريم:٦٣]، وقال ﷻ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾[الأعراف:٤٣].

وكتاب الله ﷻ: كتاب الهداية والعز والفلاح، يورثه من اصطفاهم

واجتباهم لكرامته، قال ﷻ: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾[فاطر:٣٢].

❑ ملك الحقيقي..

وكون المؤمن مستخلفاً وذاهباً إلى ربه؛ فمن كرم الله على المؤمن: أنه أمره بالإنفاق مما وهبه الله له؛ مع أنه من خالص ملكه ﷻ، ثم وعده بالأجر الكبير، قال ﷻ: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ٧﴾[الحديد:٧]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[الحديد:١٠]، فالملك الحقيقي: ما ادخره العبد ليوم الميعاد.

في «صحيح مسلم» عن مطرف عن أبيه عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١﴾[التكاثر:١]، قال: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي.. مَالِي! وَهَلْ لَكَ -يَا ابْنَ آدَمَ!- مِنْ مَالِكَ إِلاَّ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟».

والمؤمن علم إنَّ يده يد أمانة، وما تحت يده ودائع والله ينظر كيف يعمل!

وَمَا المَالُ وَالأَهْلُونَ إِلاَّ وَدِيعَةٌ ... وَلاَ بُدَّ يَوْمًا أَنْ تُرَدَّ الوَدَائِعُ

من وحي الدعاء..

ثم اعلم أن التوسل إلى الله بهذا الاسم داخل في عموم قوله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠]؛ ولا سيما بمراعاة المناسبة بين المطلوب والاسم المذكور؛ كما في دعاء نبي الله زكريا عليه السلام: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩﴾[الأنبياء:٨٩]، وقال: ﴿فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦﴾[مريم:٥-٦].

والإرث المذكور هنا: إنما هو إرث علم ونبوة ودعوة إلى الله ﷻ، لا إرث مال، ومثل هذا الإرث المبارك: ما ورد في قوله ﷻ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾[النمل:١٦].

وصح عنه ﷺ أنه كان يقول: «اللَّهُمَّ! أَمْتِعْنِي بِسَمْعِي وَبَصَرِي، وَاجْعَلْهُمَا الوَارِثَ مِنِّي»[حديث صحيح. رواه الحاكم في «المستدرك»].

وأشار العلماء عند هذا الاسم: أن العبد ينبغي أن يتقي الله ﷻ في حقوق الإرث؛ فلا يظلم من الورثة أحداً.

اللهم! إنا نسألك باسمك الوارث: أن تمتعنا بأسماعنا وأبصارنا، وتجعلها الوارث منا.

(٨٥)

الشَّافِي جل جلاله

جاء في «الصحيحين»: أن النبي ﷺ عاد أعرابيًّا مريضًا يتلوى من شدة الحمى؛ فقال له -مواسيًا ومشجعًا-: «طَهُورٌ».

فقال الأعرابي: بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، توره القبور!

قال: «فَنَعَمْ إِذًا!».

شفاء الإنسان أو بقاؤه على مرضه -غالبًا- ينبع من نفسه وحده، فإذا ساورتنا أفكار سعيدة كنا سعداء، وإذا تملكتنا أفكار الشفاء والتفاؤل وحسن الظن بالله غدونا برآء بإذن الله، وإذا تغلبت علينا هواجس السقم والمرض فالأغلب أن نبيت مرضى سقماء.

وَرَبُّنَا سبحانه وتعالى فتح باب الأمل لكل مريض، قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ومن أسمائه الحسنى: (الشافي)، فتقرب إلى الله بهذا الاسم؛ حتى تقرب من مرادك، وتنال حاجتك.

كان النبي ﷺ إذا أتى مريضًا أو أتي به إليه قال: «أَذْهِبِ البَاسَ رَبَّ النَّاسِ! اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لاَ شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا» [أخرجه البخاري ومسلم].

والشفاء في اللغة هو: البرء من المرض.

فربنا سبحانه وتعالى الذي يرفع البأس والعلل، ويشفي العليل بالأسباب والأمل، فقد يبرأ المريض مع انعدام الدواء، وقد يزول الداء بلزوم الدواء، وتترتب عليه أسباب الشفاء، وكلاهما بالنظر إلى قدرة الله سبحانه وتعالى سواء.

وربنا سبحانه وتعالى كما يشفي الأبدان من أمراضها؛ كذلك يَشْفِي القلوب من أسقامها، والصدور من ضيقها، والنفوس من عللها، فالله عز وجل قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ [يونس:٥٧].

وهو سبحانه وتعالى يشفي من يشاء، ويطوي علم الشفاء عن الأطباء، إذا لم يُقدِّر الشفاء.

وهو سبحانه وتعالى وحده المتفرد بالشفاء لا شريك له؛ فلا شفاء إلا شفاؤه؛ كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾ [الشعراء:٨٠]، وكما قال ﷺ: «...لاَ شَافِيَ إِلاَّ أَنْتَ» [أخرجه البخاري].

ومن كرم الله الشافي: أنه لَمْ ينزل داءً إلا أنزل له دواءً، صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «يَا عِبَادَ اللهِ تَدَاوَوْا! فَإِنَّ اللهَ عز وجل لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلاَّ وَضَعَ لَهُ دَوَاءً، غَيْرَ دَاءٍ

وَاحِدٍ: الهَرَمُ»[حديث صحيح. رواه الترمذي].

ملاذك..

ينزل بالمريض الداء، وتغلق أبواب الشفاء في وجهه، وتضيق عليه الأرض بما رحبت، ويشتد الكرب، ولا يجد في المخلوقين ملجأً ولا ملاذًا، وحاله يقول:

لَقَدْ ضَعْضَعَتْنِي، وَهِيَ سِرٌّ، وَلَمْ يَكُنْ
يُضَعْضِعُنِي صَرْفُ الزَّمَانِ إِذَا عَدَا
إِذَا مَا أَنَا أَسْنَدْتُ رَأْسِي إِلَى يَدِي
رَمَتْنِي مِنْهَا بِالَّذِي يُوهِنُ اليَدَا
إِذَا اللَّيْلُ أَعْيَاهُ مُسَاجَلَةُ الضُّحَى
تَمَنَّى لَوْ أَنَّ الصُّبْحَ أَصْبَحَ أَسْوَدَا

وهنا؛ بداعي الفطرة في النفوس يلوذ المريض بالله، وينطرح بين يديه ﷻ، ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣﴾[النحل:٥٣]، وينادي المؤمن باسم الشافي: يا شاف اشفني.. يا الله اشفني!

وكذلك غير المؤمن ينطرح عند بابه يرجو منه الشفاء؛ ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٩﴾[الزمر:٤٩].

وبعد إلحاح وصبر.. يأتي الفرج، ويأذن الشافي ﷻ بالشفاء، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[النمل:٦٢].

عطاؤه ممنوح، وكرمه عظيم، وجوده كبير؛ فإذا الحاجة قضيت، والدعوات قبلت، والرحمة نزلت، والمحنة أزيلت، والشفاء دب.

وَكَمْ مِنْ مَرِيضٍ نَعَاهُ الطَّبِيبُ   إِلَى نَفْسِهِ وَتَوَلَّى كَئِيبَا
فَمَاتَ الطَّبِيبُ وَعَاشَ الْمَرِيضُ   فَأَضْحَى إِلَى النَّاسِ يَنْعَى الطَّبِيبَا

قال ابن القيم: "الله ﷻ لا يبتلي عبده ليهلكه، وإنما يبتليه ليمتحن صبره وعبوديته؛ فإن لله ﷻ على العبد عبودية الضراء".

❐ دأب الصالحين..

والفرق بين المؤمن وغيره: أن المؤمن يعلم أن زمام العالم بيد الله ﷻ، وأنه هو الشافي، وهو أرحم الراحمين، وأن المرض ما أرسل إلا لخير علمه الله الرحيم؛ ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة: ٢١٦]، فمهما اضطربت الأحداث وتقلبت الأحوال؛ فلن تبت فيها إلا المشيئة العليا، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢١﴾[يوسف:٢١]، فتجد المؤمن المريض راضيًا مسلمًا محتسبًا بما أنزل عليه من الداء.

والمؤمن يعلم: "أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه"؛ لقوله ﷻ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾[التوبة: ٥١]، ولقوله ﷺ: «..وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللهِ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ

حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ»[حديث صحيح. رواه أبو داود].

مرَّ علي بن أبي طالب بعدي بن حاتم رضي الله عنهما؛ فرآه حزينًا كئيبًا؛ فقال له: "يا عدي! ما لي أراك كئيبًا حزينًا؟ قال: وما يمنعني وقد قتل أبنائي وفقئت عيني؟ فقال علي رضي الله عنه: يا عدي! إنه من رضي بقضاء الله جرى عليه، وكان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه، وحبط عمله".

قال العلماء: بقدر حاجة الإنسان إلى الله، وانطراحه بين يديه، ولجوئه إليه؛ تكون الإجابة، ويأتي الفرج، ويستجاب الدعاء.

وما منا إلا وله تجربة مع المرض، وكيف أن المرض كشف ضعفنا، وأنه لا حول لنا ولا قوة إلا به تبارك وتعالى، فلما كشف عنا وزال ما بنا من داء؛ صار حالنا كما قال الشاعر:

نَحْنُ نَدْعُوْ الإِلَهَ فِي كُلِّ كَرْبٍ ... ثُمَّ نَنْسَاهُ عِنْدَ كَشْفِ الكُرُوْبِ
كَيْفَ نَرْجُوْ إِجَابَةً لِدُعَاءٍ ... قَدْ سَدَدْنَا طَرِيقَهَا بِالذُّنُوْبِ

فشأننا مع الله جل جلاله عجيب!!

❑ لا تحزن!

إذا بُليت بالمرض فاعلم: أن الله هو الشافِي، ولا يعجزه شيء، فإن ظننت أن مرضك ليس له شفاء؛ فقد أسأت الظن بالله! فقط أقبل عليه بحسن

الظن وصدق الالتجاء، واصبر محتسبًا وتصدق، وألح عليه في الدعاء: يا شاف اشفني! فهو الحق، وقوله الحق، وهو على كل شيء قدير، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠]؟

وجاء في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ»[حديث صحيح. رواه الترمذي]، والله ﷻ قال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[النمل:٦٢].

وعندما تكون على هذه الحال؛ فقد تكرم عليك مولاك بعظيم الأجر والثواب، قال ﷺ: «مَا مِنْ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْمُسْلِمَ إِلاَّ كَفَّرَ اللهُ بِهَا عَنْهُ؛ حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا»[أخرجه البخاري -وهذا لفظه-، ومسلم].

قال ابن تيمية رحمه الله: "الله عنده من المنازل العالية في دار كرامته: ما لا ينالها إلا أهل البلاء".

ثم تعز بأهل البلاء؛ ففي كل دار نائحة، وعلى كل خد دمع، وفي كل واد بنو سعد.

كم من المصائب، وكم من الصابرين؟!

فلست وحدك المصاب، بل مصابك أنت بالنسبة لغيرك قليل.

كم من مريض على سريره من أعوام؟! يتقلب ذات اليمين وذات الشمال، يئن من الألم، ويصيح من السقم.

وتذكر أن هذه الحياة سجن المؤمن، ودار للأحزان والنكبات، فيها

تصبح القصور حافلةً بأهلها، وتمسي خاويةً على عروشها، ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ٤﴾[البلد:٤].

اقبل دنياك كما هي، وطوع نفسك لمعايشتها؛ فإنها جبلت على كدر، والكمال ليس من شأنها.

ولولا مرارة المرض ما عرفت نعمة الصحة.

ولك في أيوب عليه السلام أسوة حسنة..

والمؤمن يسأل الله العافية على الدوام، كان عبدالله التيمي رحمه الله يقول: "أكثروا من سؤال الله العافية؛ فإن المبتلى وإن اشتد بلاؤه ليس بأحق بالدعاء من المعافى الذى لا يأمن من البلاء.

وما المبتلون اليوم إلا من أهل العافية بالأمس، وما المبتلون بعد اليوم إلا من أهل العافية اليوم".

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "من أعظم علاجات المرض: فعل الخير، والإحسان، والذكر، والابتهال إلى الله، والتوبة".

قُلْ لِلطَّبِيبِ تَخَطَّفَتْهُ يَدُ الرَّدَى: مَنْ يَا طَبِيبُ بِطِبِّهِ أَرْدَاكَا
قُلْ لِلْمَرِيضِ شُفِيَ وَعُوفِيَ بَعْدَمَا عَجَزَتْ فُنُونُ الطِّبِّ: مَنْ عَافَاكَا

إنه الرحيم الشافي المعافي، ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠﴾[الشعراء: ٨٠].

اللهم يا شافي! اشفنا واشف جميع مرضى المسلمين؛ يا رب العالمين!

(٨٦)

الجَمِيلُ جل جلاله

جاء في «صحيح مسلم» عن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، يقولُ اللهُ تبارك وتعالى: تُرِيدُون شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟ فَيَكْشِفُ الحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عز وجل».

فسبحان من حارت الأفكار في جماله..

وسبحان من اضطربت الأفهام في عظمته..

وسبحان من ذهلت الأذهان لأنواره..

فالله جميل يحب الجمال، بل هو الجمال كله، والجمال كله منه، يفعل الجميل، ويكافئ على الجميل.

وَهُوَ الجَمِيلُ عَلَى الحَقِيقَةِ كَيْفَ لَا؟!
وَجَمَالُ سَائِرِ هَذِهِ الأَكْوَانِ
مِنْ بَعْضِ آثَارِ الجَمِيلِ، فَرَبُّهَا
أَوْلَى وَأَجْدَرُ عِنْدَ ذِي العِرْفَانِ

يعجز اللسان عن البيان!!

جاء في «صحيح مسلم» قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ».

يقول الشيخ السعدي رحمه الله في شرحه لأبيات ابن القيم في «نونيته»:

"الجميل: مَن له نعوت الحسن والإحسان، فإنه جميل في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا يمكن لمخلوق أن يعبر عن بعض جمال ذاته سبحانه وتعالى، حتى أن أهل الجنة مع ما هم فيه من النعيم المقيم، واللذات والسرور، والأفراح التي لا يقدر قدرها؛ إذا رأوا ربهم وتمتعوا بجماله نسوا ما هم فيه من النعيم، وتلاشى ما هم فيه من الأفراح، وودوا أن لو يدوم هذا الحال؛ ليكتسوا من جماله ونوره جمالاً إلى جمالهم؛ لأن قلوبهم كانت في شوق دائم ونزوع إلى رؤية ربهم، ويفرحون بـ (يوم المزيد) فرحًا تكاد تطير له القلوب!

وكذلك هو: الجميل في أسمائه؛ فإنها كلها حسنى، بل أحسن الأسماء على الإطلاق وأجملها سبحانه وتعالى؛ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

فكلها دالة على غاية الحمد والمجد والكمال، لا يسمى باسم منقسم إلى كمال وغيره.

وهو: الجميل في أوصافه؛ فإن أوصافه كلها أوصاف كمال، ونعوت ثناء وحمد.

وأفعاله كلها جميلة؛ فإنها دائرة بين أفعال البر والإحسان التي يحمد عليها ويشكر".

ولو كانت الأشجار أقلامًا، والبحار مدادًا، والسماوات ألواحًا، والخلائق يملون الثناء، ويكتبون المديح عن جمال الله؛ لكانوا فيما يستحقه: مقصرين، وفيما يجب له: متقطعين، وبالعجز عن القيام بشكره معترفين.

جماله لا تحيط به العقول، ولا تدركه الأبصار؛ كما قال النبي ﷺ: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» [أخرجه مسلم].

❑ جمال الأكوان..

وما فيها من البر والبحر والخضرة، والشمس والقمر والنجوم والدواب: دَلِيلٌ عَلَى جمَالِهِ سبحانه وتعالى؛ فإنه مانح الجمال، ومانح الجمال أحق بالجمال منها، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون:١٤].

ولا ينظر إلى هذا الجمال إلا من نور الله قلبه بالإيمان؛ فهو يرى وراء هذا الجمال جمال الله وجلاله وكماله جل جلاله.

ومن أعرض عن ذكر الله، وتنكر لنوره، وتمرد على هدايته؛ فإنه يحرم النظر إلى إبداع جماله، فالعين عميت، والبصيرة طمست!

أَيُّهَا الشَّاكِي وَمَا بِكَ دَاءٌ ... كَيْفَ تَغْدُوْ إِذَا غَدَوْتَ عَلِيْلاً
أَتَرَى الشَّوْكَ فِي الوُرُوْدِ وَتَعْمَى ... أَنْ تَرَى فَوْقَهُ النَّدَى إِكْلِيْلاً
وَالَّذِي نَفْسُهُ بِغَيْرِ جَمَالٍ ... لَا يَرَى فِي الوُجُوْدِ شَيْئًا جَمِيلاً

الشوق..

والإيمان بهذا الاسم يزيد المؤمن إيمانًا وشوقًا إلى رؤية الله الجميل، وكان من دعاء النبي ﷺ: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ..» [حديث صحيح. رواه الترمذي] ثم تجده مطمئنا راضيًا بما يقدر الله ﷻ عليه؛ لأنه ﷻ لا يفعل إلا ما فيه الحكمة والخير لعبده المؤمن؛ لأن كل أفعاله جميلة، وما ينشأ من الفعل الجميل إلا جميل، وهذا هو حسن الظن بالله؛ الذي حدث عنه النبي ﷺ في الحديث القدسي في «مسند الإمام أحمد»: أن رب العزة قال: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي؛ إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ»[حديث صحيح].

وَإِنِّي لَأَدْعُو اللهَ حَتَّى كَأَنَّنِي ... أَرَى بِجَمِيلِ الظَّنِّ مَا اللهُ صَانِعُ

لا تنكر الجميل!

والمؤمن تراه جميلاً باطنًا وظاهرًا؛ لأنه يتقرب بهذا الجمال إلى الله، ولأن الله حث على جميل الأقوال والأخلاق والأعمال، فيحب من عبده: أن يجمل لسانه بالصدق، وقلبه بالإخلاص والإنابة والتوكل، وجوارحه بالطاعة، وبدنه بإظهار نعمه عليه في لباسه وتطهره.

والمؤمن يعرف ربه بالجمال الذي هو وصفه، ويعبده بالجلال الذي هو شرعه ودينه.

ولما قال النبي ﷺ لأصحابه: «لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنةً!

قال ﷺ: «إِنَّ اللّه جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ: بَطَرُ الحقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»

[أخرجه مسلم].

اللهم! ارزقنا الجمال في الدارين، وارزقنا الجمال في السريرتين: السر، والعلانية، وارزقنا الجمال في الأقوال والأفعال؛ يا رب العالمين!

(٨٧ ، ٨٨)

القَابِضُ البَاسِطُ جل جلاله

رسالة قبل البدء..

إلى من سلك كل الطرق؛ فرآها قد سدت، وطرق الأبواب؛ فوجدها قد غلقت..

وإلى من تلمس جوانب نفسه وخبايا سريرته؛ فضاقت عليه الأرض بما رحبت..

وإلى من أحس بمرارة الذل وقيود العجز تطؤه وتحطم كيانه..

وإلى من جفاه الإخوان، وأعرض عنه الخلان؛ فشمت العدو وضعفت الثقة..

وإلى من داهمته المصائب، ونازلته الخطوب، وحفت به المكاره، وأبطأ نحوه الفرج..

وإلى من قسا قلبه، ويئست روحه، ومل من الحياة..

وإلى من ألم به المرض أو أرهقه الدين، أو حل به الفقر أو تعثرت به الحاجة...

أقول لـه: لا تحـزن! فـالله هـو القـابض والباسـط ﷻ؛ يكفيـك كـل همـك، ويحفظـك في الأزمـات، ويرعـاك في الملمـات، ويمنحـك العـز بـلا عشيرة والغنى بلا مال، ويزيدك إذا شكرته، ويذكرك إذا ذكرته، ويعطيك إذا سألته.

فأقبل عليه، وتقرب إليه بمعرفة اسميه: (القـابض الباسـط)، بهـذين الاسمين المقـرونين؛ فإنهمـا مـن الأسمـاء المتقابلـة الـتي لا ينبغـي أن يثنـى عليه ﷻ بواحد منهما دونما الآخر.

وحتى تطمئن نفسك، وينشرح صدرك؛ قل كما كان حبيبك ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ! لَكَ الحمْدُ كُلُّهُ.

اللَّهُمَّ! لاَ قَابِضَ لِمَا بَسَطْتَ، وَلاَ بَاسِطَ لِمَا قَبَضْتَ، وَلاَ مُقَرِّبَ لِمَا بَاعَدْتَ، وَلاَ مُبَاعِدَ لِمَا قَرَّبْتَ، وَلاَ مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ، وَلاَ مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْتَ.

اللَّهُمَّ! ابْسُطْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِكَ، وَرَحْمَتِكَ، وَفَضْلِكَ، وَرِزْقِكَ»

[حديث صحيح. رواه البخاري في «الأدب المفرد»].

❑ في ظلال اسميه: القابض والباسط:

فربنا ﷻ الذي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده؛ حتى لا تبقى فاقة، ويقبضه عمن يشاء؛ حتى لا تبقى طاقة؛ بكمال القدرة والعدل؛ على حسب ما تقتضيه حكمته، وما يليق بأحوال عباده، وإذا زاده ﷻ لم يزده سرفًا ولا خرقًا، وإذا نقصه لم ينقصه عدمًا ولا بخلاً؛ فالله ﷻ قد قال: ﴿ وَلَوْ

بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾ [الشورى:٢٧].

وفي الحديث: لما غلت الأسعار في عهد رسول الله ﷺ؛ طلب الصحابة رضي الله عنهم من رسول الله ﷺ أن يحدد الأسعار؛ فقالوا: يا رسول الله! غلا السعر، فسعر لنا؟ فقال: «إِنَّ اللهَ هُوَ: المُسَعِّرُ القَابِضُ البَاسِطُ الرَّازِقُ» [حديث صحيح. رواه ابن ماجه].

وربنا سبحانه وتعالى يقبض الصدقات من الأغنياء، ويبسط الأرزاق للضعفاء، يقبض الصدقات فيربيها، ويبسط النعم ويهيئها.

وربنا سبحانه وتعالى يقبض الأرواح عن الأجساد عند الممات، ويبسط الأرواح فيها عند الحياة.

وربنا سبحانه وتعالى يقبض القلوب؛ فيضيقها حتى تصير حرجًا كأنما تصعد في السماء، ويبسطها بما يفيض عليها من معاني بره ولطفه وجماله؛ فتبقى منشرحةً، فالله جل جلاله قال: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥].

وربنا سبحانه وتعالى يقبض ويبسط بيديه الكريمتين -على الحقيقة وعلى الكيفية التي تليق بجلاله وكماله- لمن شاء من الخليقة، فمن ذلك:

الأرض والسماوات العلى.

فالله ﷻ قال: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾[الزمر:٦٧]، وصح عنه ﷺ أنه قال: «يَأْخُذُ اللهُ ﷻ سَمَاوَاتِهِ وَأَرَضِيهِ بِيَدَيْهِ؛ فَيَقُولُ: أَنَا اللهُ -وَيَقْبِضُ أَصَابِعَهُ وَيَبْسُطُهَا- أَنَا الْمَلِكُ»[أخرجه مسلم].

والله ﷻ ربنا بسط يده بالتوبة لمن أساء، فصح عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ؛ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[أخرجه مسلم].

وهو ﷻ الذي يملي للعصاة؛ فيجعلهم بين الخوف والرجاء.

وربنا يبسط يديه لمن سأله ودعاه في كل ليلة، صح عنه ﷺ أنه قال: «..ثُمَّ يَبْسُطُ يَدَيْهِ ﷻ يَقُولُ: مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدُومٍ، وَلا ظَلُومٍ؟»[أخرجه مسلم].

وربنا ﷻ يبسط لمن يشاء في العلم والخلقة، قال ﷻ: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِ﴾[البقرة:٢٤٧].

وربنا يقبض بيده الكريمة؛ فيعتق أقوامًا من النار لم يعملوا خيرًا قط؛ كما جاء في الحديث الطويل: «فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ؛ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ»[أخرجه مسلم].

وربنا يقبض ويبسط الظلال والأنوار وما يترتب على ذلك من اختلاف الليل والنهار.

وهو ﷻ يقبض بالتحريم، ويبسط بالإباحة.

وربنا ﷻ يقبض قلوب العباد ويبسطها ، والمؤمن يعيش بين الرجاء والخوف.

هُوَ قَابِضٌ هُوَ بَاسِطٌ هُوَ خَافِضٌ

هُوَ رَافِعٌ بِالْعَدْلِ وَالمِيزَانِ

❐ الميزان:

فالعبد حين يسير إلى ربه؛ متقدمًا بالطاعة، متقلبًا بين فرض ونفل، مستزيدًا منهما، قد تعلق قلبه بربه؛ فتراه منشرح الصدر مسرورًا، فالله قد بسط له هذه الحالة، فإذا جاء العبد المؤمن بمعصية؛ فتراه في ضيق وكآبة.

وهذا الضيق هو: القبض منه ﷻ، وهي محنة عاجلة موصلة إلى جوده، ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾[التوبة:١١٨].

فالانشراح والإقبال على الله هو: البسط، وهو من الباسط ﷻ .

والضيق والرجوع عن الطاعة أو عدم التلذذ بالطاعة هو: القبض، وهو من القابض ﷻ، فربما قبضته الذنوب ظاهرةً أو خفيةً كأمراض القلوب.

قال ﷺ: «إذا أذنب العبدُ نُكِتَ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِنَّ تاب صُقِلَ مِنْهَا، فَإِنْ عاد عَادَتْ حَتَّى تَعْظُمَ فِي قَلْبِهِ؛ فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾[المطففين:١٤]» . [رواه ابن حبان. وصححه شعيب الأرناؤوط].

فالمؤمن حاله بين قبضٍ وبسطٍ؛ لذا يسأل الله دائمًا الثبات وحسن الخاتمة، وكان من دعاء النبي ﷺ: «يَا مُقَلِّبَ القُلُوْبِ! ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»[حديث صحيح. رواه الترمذي] فهذا حال المؤمن مع ربه، فكيف حال من أصر على المعاصي؟!

أعظم البسط:

لذلك قال العلماء: إن أعظم البسط: بسط الرحمة على القلوب؛ حتى تستضيء، وتخرج من وضر الذنوب، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[الزمر:٢٢]، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[الأنعام:١٢٥].

وضده: المذكور في قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[الأنعام:١٢٥].

ولما قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ

لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ [سبأ:٣٦]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾﴾ [الإسراء:٣٠]؛ أخبر: أن القبض والبسط كله بيده ﷻ؛ بتصريفه وتسديده، يبسط لمن يشاء في ماله أو عافيته أو عمره أو علمه ويقبض، وهو الحكيم الخبير، وما تراه من فتح على أعداء الله فليس بسطًا وإنما هو: مكر بهم واستدراج لهم.

فالمؤمن قد يمنع من شيء وهو له عطاء، وقد يعطى شيئًا وهو له بلاء، ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة:٢١٦].

❑ ذكرى..

وإن كان الله ﷻ هو: القابض الباسط الخافض الرافع -قدرًا وقضاءً-؛ فلا يمنع أن تكون هذه الأمور بأسباب من العباد؛ متى ما قاموا بها حصلت لهم، وقد جمع بين هذين الأمرين بقوله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ» [أخرجه البخاري ومسلم].

فبسط الرزق بيد الله، وصلة الرحم سبب يبذله العبد.

❑ همسة..

ثم إن من امتن الله عليه ببسط في مال أو علم أو جسم أو جاه؛ فليتقرب إلى الله بالتفضل على عباد الله؛ كما تفضل الله عليه وأحسن به،

فهذا من شكر المنعم، وبه تدوم النعم، فمن لم يجد فليخالق الناس بخلق حسن: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤﴾[آل عمران:١٣٤].

اللهم يا قابض.. يا باسط! ابسط لنا من رحماتك، واصرف عنا شرار خلقك.

اللهم! ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك.

(٨٩ ، ٩٠)

ٱلْمُقَدِّمُ ٱلْمُؤَخِّرُ جل جلاله

يقول ابن القيم رحمه الله: "فالعبد سائر لا واقف؛ فإما إلى فوق وإما إلى أسفل، إما إلى أمام وإما إلى وراء.

وليس في الطبيعة ولا في الشريعة وقوف البتة، ما هو إلا مراحل تطوى أسرع طي إلى الجنة أو النار؛ فمسرع ومبطئ، ومتقدم ومتأخر.

وليس في الطريق واقف البتة، وإنما يتخالفون في جهة المسير، وفي السرعة والبطء، ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾[المدثر:٣٥-٣٧]، ولم يذكر واقفاً، إذ لا منزل بين الجنة والنار، ولا طريق لسالك إلى غير الدارين البتة.

فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة".

والتقدم والتأخر بيد الله عز وجل، فكان من أسماء الله الحسنى: (المقدم والمؤخر جل وعلا).

جاء في «الصحيحين» عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان من دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم

إذا قام من الليل: «فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ -أَوْ: لاَ إِلَهَ غَيْرُكَ-».

فربنا هو: المقدم والمؤخر ﷻ، منزل للأشياء منازلها، يقدم ما شاء منها ويؤخر ما شاء.

قدّم المقادير قبل أن يخلق الخلق.

وقدَّم من أحب من أوليائه على غيرهم من عباده، ورفع الخلق بعضهم فوق بعض درجات.

وقدَّم من شاء بالتوفيق إلى مقامات السابقين، وأخر من شاء عن مراتبهم وثبطهم عنها، وأخر الشيء عن حين توقعه لعلمه بما في عواقبه من الحكمة؛ لا مقدم لما أخر ولا مؤخر لما قدم.

وربنا ﷻ يقدِّم من يشاء من خلقه إلى رحمته بتوفيقه، ويؤخر من يشاء عن ذلك لخذلانه.

والجمع بين الاسمين فيه: أدب وزيادة حسن؛ لأن الكمال في اقترانهما.

وَهُوَ الْمُقَدِّمُ وَالْمُؤَخِّرُ ذَانِكَ ... الصِّفَتَانِ لِلأَفْعَالِ تَابِعَتَانِ

وَهُمَا صِفَاتُ الذَّاتِ أَيْضًا إِذْ هُمَا ... بِالذَّاتِ لاَ بِالْغَيْرِ قَائِمَتَانِ

□ والتقديم والتأخير..

كوني، وشرعي:

فمثال الكوني: تقديم الله ﷻ بعضًا من مخلوقاته على بعض في

الخلق والإيجاد، ففي الحديث: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ: القَلَمَ»[حديث صحيح. رواه أبو داود] وخلق السماوات والأرض في ستة أيام، وقدم خلق الملائكة على خلق الجن والإنس، وقدم خلق الجن على خلق الإنس: ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾[الحجر:٢٧]، وأول البشر خلقًا: آدم عليه السلام، ثم تتابع بنوه في الخلق والوجود، فمنهم المتقدم، ومنهم المتأخر.

ولا يلزم من هذا: أن يكون المتقدم أفضل من المتأخر؛ فآدم خلق في آخر الأيام الستة، وله فضل هو وبنوه على كثير ممن تقدمهم في الخلق: ﴿۞ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾[الإسراء: ٧٠].

ومحمد صلى الله عليه وسلم آخر الرسل، وهو أفضل الرسل، وأمته آخر الأمم، وهي أفضل الأمم.

وقد يكون المتقدم أفضل من المتأخر؛ فأبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام أفضل من كل الأنبياء والرسل من بعده؛ باستثناء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

وأما التقديم والتأخير الشرعي الديني: فقد قدم الأذان على الصلاة، وخطبة الجمعة على صلاة الجمعة، وللعبادات ترتيب خاص في الشروط والواجبات قد لا تصح العبادة دونها.

ومن التقديم الشرعي الديني: تفضيل بعض العبادات على بعض، وبعض العباد على بعض؛ فالفرائض أحب إلى الله من النوافل، وأفضل

البشر: الأنبياء والرسل، وهم متفاضلون فيما بينهم، ومن عداهم كذلك؛ منهم: المقدم، ومنهم: المؤخر.

والعبد المؤمن متى علم أن الله المقدم والمؤخر جل جلاله؛ تعلق قلبه بالله وحده، وطلب منه الإيمان والثبات، وتوكل عليه؛ لأنه سبحانه وتعالى لا مقدم لما أخر، ولا مؤخر لما قدم.

التقدم الحقيقي:

ثم إن التقدم الحقيقي النافع هو: التقدم إلى طاعة الله عز وجل وجنته ومرضاته، والتأخر عن ذلك هو: التأخر المذموم؛ لأن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾[آل عمران:١٣٣]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[الحديد:٢١].

وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «تَقَدَّمُوا؛ فَأْتَمُّوا بِي، وَلْيَأْتَمَّ بِكُمْ مَنْ بَعْدَكُمْ، لا يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ حَتَّى يُؤَخِّرَهُمُ اللهُ!»[أخرجه مسلم].

وأما التقدم والتأخر في الدنيا؛ فليس بمقياس عند الله عز وجل، وليس بنافع.

ثم إن من دلالة الإيمان: تقديم من قدمه الله عز وجل، وتأخير من أخره الله عز وجل، وبذلك يكون ميزان التقديم والتأخير، والحب والبغض، والولاء والبراء. هو ميزان الله، فالله عز وجل قال: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن

نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٢١﴾ [الجاثية:٢١].

اللهم يا مقدم ويا مؤخر! نسألك: أن تغفر لنا، وتدخلنا جنتك، وتجيرنا من نارك.

(٩١)

الحَيِيُّ جل جلاله

رأى رسول الله ﷺ رجلاً يغتسل بالبراز بلا إزار -يعني الفضاء الواسع من الأرض- فكره النبي ﷺ فعله فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ، يُحِبُّ الحَيَاءَ وَالسَّتْرَ؛ فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ»[حديث صحيح. رواه أبو داود].

فربنا سبحانه وتعالى هو الحيي، الموصوف بكمال الحياء، الذي يليق بكماله وجلاله وعلوه؛ ليس كحياء المخلوقين، الذي هو: تغير وانكسار.

حياء الرب جل وعلا نوع آخر، لا تدركه الأفهام، ولا تكيفه العقول؛ فإنه حياء كرم وبر وجود وجلال.

فمن جلال الله سبحانه وتعالى: أن حياءه هو: ترك ما ليس يتناسب مع سعة رحمته وكمال جوده وكرمه وعظيم عفوه وحلمه، ومن ذلك: أنه يستحي أن يرد عبده إذا رفع يديه إليه بالدعاء.

قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ

يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ» [حديث صحيح. رواه الترمذي].

ومن جلاله ﷻ: أنه -مع كمال غناه، وتمام قدرته- يستحي من هتك ستر العبد وفضحه.

وَهُوَ الحَيِيُّ فَلَيْسَ يَفْضَحُ عَبْدَهُ ... عِنْدَ التَّجَاهُرِ مِنْهُ بِالعِصْيَانِ
لَكِنَّهُ يُلْقِي عَلَيْهِ سِتْرَهُ ... فَهُوَ السِّتِّيرُ وَصَاحِبُ الغُفْرَانِ

ومن عدل الله: أنه لا يستحي من الحق، قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] وعلى قدر المشاهدة لله تكون قوة الحياء في قلب المؤمن.

□ حقيقة:

ومن زاد إيمانه زاد حياؤه؛ ولذا كان الأنبياء من أشد الناس حياءً، وقد وصف النبي ﷺ بأنه: "أشد حياءً من العذراء في خدرها".

والحياء جزء من أجزاء الإيمان، جاء عنه ﷺ أنه قال: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، وَالحَيَاءُ: شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ» [أخرجه البخاري ومسلم].

وأعظم الحياء وأحبه: الحياء من الله ﷻ.

ولما قال النبي ﷺ لأصحابه: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ»، قالوا: يا رسول الله! إنا نستحيي؛ والحمد لله! قال: «لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنْ مَنِ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ؛ فَلْيَحْفَظِ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَلْيَحْفَظِ البَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْيَذْكُرِ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا.

فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ» [حديث حسن. رواه

الترمذي].

قال ابن القيم: "من استحى من الله عند معصيته؛ استحى الله من عقوبته يوم يلقاه، ومن لم يستحِ من معصيته؛ لم يستحِ الله من عقوبته".

▢ ما أجمل الحياء!

وهو لا يأتي إلا بالخير، مر رسول الله ﷺ على رجل يعاتب آخر في حيائه: إنك لتستحيي! حتى كأنه يقول: قد أضر بك! فقال له ﷺ: «دَعْهُ! فَإِنَّ الحَيَاءَ مِنَ الإِيمَانِ»[رواه الشيخان].

الحياء: دليل على المروءة، وعنوان على الشهامة، وآية على حسن الخلق.

الحياء: استشعار لعظمة الله، واستحضار لهيبته، ومراقبة لجلاله جل وعلا.

قال بعض السلف: علمت أن الله مطلع علي؛ فاستحييت أن يراني على معصية.

وَإِذَا خَلَوْتَ بِرِيبَةٍ فِي ظُلْمَةٍ ... وَالنَّفْسُ دَاعِيَةٌ إِلَى العِصْيَانِ
فَاسْتَحِيِي مِنْ نَظَرِ الإِلَهِ وَقُلْ لَهَا ... إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الظَّلَامَ يَرَانِي

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "من قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه".

قال ابن دقيق العيد رحمه الله: "إن الحياء لم يزل ممدوحًا مستحسنًا مأمورًا به، لم ينسخ في شرائع الأنبياء الأولين".

❑ وأخيراً..

حين وصف الله ﷻ نساء الجنة قال: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرحمن:٥٦]، أي: لاينظرن إلا إلى أزواجهن، ثم وصف حسنهن وجمالهن: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ [الرحمن:٥٨]، قدم صفة العفة والحياء على صفة الحسن والجمال، فلا قيمة لجمال المرأة بلا عفاف وحياء.

قيل: من عقوبات المعاصي: ذهاب الحياء وصفاء الوجه، يقول الرسول ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»[أخرجه البخاري] .

إِذَا لَـمْ تَخْـشَ عَاقِبَـةَ اللَّيَـالِي ... وَلَمْ تَسْتَحِي فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ
يَعِيشُ المَرْءُ مَا اسْتَحْيَا بِخَيرٍ ... وَيَبْقَى العُودُ مَا بَقِيَ اللِّحَاءُ

وتذكر أن من أبغض الناس إلى الله: من بات عاصياً والله يستره، ثم يصبح يكشف ستر الله عليه.

اللهم! ارزقنا الحياء منك، ووفقنا لتحقيق خشيتك في الغيب والشهادة والسر والعلانية.

(٩٢)
الدَّيَّانُ جل جلاله

جاء رجل وقعد بين يدي النبي ﷺ؛ فقال: يا رسول الله! إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟

قال: «يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَكَذَّبُوكَ وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ؛ فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا؛ لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ؛ كَانَ فَضْلاً لَكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ؛ اقْتُصَّ لَهُمْ مِنْكَ الفَضْلُ»، فتنحى الرجل، فجعل يبكي ويهتف.

فقال رسول الله ﷺ: «أَمَا تَقْرَأُ كِتَابَ اللهِ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]؟».

فقال الرجل: والله يا رسول الله! ما أجد لي ولهم شيئًا خيرًا من

مفارقتهم! أشهدك أنهم أحرار كلهم.[حديث صحيح. رواه الترمذي] .

أَمَـا وَاللّٰهِ لَـوْ عَـرفَ الأَنَـامُ　　لِـمَا خُلِقُـوْا لَـمَا غَفَلُـوْا وَنَـامُوْا

لَقَـدْ خُلِقُـوْا لِـمَا لَـوْ أَبْصَرَتْهُ　　عُيُـوْنُ قُلُـوْبِهُمْ سَـاحُوْا وَهَـامُوْا

جاء في «مسند الإمام أحمد» من حديث جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَحْشُرُ اللهُ العِبادَ، فَيُنَادِي بِصوْتٍ يَسْمَعُه مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُه مَنْ قَرُبَ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا الدَّيَّان، لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجنَّةِ حَقٌّ؛ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، وَلا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الجنَّةَ وَلأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ؛ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ حَتَّى اللَّطْمَةَ»[صحيح].

فربنا ﷻ -الذي استوى على عرشه فوق ملكه- قد دانت له كل الخليقة، وعنت له الوجوه، وذلت لعظمته الجبابرة وكل البرية، فهو ﷻ الذي قهر كل المخلوقات، ودانت له ﷻ جميع الكائنات؛ فنواصي العباد كلها بيده، وتصاريف الملك وتدبيراته بيده، والملك بيده، لا حاكم إلا هو، ولا رب غيره، ولا إله سواه.

وربنا سبحانه وتعالى الديان؛ الذي يحاسب ويجازي العباد، ويحكم بينهم يوم الميعاد؛ كما قال تبارك وتعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾[الفاتحة:٤]، ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ

أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ [الأنبياء:٤٧].

فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه؛ ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٣٠﴾ [آل عمران:٣٠].

❑ تأمل العواقب!

والله العدل؛ فيقتص للمظلوم من الظالم، ومن السيد لعبده، وكذلك من البهائم، قال ﷺ: «يُحْشَرُ الخَلْقُ كُلُّهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ: البَهَائِمُ، وَالدَّوَابُّ، وَالطَّيْرُ، وَكُلُّ شَيْءٍ، فَيَبْلُغُ مِنْ عَدْلِ اللهِ: أَنْ يَأْخُذَ لِلْجَمَّاءِ مِنَ القَرْنَاءِ» [حديث صحيح. رواه الحاكم في «المستدرك»]، وفي لفظ: «وَحَتَّى الذَّرَّةَ مِنَ الذَّرَّةِ» [حديث صحيح. رواه أحمد في «المسند»].

إذا علمت بأنك ستلقى الديان يوم القيامة؛ يوم الجزاء والحساب، وأن الله لا يظلم مثقال ذرة، وأن ما بين الناس مبني على المشاحة، وأن ما بين العبد وربه مبني على المسامحة، والحساب بـ (الحسنات والسيئات)؛ فكيف توزع حسناتك، وتأخذ سيئات غيرك، وأنت تعلم أنك ستحاسب لا محالة؟!

فكن كيِّسًا، وحاسب نفسك قبل أن تحاسب؛ وكما قيل: الكيس: من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز: من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله

الأماني!

ولما سأل رسول الله ﷺ أصحابه رضي الله عنهم قائلاً: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟».

قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.

فقال: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا؛ فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنَّ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ؛ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ؛ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[أخرجه مسلم].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر"، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾[الحاقة:١٨].

تَذَكَّرْ يَوْمَ تَأْتِي اللهَ فَرْدًا	وَقَدْ نُصِبَتْ مَوَازِينُ القَضَاءِ
وَهُتِّكَتِ السُّتُورُ عَنِ المَعَاصِي	وَجَاءَ الذَّنْبُ مُنْكَشِفَ الغِطَاءِ

وتذكر قول أبي الدرداء رضي الله عنه: "البر لا يبلى، والإثم لا ينسى، والديان لا ينام، فكن كما شئت! كما تدين تدان".

وَإِنْ كُنْتَ مَظْلُوْمًا فَأَبْشِرْ بِالدَّيَّانِ، فهذا الاسم تسلية لكل مظلوم ومقهور:

أَمَــا وَاللّهِ إِنَّ الظُّلْــمَ شُــؤْمٌ وَمَـا زَالَ الْمُسِيْءُ هُـوَ الظَّلُـوْمُ

إِلَـى دَيَّـانِ يَـوْمِ الـدِّينِ نَمْضِي وَعِنْـدَ اللّهِ تَجْتَمِـعُ الخُـصُوْمُ

اللهم! إنا نسألك يا ديان: أن تمن علينا بمغفرة من عندك، وأن ترحمنا يوم العرض عليك.

(٩٣)

المَنَّانُ جل جلاله

مِنَن الله تبارك وتعالى لا تعد ولا تحصى! فكم من بلوى رفعها! وكم من مرض شفانا منه! وكم من حزن جبره؟ وكم من هم فرجه؟

وإن أعظم مِنَّةٍ يرجوها العبد في آخرته: مغفرة ذنوبه، وإن مغفرته تنال بالإيمان والعمل الصالح؛ وإن قل.

فهذا الأصيرم عمرو بن ثابت يسلم يوم أحد، ويقتل يومها، وما صلى صلاةً واحدةً، فذكروه للنبي ﷺ؛ فقال: «إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الجنَّةِ»[حديث صحيح. رواه أحمد في «المسند»، وقال الهيثمي في «المجمع»: "رجاله ثقات"].

والرجل الذي قتل مئة نفس؛ اطلع الله عز وجل على صدق توبته؛ فغفر له.

ثم إن أعظم مِنَّةٍ على العبد في هذه الحياة هي: الهداية: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧﴾[الحجرات:١٧].

وإن من أسماء الله التي أثنى بها على نفسه: (المنان جل وعلا).

جاء في «السنن» عن أنس رضي الله عنه: أنه كان جالسًا مع رسول الله ﷺ،

ورجل يصلي، ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام.. يا حي.. يا قيوم!

فقال النبي ﷺ: «دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى»[حديث صحيح].

فربنا تبارك وتعالى عظيم الهبات والعطايا والإحسان، فهو سبحانه وتعالى يبدأ بالنوال قبل السؤال، وهو المعطي ابتداءً وانتهاءً، ويعطي فوق الآمال والرجاء.

فلما كان المنُّ منه بالجود والعطاء على جميع عباده؛ كانت له المنة عليهم، ولا منة عليه من أحد، ومن أعظم هباته: أنه أعطى الحياة والعقل والمنطق، وصور فأحسن، وأنعم فأجزل.

ومن أعظمِ مِننه جل وعلا على عباده أجمعين: أنه أرسل الرسل إليهم مبشرين ومنذرين؛ فأنقذ بمنه أولياءه المؤمنين، وهداهم إلى الصراط المستقيم، وعصمهم من الجحيم..

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾[آل عمران:١٦٤]، ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾[الحجرات:١٧].

ومن مِننه: أنه ينجي المستضعفين في كل زمان من المتكبرين

والمفسدين، فينعم عليهم بالأمن والتمكين: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ٥﴾ [القصص:٥].

السعداء:

والله ﷻ أحق من شكر، وأحق من عبد، فنعيمه للمؤمنين دائم متواصل إلى دخول الجنة، فنعيم الله لأوليائه في الدنيا: الهداية والحفظ، وفي الآخرة: النجاة من النار، ودخول الجنة، والنظر إلى وجهه الكريم، قال ﷻ: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ [الطور: ٢٦-٢٨].

دأب المؤمنين..

والمؤمن إذا رأى مِنن الله ﷻ عليه؛ ذهل قلبه، وطابت نفسه، وصار عبداً فقيراً إلى مولاه، مثنياً عليه وحده ﷻ، وهذا أعظم باب يدخل منه العبد على ربه، وهو: باب الذل والانكسار بين يديه؛ داعياً وراجياً ومنادياً: يا منان!

وهنا؛ تتحقق الأماني، ويعطى السائل، ويغفر للمذنب، ويفرج الهم، ويكشف الغم، ويفك الأسير، ويشفى المريض، ويعود الغائب، ويجاب للمضطر: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢﴾ [النمل:٦٢].

ومهما اختفى من حياتك أمور ظننت أنها سبب سعادتك تأكد أن

الله صرفها عنك قبل أن تكون سببًا في تعاستك.

لا تمنن!

وإذا كان الله ﷻ قد امتدح نفسه بمنته على عباده؛ فقد ذم الذين يمنون على الله أو على عباد الله؛ بما أنفقوه من أموالهم، وبما قدموه من أعمالهم؛ فقال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾[الحجرات:١٧].

وحذرنا ربنا ﷻ من أن نمن بما نقدمه؛ فذلك مبطل للصدقة والأجر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ﴾[البقرة:٢٦٤].

وحذرنا رسول الله ﷺ من المن، فقال ﷺ: «ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيامَةِ: المَنَّانُ؛ الَّذِي لا يُعْطِي شَيْئًا إِلاَّ مِنَّةً، وَالمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالحلِفِ الفَاجِرِ، وَالمُسْبِلُ إِزَارَهُ»[أخرجه مسلم].

وصح عنه ﷺ أنه قال: «لا يَدْخُلُ الجنَّةَ: مَنَّانٌ، ولا عَاقٌّ، ولا مُدمِنُ خَمْرٍ»[حديث صحيح. رواه النسائي].

أَفْسَدْتَ بِالمَنِّ مَا أُوْلِيْتَ مِنْ نِعَمٍ ... لَيْسَ الكَرِيمُ إِذَا أَسْدَى بِمَنَّانِ

ولذا؛ كان أهل الصلاح يتواصون بينهم بقولهم: إذا أعطيت رجلاً شيئًا، ورأيت أن سلامك يثقل عليه؛ فكف سلامك عنه.

وأهل المكارم إذا اصطنعوا صنيعةً لأحد نسوها، وإذا أسدى إليهم أحد معروفًا فلا ينسونه أبدًا.

وَمَا تَخْفَى المَكَارِمُ حَيْثُ كَانَتْ

وَلاَ أَهْلُ المَكَارِمِ حَيْثُ كَانُوْا

اللهم يا منان! امنن علينا بصلاح حالنا وصلاح ذريتنا، وأحسن لنا الخاتمة.

(٩٤)

الجَوَادُ جل جلاله

إذا حاصرتك الحاجات، وداهمتك الخطوب، والتَفَّت من حولك الهموم، وكثرت الديون، وضاق الرزق، فعليك أن تتجه إلى الجواد، فارج الهم، وكاشف الغمِّ، ومستجيب دعوة المضطر.

جاء عند الترمذي: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ جَوَادٌ يُحِبُّ الجُودَ»[حديث صحيح].

قال الشيخ السعدي رحمه الله: "الجواد، يعني: أنه سبحانه وتعالى الجواد المطلق؛ الذي عم بجوده جميع الكائنات، وملأها من فضله وكرمه ونعمه المتنوعة.

وخصَّ بجوده السائلين بلسان المقال أو لسان الحال؛ من بر وفاجر، ومسلم وكافر، فمن سأل الله أعطاه سؤاله، وأناله ما طلب؛ فإنه بر رحيم سبحانه وتعالى، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ﴾ [النحل: ٥٣]".

❑ فمن أعظم من ربنا جودًا وكرمًا؟!

الخلائق له عاصون.. يكلؤهم في مضاجعهم كأن لم يعصوه..

يحفظهم كأن لم يذنبوا.. يتفضل على المسيء ويمهل المذنب، ويرحم التائب.

هو الغني عن جميع العباد؛ ومع هذا يتحبب إليهم بالنعم والجود والكرم والإمهال.

والله ﷻ خزائنه ملأى؛ لا ينقصها نفقة، صح عنه ﷺ أنه قال: «يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ»[أخرجه البخاري -وهذا لفظه-، ومسلم].

سحاء: دائمة الصب.

والغيض: النقص.

يحب من يؤمله من العباد، ويحب من يرجوه ويسأله؛ لكي يزيدهم من فضله ونعمه، حتى أنه من كرمه: يغضب على من لا يسأله، فعند الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»[حديث حسن]، وفي الحديث الآخر عنه ﷺ أنه قال: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنَ الدُّعَاءِ»[حديث حسن. رواه الترمذي] .

وَهُوَ الجَوَادُ فَجُودُهُ عَمَّ الوُجُودْ ... جَمِيعَهُ بِالْفَضْلِ وَالإِحْسَانِ
وَهُوَ الجَوَادُ فَلا يُخَيِّبُ سَائِلاً ... وَلَوْ أَنَّهُ مِنْ أُمَّةِ الكُفْرَانِ

والعبد المؤمن الموقن هو: من يتصف بصفة الجود، ويطمع بفضل الله

وجوده وكرمه، ويعلم أن الله الجواد سيجود عليه من فضله وبركاته وإحسانه أضعافًا مضاعفةً، ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝١١﴾ [الحديد:١١]، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم:٦]، فهو ينفق تقربًا إلى الله.

ونبينا ﷺ أجود الخلق جميعًا؛ فهو أجود الناس بالخير، وكان أجود من الخيل المرسلة، وكان أجود ما يكون في رمضان.

وفي «صحيح مسلم»: "ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، قال: فجاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه؛ فقال: يا قوم! أسلموا، فإن محمدًا يعطي عطاءً لا يخشى الفاقة!"، وما سئل شيئًا قط فقال: لا.

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً ... كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

❐ **قيل:**

الجود: يغطي كل عيب.

تَسَتَّرْ بِالسَّخَاءِ فَكُلُّ عَيْبٍ ... يُغَطِّيهِ كَمَا قِيلَ السَّخَاءُ

والجواد: يسود الناس بجوده.

لَوْلاَ الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسَ كُلَّهُمُ ... الْجُودُ يُفْقِرُ وَالإِقْدَامُ قَتَّالُ

اللهم يا جواد! جد علينا من بركاتك.

(٩٥)

الرَّفِيقُ جل جلاله

جاء في «الصحيحين»: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ؛ فقالوا: السام عليكم! قالت عائشة: ففهمتها؛ فقلت: وعليكم السام واللعنة! قالت: فقال رسول الله ﷺ: «مَهْلاً يَا عَائِشَةُ! إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّهِ»، فقلت: يا رسول الله! أولم تسمع ما قالوا؟

قال رسول الله ﷺ: «قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ»[هذا لفظ البخاري].

صَفُوحٌ عَنِ الإِجْرَامِ حَتَّى كَأَنَّهُ
مِنَ العَفْوِ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ النَّاسِ مُجْرِمًا

واهب نبينا هذا الخلق العظيم هو: الله الرفيق سبحانه وتعالى؛ الذي يرفع الأسى، ويشفي المريض، ويكشف البلاء، ويرجع الغائب، ويفك الأسير، ويجبر الكسير.

صح عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ»[أخرجه البخاري ومسلم].

ربنا عز وجل رفيق في قدره وقضائه وأفعاله.

ربنا عز وجل رفيق في أوامره وأحكامه ودينه وشرعه.

ومن رفقه في أفعاله: أنه تبارك وتعالى خلق المخلوقات كلها بالتدرج شيئًا فشيئًا؛ بحسب حكمته ورفقه، مع أنه قادر على خلقها دفعةً واحدةً، وفي لحظة واحدة.

وربنا عز وجل رفيق في شرعه: في أمره ونهيه؛ فلا يكلف العباد ما لا يطيقون، ولم يأخذ عباده بالتكاليف الشاقة، بل جعل لهم الرخصة فيها؛ رفقًا بهم ورحمةً، ولم يأخذ عباده بالتكاليف دفعةً واحدةً، بل تدرج بهم من حال إلى حال؛ حتى تألف النفوس وتلين الطباع.

ومن رفقه تبارك وتعالى: إمهاله لصاحب الذنب، وعدم معاجلته بالعقوبة، لينيب إلى الله ويعود إليه.

ومن رفقه سبحانه وتعالى: أنه يسر أسباب الخير كلها، وهو المتفضل بها، وأعظمها تيسيرًا: تيسير حفظ كتابه وفهمه، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾[القمر:١٧].

وَهُوَ الرَّفِيقُ يُحِبُّ أَهْلَ الرِّفْقِ بَلْ
يُعْطِيهِمُ بِالرِّفْقِ فَوْقَ أَمَانِ

❑ الرفقاء:

ومن علم أن الله رفيق ازداد حبًّا لله، وازداد إجلالاً وحمدًا وشكرًا، والله يحب أسماءه ويحب المتصفين بها -عدا ما بغضه لعباده منها-، فالله رحيم

يحب الرحماء، كريم يحب الكرماء، رفيق يحب الرفقاء.

وأولى الناس بهذا الخلق: الأنبياء، وعلى رأسهم: محمد ﷺ، فقد كانت حياته ﷺ مع الناس يملؤها الرفق، ما غضب لنفسه قط، ولا ضاق صدره بضعفهم البشري، ولا احتجز لنفسه شيئًا من أعراض هذه الدنيا، بل أعطاهم كل ما ملكت يداه؛ في سماحة ندية، ووسعهم حلمه وبره، وعطفه ووده الكريم، وما من امرئ جالسه إلا امتلأ قلبه بحبه؛ وذلك لرفقه وكرمه ﷺ.

يأتي الأعرابي يبول في ناحية المسجد؛ فيقوم أصحاب رسول الله ﷺ وهم يقولون: مه مه! فقال لهم رسول الله ﷺ: «لاَ تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ!».

فلما انتهى؛ دعاه رسول الله ﷺ؛ فقال له: «إِنَّ هَذِهِ المَسَاجِدَ لاَ تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا البَوْلِ، وَلاَ القَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ ﷻ، وَالصَّلاَةِ وَقِرَاءَةِ القُرْآنِ»[أخرجه مسلم].

وإن الله رفيق يحب أهل الرفق، صح عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَيْهِ مَا لاَ يُعْطِي عَلَى العُنْفِ»[رواه مسلم].

وأولى الناس بهذه الصفة بعد الأنبياء هم: الملوك والمسؤولون، والدالون على الله من أهل الدعوة والعلم، وكذلك الآباء، فالناس لديهم من الهموم ما يكفيهم، وهم بحاجة إلى من يواسيهم لا من يعنفهم، يحتاجون إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم..

فالناس أشد حاجة إلى الرفق من حاجتهم إلى العطاء مع الغلظة،

وأولى الناس بالرفق: نفسك، ثم والداك والزوجة والأبناء والرعية والعاملون معك وصحبك.

حظك منه..

وصح عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ؛ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الخُلُقِ وَحُسْنُ الجِوَارِ يَعْمُرَانِ الدِّيَارَ، وَيَزِيدَانِ فِي الأَعْمَارِ»[حديث صحيح. رواه أحمد في «المسند»].

وصح عنه ﷺ أنه قال: «إِذَا أَرَادَ اللهُ ﷻ بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْرًا: أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرِّفْقَ»[حديث صحيح. رواه أحمد في «المسند»].

وقال ﷺ: «إِنَّ الرِّفْقَ لاَ يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلاَّ زَانَهُ، وَلاَ يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ شَانَهُ»[أخرجه مسلم].

ولذا؛ أبغض الخلق عند الخلق: الفظ الغليظ؛ فالله ﷻ قال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران:١٥٩]، وقال ﷺ: «مَنْ حُرِمَ الرِّفْقَ حُرِمَ الخَيْرَ» أو «مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخَيْرَ»[أخرجه مسلم].

اللهم! إنا نسألك باسمك الرفيق: أن ترفق بنا، وتيسر لنا الخير كله.

(٩٦)

السَّيِّدُ جل جلاله

جاء في «سنن أبي داود» عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ: فقلنا: أنت سيدنا، فقال: «السَّيِّدُ اللهُ تبارك وتعالى».

قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلاَ يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ»[حديث صحيح].

«يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ» أي: لا يغلبنكم الشيطان.

وفي اللغة: السَّيِّد: الذي فاق غيره بالحلم والمال والرفعة والنفع، والمعطي ماله في حقوقه، ويطلق السيد على: من لا يغلبه غضبه، ويطلق على: الكريم والملك والرئيس.

وسيد العبد: مولاه، وسيد المرأة: زوجها، قال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾[يوسف: ٢٥].

والسؤدد: الشرف، وسيد كل شيء: أشرفه وأرفعه.

فمن الذي كمل في سؤدده غير الله عز وجل؟!

في ظلال اسم السيد:

فربنا سبحانه وتعالى هو السَّيِّد؛ الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته.

فاللّه تبارك وتعالى السَّيِّد الذي كمل في أنواع الشرف والسؤدد.

هذه صفاته سبحانه وتعالى التي لا يشاركه فيها أحد، ولا ينازعه فيها مخلوق.

وَهُوَ الإِلَـهُ السَّيِّدُ الصَّمَدُ الَّذِي
صَمَدَتْ إِلَيْهِ الخَلْقُ بِالإِذْعَانِ
الكَامِلُ الأَوْصَافِ مِنْ كُلِّ الوُجُوهْ
كَمَالُهُ مَا فِيهِ مِنْ نُقْصَانِ

الخلق كلهم عبيد له تبارك وتعالى، كلهم محتاجون إليه؛ الملائكة والإنس والجن ليسوا في غنىً عنه؛ فهم الفقراء إلى كرمه ولطفه ورعايته، فكان حقًّا له جل جلاله أن يكون سيداً، وكان حقًّا عليهم أن يدعوه بهذا الاسم.

ربنا سبحانه وتعالى السَّيِّد المتصرف في الكون؛ لا ند له.

وهو تبارك وتعالى السَّيِّد الذي ينبغي أن تصرف له وحده الطاعة والذل والخضوع، لا شريك له.

فهو السَّيِّد المعبود؛ لا شريك له: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الأنعام:١٦٤].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: "إلهًا سيِّدًا".

فكر خاطئ!

قد يعطى الإنسان أموالاً، وقد يرزق عيالاً، ويوهب جاهًا، أو ينال منصبًا ومركزًا كريمًا، أو زعامةً عريضةً، أو رياسةً مكينةً، قد يحف به الخدم، ويحيط به الجند، وتحرسه الجيوش، وترضخ له الناس، وتذل له الرؤوس، وتدين له الشعوب؛ فيبلغ من سؤدد هذه الدنيا مبلغًا عظيمًا؛ لكنه سؤدد ناقص زائل.

خَدَعَتْهُمُ الأَحْلامُ فِي سِنَةِ الكَرَى
مَا أَكْذَبَ الأَحْلامَ وَالتَّأْوِيلا!

ومن آمن بأن الله هو: السيد الحقيقي؛ تعلق قلبه به وحده تبارك وتعالى؛ تعلق خوف ورجاء واستعانة وتوكل؛ لأنه المتصرف في شؤون العباد، وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، والعباد جميعًا فقراء إليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر:١٥]، فلا يذل ولا يخضع إلا لله الواحد القهار السيد الصمد.

يا سادة!

أركان السؤدد في الخلق: الكرامة، والشرف، والرفعة، وعلو الذكر،

وهذه لا تكون إلا في طاعة الله ﷻ؛ ولذلك ساد الأنبياء والأولياء، وكانوا شامةً بين الناس.

وأما من ابتعد عن الله وكفر به؛ فلا كرامة له ولا سيادة، وإن حصلت لهم السيادة الدنيوية فهي زائفة ومؤقتة.

ولذا؛ جاء النهي عن تسمية المنافق بالسيد، روى أبو داود عنه عليه السلام أنه قال: «لاَ تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ: سَيِّدٌ، فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدًا فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ ﷻ» [حديث صحيح].

❐ حمى السيد :

وإطلاق (السيد) على المخلوق: جائز؛ لقوله ﷻ عن يحيى عليه السلام: ﴿وَسَيِّدًا﴾[آل عمران:٣٩]، وجاء في حديث الشفاعة: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يوم القِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ»[رواه مسلم]، وقوله ﷺ في سعد بن معاذ: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ»[رواه البخاري].

ولا تعارض بينهما وبين رواية: «السَّيِّدُ اللَّهُ»[حديث صحيح. رواه أبو داود]؛ لأن سيد الخلق عند المؤمنين يقصد بها: الرئاسة والإمامة.

والعرب تقول: فلان سيدنا؛ أي: رئيسنا والذي نعظمه.

وأما وصفُ الله ﷻ بالسَّيِّد فمعناه: أنه مالك الخلق، والخلق كلهم عبيده.

ونهي النبي ﷺ عنه لما قيل له: أنت سيدنا، قال: «السَّيِّدُ اللَّهُ، قُولُوا

بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ»[حديث صحيح. رواه أبو داود]، فيه: دليل على: حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد، وصيانته لجنابه، وسد طرق الشرك.

وكره ﷺ أن يمدح في وجهه، مع أنهم لم يقولوا إلا حقًّا، فهو القائل: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ»[أخرجه مسلم] وخوفًا عليهم من انصراف القلب إلى نوع من التعلق بالمخلوقين والذل لهم والانكسار؛ الذي لا يحل ولا يجوز صرفه إلا لله الواحد القهار.

اللهم إنا نسألك باسمك السيد؛ أن ترفع ذكرنا، وتضع وزرنا؛ فأنت على كل شيء قدير.

(٩٧)
بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جل جلاله

"إنني متأثر جداً باكتشاف الحقيقة في القرآن الكريم!

إن هذا القرآن الكريم يصف الكون من أعلى نقطة في الوجود.

كما رأينا؛ لا يمكن أن يكون من مصدر بشري، لقد عرفت -بعد أن قرأت القرآن الكريم- مستقبلي، إنني سأخطط أبحاثي على هذه النظرة الشاملة". [بروفيسور: يوشيدي كوزان].

تِلْكَ الطَّبِيعَةُ قِفْ بِنَا يَا سَارِي ... حَتَّى أُرِيكَ بَدِيعَ صُنْعِ البَارِي

الأَرْضُ حَوْلَكَ وَالسَّمَاءُ اهْتَزَّتَا ... لِرَوَائِعِ الآيَاتِ وَالآثَارِ

دَلَّتْ عَلَى مَلِكِ المُلُوكِ فَلَمْ تَدَعْ ... لِأَدِلَّةِ الفُقَهَاءِ وَالأَحْبَارِ

مَنْ شَكَّ فِيهِ فَنَظْرَةٌ فِي صُنْعِهِ ... تَمْحُو أَثِيمَ الشَّكِّ وَالإِنْكَارِ

ولو تأمل الإنسان خلق السماوات والأرض لاستدل على الله البديع سبحانه وتعالى، القائل عن نفسه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة:١١٧].

قال ابن كثير رحمه الله: "مبدع السماوات والأرض وخالقهما ومنشئهما ومحدثها على غير مثال سبق".

وقال الشيخ السعدي رحمه الله: "﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: خالقهما ومبدعهما في غاية ما يكون من الحسن والخلق البديع والنظام المحكم".

نداء لأولي الألباب!

وإذا كان كذلك؛ فكيف يصح أن ينسب إليه شيء منهما على أنه ولد له -تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!-، بل كل ما فيهما فمن إيجاده وإبداعه، وهو خاضع له وعابد، فالله تبارك وتعالى قد قال: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾[البقرة: ١١٦-١١٧].

وإذا ثبت أن: كل ما في السماوات والأرض من إيجاده وإبداعه؛ ثبت أنه: داخل في عباده وملكه، فيستحيل أن يكون له ولد.

وإذا كان الأمر كذلك؛ كان حقًّا على البشر: أن يأتمروا بأمره وينصرفوا عما نهى عنه؛ فضلاً أن ينسبوا له الولد والزوجة!

ثم إن الله سبحانه وتعالى أمرنا: أن نتفكر في الكون وفي بديع صنعه، فالله قال جل وعلا: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾[آل عمران: ١٩٠]. فالكون كله يحوي دلائل الإيمان، ويشير إلى

صانعه السميع البصير.

تَأَمَّلْ سُطُورَ الكَائِنَاتِ فَإِنَّهَا ... مِنَ المَلا الأَعْلَى إِلَيْكَ رَسَائِلُ
وَقَدْ خُطَّ فِيهَا لَوْ تَأَمَّلْتَ خَطَّهَا ... أَلا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلا اللهَ بَاطِلُ
شُهُودٌ عَلَى فَضْلِ الإِلَهِ وَمَنِّهِ ... لِسَانٌ فَصِيحٌ صَامِتٌ وَهُوَ قَائِلُ

❐ تأمل في الكون!

يدخل بلال رضي الله عنه على النبي ﷺ يؤذنه بصلاة الصبح؛ فإذا بالنبي ﷺ مضطجع يبكي؛ فقال: يا رسول الله! ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

فقال له: «وَيْحَكَ يَا بِلالُ! وَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَبْكِي وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾[آل عمران:١٩٠]»؛ فقرأها إلى آخر السورة.

ثم قال: «وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا!»[حديث صحيح. أخرجه ابن حبان].

فمشهد السماوات وما فيها من نجوم وكواكب، وشمس وقمر، والأرض وما فيها من جبال وأنهار وبحار وحيوانات ونباتات وجمادات وأحياء وأموات.. يدل على بديع السماوات والأرض، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ٦١ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً

لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ﴿٦٢﴾﴾[الفرقان:٦١-٦٢].

في مؤتمر الشبان الإسلامي؛ الذي عقد في الرياض عام (١٩٧٩م) قام البروفيسور الأمريكي (بالمر) عندما سمع قول الله ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَا﴾[الأنبياء:٣٠]، وقال: "حقا لقد كان الكون في بدايته عبارةً عن سحابة دخانية غازية هائلة متلاصقة، ثم تحولت بالتدريج إلى ملايين الملايين من النجوم التي تملأ السماء، ولا يمكن بحال من الأحوال أن ينسب ذلك إلى شخص مات قبل (١٤٠٠ سنة)؛ لأنه لم يكن لديه تليسكوبات ولا سفن فضائية تساعد على اكتشاف هذه الحقائق، فلا بد أن الذي أخبر محمداً هو: الله"، وأعلن البروفيسور (بالمر) إسلامه في نهاية المؤتمر.

وفي المؤتمر الطبي السعودي الثامن بالرياض عام (١٤٠٤هـ) قام البروفيسور (تاجاتات تاجاسون) -رئيس قسم التشريح والأجنة في جامعة ماي بتايلاند-، وقال: "وحيث إن النبي ﷺ لم يكن يستطيع القراءة والكتابة؛ فلا بد أن محمداً ﷺ: رسول جاء بهذه الحقيقة، لقد بعث إليه هذا عن طريق وحي من خالق عليم بكل شيء؛ هذا الخالق لا بد أن يكون هو الله.

ولذا؛ فإنني أعتقد أنه حان الوقت لأن (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن

محمداً رسول الله)".

❑ دواء..

وشأن اسم الله البديع ﷻ: عظيم! فمن دعا به استجيب له.

روى الترمذي عن أنس قال: دخل النبي ﷺ المسجد ورجل قد صلى، وهو يدعو ويقول في دعائه: اللهم! لا إله إلا أنت، المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام!

فقال النبي ﷺ: «أَتَدْرُونَ بِمَ دَعَا اللهَ؟ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى»[حديث صحيح].

اللهم! اغفر لنا وارحمنا؛ يا أرحم الراحمين!

يا بديع السماوات والأرض! اغفر لنا وارحمنا، وتجاوز عنا؛ إنك على كل شيء قدير.

(٩٨)

المُعْطِي جل جلاله

العطاء: من أجل هباته..

والكرم: صفة من صفاته..

والجود: من أعظم سماته، فمن أعظم منه جوداً وكرماً وعطاءً؟!

وإن من أسماء الله الحسنى: (المعطي تبارك وتعالى).

صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ، وَاللَّهُ يُعْطِي» [أخرجه البخاري ومسلم].

فربنا تبارك وتعالى هو: المعطي على الحقيقة لكل الخليقة، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع.

فعطاؤه سبحانه وتعالى لكل موجود في الوجود، ليس له حدود، ولا مقيد بقيود، وهو كمال الكرم والجود.

وربنا إذا أعطى؛ فتفضل وإصلاح، وإذا منع فحكمة وصلاح.

هُوَ مَانِعٌ مُعْطٍ فَهَذَا فَضْلُهُ ... وَالْمَنْعُ عَيْنُ العَدْلِ لِلْمَنَّانِ

يُعْطِي بِرَحْمَتِهِ وَيَمْنَعُ مَنْ يَشَا ... ءُ بِحِكْمَةٍ وَاللَّهُ ذُو سُلْطَانِ

وعطاء الله نوعان :

١ – عطاء عام: في الدنيا.

وهو: لكل الخلائق أجمعين؛ مؤمنهم وكافرهم، فالله ﷻ أصلح لهم أمرهم في دنياهم، قال ﷻ: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾[الإسراء: ٢٠].

٢ – وعطاء خاص: في الدنيا والآخرة.

وهو: لأنبيائه ورسله وعباده الصالحين، فيهب لهم في الدنيا الرزق الحلال والذرية الصالحة، والإيمان والتقوى، واليقين والهدى المبين، وهي أعظم العطايا في الدنيا، روى الحاكم في «المستدرك»، وصححه الذهبي: عن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ يُعْطِي الدُّنْيَا لِمَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لاَ يُحِبُّ، وَلاَ يُعْطِي الدِّينَ إِلاَّ مَنْ يُحِبُّ».

وأما في الآخرة؛ فهي العطية الكبرى في جناته العلا؛ التي لا أكمل ولا أجل منها! قال ﷻ: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾[النبإ:٣٦]، وأعظم العطاء في دار الحسنى والبهاء: رضا رب العالمين، والنظر إلى وجهه الكريم.

مفاتيح العطاء:

وربنا كريم يحب الكرماء، وهو المعطي ويحب أهل العطاء؛ ولذلك ساد الناس أهل العطاء، جاء عند أبي داود عن النبي ﷺ أنه قال: «الأَيْدِي

ثَلاثَةٌ: فَيَدُ اللهِ العُلْيَا، وَيَدُ المُعْطِي الَّتِي تَلِيهَا، وَيَدُ السَّائِلِ السُّفْلَى، فَأَعْطِ الفَضْلَ، وَلَا تَعْجِزْ عَنْ نَفْسِكَ» [حديث صحيح].

وللكرماء الأجر الكبير من عند ملك الملوك؛ ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾ [الحديد:٧].

وقد وعد ﷻ رسوله ﷺ أن يعطيه حتى يرضيه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ [الضحى:٥].

ومما أعطاه الله رسوله في الآخرة: نهر الكوثر: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١]، جاء عنه ﷺ أنه قال عن الكوثر: «نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي ﷻ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ: حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُوْمِ» [أخرجه مسلم].

وإذا نظر الله إليك، وعلم أنك قد جعلته معتمدك وملجأك، وأفردته بحوائجك دون خلقه، أعطاك أفضل مما سألته، وأكرمك بأكثر مما أردته.

سُبْحَانَ مَنْ يُعْطِي المُنَى بِخَوَاطِرٍ ... فِي النَّفْسِ لَمْ يَنْطِقْ بِهِنَّ لِسَانُ
سُبْحَانَ مَنْ لَا شَيْءَ يَحْجُبُ عِلْمَهُ ... فَالسِّرُّ أَجْمَعُ عِنْدَهُ إِعْلَانُ
سُبْحَانَ مَنْ هُوَ لَا يَزَالُ وَرِزْقُهُ ... لِلْعَالَمِينَ بِهِ عَلَيْهِ ضَمَانُ

اللهم! أعطنا ولا تحرمنا، وجد علينا ولا تردنا خائبين؛ يا رب العالمين!

(٩٩)

المُحْسِنُ جل جلاله

صح عنه ﷺ أنه قال: «إِذَا حَكَمْتُمْ فَاعْدِلُوا، وَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ مُحْسِنٌ يُحِبُّ الإِحْسَانَ»[حديث حسن. رواه الطبراني في «المعجم الأوسط»].

وجاء في الحديث الآخر من حديث شداد بن أوس: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ مُحْسِنٌ يُحِبُّ الإِحْسَانَ...»[حديث صحيح. «الجامع الصغير»].

ربنا ﷻ بلغ الكمال في ذاته وصفاته وأفعاله؛ ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف: ١٨٠]، فلا أحسن ولا أكمل منه!

وربنا ﷻ هو: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾[السجدة:٧].

فالإحسان له وصف لازم، فلا يخلو موجود من إحسانه طرفة عين، غمر الخلق جميعًا بإحسانه وفضله؛ برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، ولا قيام لهم ولا بقاء إلا به وبجوده وإنعامه.

ويتجلَّى إحسان الله ﷻ للعبد بأن أخرجه من العدم إلى الوجود، ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾[الإنسان:١]، ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ

ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧﴾[السجدة:٧].

ثم صوره في أحسن صورة: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر:٦٤]، ثم جعل له عقلاً يميز بين الحق والباطل: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ١٠﴾ [البلد: ١٠].

وسخر له السماوات والأرض وما فيهن: ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾[لقمان:٢٠].

وأسبغ عليه النعم التي لا تعد ولا تحصى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ٣٤﴾[إبراهيم:٣٤].

كمال الإحسان:

وأعظم الإحسان للعبد: توفيقه لهذا الدين، وشرح صدره للإسلام والثبات على الحق إلى الممات، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ١٢٨﴾[النحل:١٢٨].

وتوفيق أوليائه إلى الحياة الطيبة الآمنة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٞ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٩٧﴾[النحل:٩٧].

وتفريج كرب أوليائه هو: إنجاؤهم من الشدائد والهموم؛ فالله ﷻ قال

حكايةً عن يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾[يوسف:١٠٠].

ثم يتجلَّى كمال إحسانه لأوليائه فِي الدار الآخرة؛ الذي هو أعلى الإحسان وزيادة، قال ﷻ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[يونس: ٢٦].

فالحسنى لهم: الجنة.

والزيادة: النظر إلى وجه ربهم الأعلى؛ الذي لا أحسن ولا أجمل ولا أكمل ولا أسمى منه!

وجمع تبارك وتعالى لهم من الثوابين: المعجل والمؤجل في قوله: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)﴾[آل عمران:١٤٨].

وربنا ﷻ إحسانه عظيم؛ فأحسن شرعه وجعله مشتملاً على العواقب الحميدة، والغايات العظيمة؛ التي فيها خير لكل الخلق، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)﴾[المائدة:٥٠].

❑ والإحسان نوعان:

١) إحسان في عبادة الله سبحانه وتعالى:

وهي أعلى مقامات الدين وأرفعها؛ كما جاء في حديث جبريل المشهور، وفسر الإحسان في الحديث: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[أخرجه البخاري ومسلم].

٢) وإحسان إلى عباد الله سبحانه وتعالى:

وذلك بإيصال جميع أنواع الخير لهم، والكف عن أذاهم؛ قال تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾[التوبة: ١٢٠].

وربنا سبحانه وتعالى يحب أسماءه، ويحب من عباده أن يتقربوا إليه بمقتضى معاني أسمائه؛ فهو رحيم يحب الرحماء، كريم يحب الكرماء، محسن يحب المحسنين، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾[البقرة:١٩٥].

وأولى الناس بذلك: الوالدان؛ لقوله عز وجل: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾[الأحقاف: ١٥]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾[القصص: ٧٧].

إِلَيْـكَ إِلَـهَ العَـرْشِ أَشْـكُو تَـضَرُّعًا
وَأَدْعُـوكَ فِي الـضَّرَاءِ رَبِّـي لِتَـسْمَعَا
إِلَهِـي فَحَقِّـقْ ذَا الرَّجَـاءَ وَكُـنْ بِنَـا
رَؤُفًـا رَحِيْمًـا مُـسْتَجِيْبًا لَنَـا الـدُّعَا
فَيَا مُحْسِنًا قَدْ كُنْتَ تُحْسِنُ دَائِمًا
وَيَـا وَاسِـعًا قَـدْ كَـانَ عَفْـوُكَ أَوْسَـعَا
نَعُـوذُ بِـكَ اللَّهُـمَّ مِـنْ سُـوءِ صُنْعِنَا
فَـإِنَّ لَنَـا فِي العَفْـوِ مِنْـكَ لَمَطْمَعَـا
أَغِثْنَـا أَغِثْنَـا وَارْفَـعْ الـشِّدَّةَ الَّتِـي
أَصَابَتْ وَصَابَتْ وَاكْشِفِ الضُّرَّ وَارْفَعَا

وَجُدْ وتَفَضَّلْ بالذِي أَنْتَ أَهْلُهُ

مِنْ العَفْو والغُفْرَانِ يَا خَيْرَ مَنْ دَعَا

اللهم! اجعلنا من المحسنين، وأحسن إلينا؛ وتقبل منا ومن والدينا وجميع المسلمين.

وَقَفَاتٌ
مَعَ أَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَى

١- المؤمن يبذل مقدوره ومستطاعه في معرفة الله تبارك وتعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله؛ من غير تعطيلٍ، ولا تمثيلٍ، ولا تحريفٍ، ولا تكْييفٍ.

وتكون معرفته مُستقاةً من الكتاب والسُّنَّة، وما صحَّ وثبت عن الصَّحابة والتَّابعين لهم بإحسانٍ.

٢- أسماء الله جل وعلا توقيفية لا مجال للعقل فيها، وعلى هذا؛ فيجب الوقوف فيها على ما جاء به الكتاب والسُّنَّة؛ فلا يزاد فيها ولا ينقص.

٣- الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصرٍ ولا تحدُّ بعددٍ؛ فإن لله سبحانه وتعالى أسماءً وصفاتٍ استأثر بها في علم الغيب عنده؛ لا يعلمها ملَك مقرَّب، ولا نبي مرسل؛ كما في الحديث: «..أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ؛ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَكَ..»[حديث صحيح. رواه الطبراني في «المعجم الكبير»].

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ» [أخرجه البخاري ومسلم]؛ فكلام جملة واحدة.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»: صفة، لا خبرًا مستقبلًا، والمعنى: له أسماء متعددة من شأنها: أن من أحصاها دخل الجنة.

وهذا لا ينفي أن يكون له أسماء غيرها، وهذا كما تقول: "لفلانٍ مئة مملُوك قد أعدهم للجهاد". فلا ينفي هذا أن يكون له مماليك سواهم مُعدون لغير الجهاد، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء.

وفي قوله ﷺ: «مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»، أي: من حفظها، وفهمها، وأثنى على الله ﷻ بها، فهذه ثلاث مراتبٍ فمن حصل له إحدى هذه المراتب مع صحَّة النية والعمل بمقتضاها؛ فقد أحصاها؛ كما قال القرطبي والخطابي وابن القيم رحمهم الله.

٤- وجميع أسماء الله ﷻ حسنى، وهي تنقسم إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: أسماء جمال:

وهي تَبعث في نفس العبد: محبة اللهِ ﷻ، والأُنس به، وبلقائه، والرغبة إليه، وتُشعر بالراحة والطمأنينة، وتفتح باب الرجاء عند المخلوق؛ فلا يقنط من رحمة الله ﷻ، مثل: (الرحمن، الرحيم، الكريم، العفو، الحليم، الغفور، التواب)، وغيرها.

القسم الثاني: أسماء جلال:

وهي تورث: الهيبة والرهبة والخوف والخشية من الله ﷻ، وتعظيمه وإجلاله.

وهي: التي فيها معاني القهر والقوة والجبروت والعظمة؛ كاسم: (العزيز، والجبار، والقهار، والقوي، والكبير، والمتكبر).

القسم الثالث: أسماء ربوبية:

وهي: التي يشعر عندها المؤمن بالذل، وأنه مخلوق مربوب لله ﷻ.

وهي: التي تدل على ربوبية الله ﷻ؛ كـ (الرب، والسيد، والملك، والمالك، والخالق، والبارئ، والرازق).

القسم الرابع: أسماء ألوهية:

وهي: التي يشعر المؤمن فيها: أنه عبدٌ لله ﷻ، وأن الله هو وحده المستحق للعبادة.

وهي: التي فيها معاني الألوهية؛ كاسم: (الإله، والصمد).

وهذا تقسيم باعتبار المعنى، وإلا فإن أسماء الله ﷻ جميعها جمعت الجمال والجلال والكمال والعظمة، فهي دالة على أحسن مسمى، وأجل موصوف.

٥- أن كل اسم منها دال على ثبوت صفة كمال لله ﷻ؛ ولذا كانت حسنى، وصفاته ﷻ كلها صفات كمال، ونعوته كلها نعوت جلال، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل.

٦- أسماء الله ﷻ ليس فيها اسم يحتوى على الشر، أو يدل على نقص.

فالشر ليس إليه؛ فلا يدخل في صفاته، ولا يلحق بذاته، ولا يكون في شيء من أفعاله؛ فلا يضاف إليه فعلاً ولا وصفاً.

٧- أمر الله ﷻ عباده بدعائه بها بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ

بِهَا﴾[الأعراف:١٨٠]، وهذا يشمل: دعاء العبادة، ودعاء المسألة.

وهذا من أجل الطاعات، وأعظم القربات.

٨- لم يثبت في سرد الأسماء الحسنى حديث عن النبي ﷺ.

والقاعدة: "أن أسماء الله ﷻ إنما تُستقى من الكتاب والسُّنَّة".

٩ - أوقفت الطبعة الثانية على شرح تسعة وتسعين اسمًا من أسماء الله الحسنى فيما اتفق عليه الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين، والشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز، والدكتور عمر سليمان الأشقر، أو فيما اتفق عليه اثنان من الثلاثة رحمهم الله.

وفي الختام..

انتهى بحمد اللهِ ﷻ ما تيسر لي جمعه في هذا الكتاب؛ الذي أسأل الله ﷻ أن يتقبَّله منِّي، وأن ينفع به سائر العباد.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمدُ للَّه ربِّ العالَمين

❐ **قام بالتَّدقيق والمراجعة اللغوية:** الأستاذ/ محمد العبد العظيم، والأستاذ/ محمد عبد اللطيف.

وقام بنسخ الكتاب: الأستاذ/ معوض رزق.

ونسَّقه: السادة/ مؤسسة الربيع – أحمد كشوقه.

وفقهم الله جميعًا.

❐ **نبذة عن المؤلف:**

عبد الله بن مشبب بن مسفر القحطاني، من مواليد (١٣٨٧هـ الموافق ١٩٦٧م).

حاصل على درجة الدكتوراه في الفقه الإسلامي، مشرفًا تربويًّا متقاعد، إمام وخطيب جامع (أبو بكر الصديق رضي الله عنه) بمدينة الدمام بالمملكة العربية السعودية.

مُحْتَوياتُ الكِتابِ

المُحْتَوَى	الصَّفْحَةُ
إِهْدَاءٌ	٥
مقدمة الطبعة الثانية	٧
مُقَدِّمَةٌ	٩
دُعَاءٌ وَمُنَاجَاةٌ	١٢

أَسْمَاءُ اللَّهِ الحُسْنَى

١ ، ٢) اللّهُ، الإِلَهُ	١٣
٣) الرَّبُّ	٢٠
٤، ٥) الأَحَدُ، الوَاحِدُ	٢٦
٦) الصَّمَدُ	٣٥
٧، ٨) الرّحْمَنُ، الرَّحِيمُ	٤١
٩) الحَيُّ	٤٨
١٠) القَيُّومُ	٥٤

١١، ١٢) المَلِكُ، المَلِيكُ	٥٩
١٣) السبوح	٦٨
١٤) القُدُّوْسُ	٧٤
١٥) السَّلَامُ	٧٨
١٦) المُؤْمِنُ	٨٤
١٧) المُهَيْمِنُ	٨٩
١٨) العَزِيزُ	٩٤
١٩) الجَبَّارُ	١٠٢
٢٠) المُتَكَبِّرُ	١٠٨
٢١، ٢٢) الخَالِقُ، الخَلَّاقُ	١١٣
٢٣) البَارِئ	١١٨
٢٤) المُصَوِّرُ	١٢٢
٢٥) العَفُوُّ	١٢٧
٢٦، ٢٧) الغَفُوْرُ، الغَفَّارُ	١٣٣
٢٨) الكَبِيرُ	١٤٠

٢٩، ٣٠، ٣١) الأَعْلَى، العَلِيُّ، المُتَعَالِ	١٤٦
٣٢، ٣٣) القَاهِرُ، القَهَّارُ	١٥٣
٣٤) الوَهَّابُ	١٥٨
٣٥) الرَّزَّاقُ	١٦٤
٣٦) الفَتَّاحُ	١٧٠
٣٧) السَّمِيعُ	١٧٦
٣٨) البَصِيرُ	١٨٣
٣٩) التَّوَّابُ	١٨٨
٤٠) العَلِيمُ	١٩٥
٤١) العَظِيمُ	٢٠٢
٤٢) القَوِيُّ	٢٠٨
٤٣) المَتِينُ	٢١٤
٤٤، ٤٥، ٤٦) القَادِرُ، القَدِيرُ، المُقْتَدِرُ	٢١٨
٤٧) الحَفِيظُ	٢٢٤
٤٨) الغَنِيُّ	٢٣٠

٤٩ ، ٥٠) الحَكَمُ، الحكِيمُ	٢٣٦
٥١) اللَّطِيفُ	٢٤٢
٥٢) الخَبِيرُ	٢٤٧
٥٣) الحلِيمُ	٢٥٢
٥٤) الرَّؤُوْفُ	٢٥٧
٥٥) الوَدُوْدُ	٢٦٧
٥٦) البَرُّ	٢٧٠
٥٧) القَرِيبُ	٢٧٥
٥٨) المُجِيبُ	٢٨١
٥٩) المَجِيدُ	٢٨٥
٦٠) الحَمِيدُ	٢٩١
٦١، ٦٢) الشَّاكِرُ، الشَّكُوْرُ	٢٩٥
٦٣، ٦٤) الأَكْرَمُ، الكَرِيم	٣٠١
٦٥) المُقِيتُ	٣٠٨
٦٦) الوَاسِعُ	٣١٤

٦٧) الرَّقِيبُ	٣٢١
٦٨) الحَسِيبُ	٣٢٦
٦٩) الشَّهِيدُ	٣٣٢
٧٠) الحَقُّ	٣٣٧
٧١) المُبِينُ	٣٤٢
٧٢) المُحِيطُ	٣٤٧
٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦) الأَوَّلُ، الآخِرُ، الظَّاهِرُ، البَاطِنُ	٣٥٢
٧٧) الوَكِيلُ	٣٥٨
٧٨) النُّوْرُ	٣٦٧
٧٩) الكَافِي	٣٧٣
٨٠، ٨١) المَوْلَى، الوَلِيُّ	٣٧٨
٨٢) الهَادِي	٣٨٤
٨٣) النَّصِيرُ	٣٨٩
٨٤) الوَارِثُ	٣٩٤
٨٥) الشَّافِي	٣٩٨

٨٦) الجَمِيلُ	٤٠٥
٨٧، ٨٨) القَابِضُ، البَاسِطُ	٤١٠
٨٩، ٩٠) المُقَدِّمُ، المُؤَخِّرُ	٤١٨
٩١) الحَيِيُّ	٤٢٣
٩٢) الدَّيَّانُ	٤٢٧
٩٣) المَنَّانُ	٤٣٢
٩٤) الجَوَادُ	٤٣٧
٩٥) الرَّفِيقُ	٤٤٠
٩٦) السَّيِّدُ	٤٤٤
٩٧) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ	٤٤٩
٩٨) المُعْطِي	٤٥٤
٩٩) المُحْسِنُ	٤٥٧
وَقَفَاتٌ مَعَ أَسْمَاءِ اللهِ الحُسْنَى	٤٦٣
مُحْتَوَيَاتُ الكِتَابِ	٤٦٨